العقد الفريد
فى
مباحث من علوم القرآن المجيد

دكتور

إبراهيم توفيق الديب

الأستاذ بجامعة الأزهر

كلية أصول الدين والدعوة

بالمنصورة

بسم الله الرحمن الرحيم

العقد الفريد
فى
مباحث من علوم القرآن المجيد

الطبعة الثانية
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، والصلاة والسلام على أحب خلقه ، وصفوة رسله ، وخاتم أنبيائه ، سيدنا محمد بن عبد الله ، النبي الأمى ، العربى القرشى الأمين ، وعلى آله السادة الأطهار ، وأصحابه القادة الأخيار ، والتابعين الأبرار ، الذين اتبعوهم بإحسان ، وعلى كل من يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، صلوات وتسليمات دائمات متلازمات إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا كتاب صنفته فى « علوم القرآن الكريم » ، سميته : « العقد الفريد فى مباحث من علوم القرآن المجيد » وضمنته أربعة مباحث :

المبحث الأول : فى التناسب بين الآيات والسور .

المبحث الثانى : فى النسخ فى القرآن الكريم .

المبحث الثالث : فى موهم الاختلاف والتناقض .

المبحث الرابع : فى المحكم والمتشابه .

وهذا الكتاب الذى بين يديك ــ أخى القارىء ــ مسبوق بكتاب آخر صنفته كذلك فى هذا العلم الجليل المبارك ، وسميته : « الدر النظيم فى مباحث من علوم القرآن الكريم » ، تناولت فيه الحديث عن ثلاثة مباحث وهى :

مبحث : المكى والمدنى .

مبحث : جمع القرآن الكريم .

مبحث : ترتيب الآيات والسور .

وطبع فى مطبعة دار الوفاء بالمنصورة سنة ١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢ م .

وقد تحريت فيما كتبت الرجوع إلى أمهات الكتب والمراجع العلمية الأصيلة ، وتوخيت الإلمام بكل موضوع تعرضت له ، وسلامة الأسلوب ، وسهولة التعبير ، وحسن العرض ، وجودة التنظيم ، وأمانة النقل ، مستعينا بالله وحوله ، وفضله وطوله .

وأسأله سبحانه أن يوفقنى لمواصلة الدرس والبحث ، وأن يعيننى على المضى فى الكتابة فى هذا العلم العظيم الثمرات ، والجليل الفوائد والبركات ، وأن أظل من خدمة العلم وسدنة الدين ، وأن يهدينى سواء السبيل ،

فمن الله وحده أستمد العون على إتمام ما بدأت ، وأستمنح التوفيق لإكمال ما عزمت ، وأرجوه السداد والرشاد ، ورحم الله امرأ من العلماء المحققين أطلع على شيء كتبته فى أى كتاب أو بحث لى فوجد فيه خطأ علميا — بدون قصد منى — فأهداه إلىّ ، وبصرنى به ، وأرشدنى إليه ، ودلنى عليه ، فكل كتابات البشر وأقوالهم لا تخلو من النقص والعور ، وعرضة دائما لإعادة النظر ، والمؤمن مرآة أخيه ، ولا معصوم إلا من عصم الله ، وأذكر عبارة حفظتها فى صغرى قالها أحد العلماء . الأفاضل القدامى وهى :

« رأيت أنه لا يكتب إنسان ما كتابا فى يومه إلا قال فى غده : لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، ودليل على استيلاء النقص على جملة البشر » .

وحسبى أنى بحثت واجتهدت ، وفكرت وتأنيت ، فإن كنت موفقا فى كل مسألة عرضت لها فى كتبى فمن الله وحده ، وله الحمد أن هدانى

لهذا وما كنت لأهتدى أنا وغيرى لولا أن هدانا الله .

وإن كنت غير ذلك فمن نفسى ومن الشيطان ، ولا حول ولا قوة إلا بـالله العلى العظيم الواسع العفو الكثير الغفران ، ولا يسعنى إلا أن أقول وأدعو : ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » .

وأسأله جل وعلا أن ينفع بما كتبته أنا وغيرى من العلماء المخلصين ذوى الأقلام الصادقة ، والمؤلفات المباركة السامقة ، الإسلام والمسلمين ، وأن يجعل ذلك ذخرا لنا فى قبورنا ، وفى ميزان حسناتنا يوم القيامة ، يوم لا ظل إلا ظله ، «لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم » .

وأن يجعلنا من المخلصين العاملين ، الصادقين الغيورين على الدين ، الهادين بالحق وبه يعدلون ، المبتغين وجه الله تعالى ، والحظوة برضوانه : « ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » .

وعلى الله قصد السبيل ، وما توفيقى إلا بـالله عليه توكلت وإليه أنيب .

وصلى الله تعالى وسلم على حبيب الحق وسيد الخلق سيدنا محمد الصادق المصدوق ، والشفيع المشفع ، وعلى آله وصحابته وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

المؤلف

المبحث الأول
تناسب الآيات والسور

شاء الله عز وجل أن يوحى بخير الكتب السماوية إلى خاتم النبيين وآخر المرسلين سيدنا محمد ﷺ ، وأن يوحيه إليه منجما ، ويستغرق وحيه إليه ونزوله عليه مدة تقرب من ثلاث وعشرين سنة ، وكانت النجوم القرآنية المنزلة عليه مختلفة فى حجمها وكمها ، فجبريل عليه السلام أمين الوحى كان ينزل أحيانا بسورة كاملة ، وأحيانا بجملة آيات ، وأحيانا بآية واحدة أو بجزء آية ، وكل ذلك يأمر الله تعالى وإذنه : « وما نتنزل إلا بأمر ربك » : الآية (١) ، ويخبر رسول الله ﷺ بموطن كل نجم نزل ويوضع فى موضعه اللائق به والمعدّ له ليحفظ عن ظهر قلب ، وكل ذلك بأمر الله تعالى .

وكان ﷺ يبلغ صحابته وكتبة وحيه ما نزل ، ولم يأل جهدا فى التبليغ ، روى الإمام أحمد بسنده — وحسنه الهيثمى والسيوطى — عن عثمان بن أبى العاص رضى الله عنه قال : كنت عند رسول الله ﷺ جالسا إذ شخص ببصره ، ثم صوبه حتى كاد أن يلزقه بالأرض ، قال : ثم شخص ببصره فقال : أتانى جبريل عليه السلام فأمرنى أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة : إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتائى ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » (٢) .

(١) سورة مريم ٦٤ .

(٢) الآية المذكورة من سورة النحل ٩٠ وهى أجمع آية فى القرآن الكريم للخير والشر كما قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه وقتادة بن دعامة السدوسى رحمه الله ولذا يختم بها كثير من الخطباء خطبهم ، وانظر الحديث فى المسند للإمام أحمد جـ ٤ ، ص ٢١٨ ، ومجمع الزوائد للهيثمى كتاب التفسير سورة النحل جـ ٧ ص ٤٩ ، =

ومع نزول القرآن الكريم منجما واستغراق نزوله هذه المدة الزمنية الطويلة واختلاف الأزمنة التى نزل فيها وتغاير الأماكن التى نزل بها وتعدد الأسباب التى نزل عليها وتنوع ما تتضمنه كل سورة من أحكام ومقاصد وأهداف وسمات وملامح نرى الترابط بين جمله وآياته وسوره ومعانيه ، بل بين آخره وأوله ظاهرا بارزا ، فالقرآن من أوله إلى آخره ومن ألفه إلى يائه يبدو فيه التضام والتلاحم والتآلف ، فلا نرى بين سوره ولا بين آياته ولا بين جمله وألفاظه انفصالا أو انفصاما ، ولا نحس بنفرة فى المخارج ولا نفرة فى النغم ولا نبو فى المعانى ، وإنما نرى التآخى بين الألفاظ ومعانيها ، والتآلف بين الكلمات ومبانيها ، حتى إن المعانى يدعو بعضها بعضا ، وكل جمله وأجزائه يعانق بعضها بعضا ويأخذ بعضها بحجز بعض ، كأنه نزل جملة واحدة بنفس الترتيب أو كأنه كلمة واحدة ، أو حلقة ذهبية لا يدرى أين طرفاها ، فهو رائع الألفاظ ، عجيب المعانى ، بديع التأليف ، محكم النسج والسرد ، أعلاه مثمر ، وأسفله مغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى ، كل كلمة فيه جاءت على قدر المعنى الذى صيغت له ، ولو رفعتها من مكانها أو قدمتها أو أخرتها عن أختها لاختل المعنى واعتل المراد منها وانتثر عقده المنظوم ، ولو بذلت جهدك وأفرغت وسعك فى أن تأتى بكلمة أخرى مكانها لتسد مسدها وتحل محلها وتؤدى ما تؤديه لذهب جهدك هباء وما استطعت إلى ذلك سبيلا ، هذا فى الكلمة الواحدة فما بالك بالجملة ؟ فما بالك

= والإتقان للسيوطى جـ ١ ص ٦٠ ، وقد وهم الهيثمى فى كتابه مجمع الزوائد إذ أسند الحديث إلى عمرو بن أبى العاص ، والصواب أن يسند إلى عثمان بن أبى العاص الثقفى كما هو موجود فى مسند أحمد وفى الإتقان وكتب التفسير بالمأثور ، ومن يتصفح أسد الغابة وغيره من الكتب المؤلفة فى الصحابة رضى الله عنهم لا يجد صحابيا باسم : عمرو بن أبى العاص ، فما وقع فيه الهيثمى وهم علمى فليتنبه .

بالآية ؟؟ ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾[1] ، ﴿ ... وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[2] ، ﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴾[3] .

روى الترمذى والدارمى بسندهما عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه وعن شهر بن حوشب رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله تعالى على سائر خلقه[4].

ومن ثم حرم العلماء قراءة القرآن بالمعنى وطالبوا قارئه وتاليه أن يراعى ترتيبه وأن يراقب الله فى قراءته ، فلا يليق أن ينتقل من سورة إلى سورة أخرى إلا بعد أن يتمها ، ولا يصح أن يختار وينتقى آيات متفرقات من سورة واحدة أو من بضع سور كما يفعله بعض القراء وابتلى به بعض الناس لأن ذلك يخل بوجه التناسب بين الآيات ، والأشد من ذلك حرمة والأكبر جرما قراءته معكوسا أو منكوسا وإن من يرتكب ذلك يكون منكوس القلب كما قال عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه .

وقد أجمعت الأمة على أن ترتيب الآيات القرآنية فى سورها على النمط الذى نراه اليوم فى المصاحف ويوجد منذ انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى حصل بتوقيف من النبى ﷺ عن جبريل عليه السلام عن الله تعالى ، وأن لا مجال للرأى والاجتهاد فى ذلك .

---

(١) سورة هود عليه السلام ١ .
(٢) سورة فصلت ٤١ — ٤٢ .
(٣) سورة الفرقان ٦ .
(٤) انظر سنن الترمذى أبواب فضائل القرآن جـ ٤ ص ٢٥٦ وقال عنه : حسن غريب ، وسنن الدارمى كتاب فضائل القرآن باب فضل كلام الله على سائر الكلام جـ ٢ ص ٤٤١ .

أما ترتيب السور ففيه خلاف بين العلماء ، والراجح أنه توقيفى كترتيب الآيات ، والأدلة على هذا كثيرة مستفيضة وليس المجال مجال ذكرها .

كما أجمع العلماء على أن القرآن الكريم معجز وأن وجوه إعجازه كثيرة متنوعة ، وأن التناسب بين آياته وسوره أحد وجوه إعجازه .

لذا اهتم العلماء القدامى والمحدثون بالكلام عن التناسب بين آيات القرآن وسوره ، وصنف بعضهم فى هذا الموضوع مصنفات ، وأولوه عنايتهم الفائقة حتى صار أحد علوم القرآن الكريم ويسمى : بعلم المناسبات ، ولا يخلو كتاب فى التفسير أو فى علوم القرآن المجيد من الكلام عن المناسبات .

تعريف المناسبة

تطلق المناسبة فى اللغة على : المقاربة والمشاكلة ، يقال : فلان يناسب فلانا فهو نسيبه أى قريبه ، والمناسب : القريب ، ويقال : هذا يناسب هذا أى يقاربه شبها ، ويقال : بينهما مناسبة أى مشاكلة [(1)].

وتطلق فى اصطلاح المفسرين على : وجه الارتباط والاتصال بين الجملتين فى الآية الواحدة أو بين الآية والآية أو بين السورة والسورة .

وتختلف عبارة المفسرين وأهل القرآن الحكيم فى صوغ هذا المعنى الرابط بين جمل القرآن وآياته وسوره ، كما تختلف عبارتهم فى تسميته ووصفه :

فمنهم من يقول عنه : إنه وجه الربط ، ومنهم من يقول : إنه وجه

(١) انظر الصحاح للجوهرى جـ ١ ص ٢٢٤ ، والمصباح المنير للفيومى ص ٦٠٢ ، والقاموس المحيط للفيروزابادى جـ ١ ص ١٣١ — ١٣٢ .

التعلق ، ومنهم من يقول : إنه وجه النظم ، ومنهم من يقول : إنه مناسبة الآية أو الآيات لما قبلها ، ومنهم من يقول : إنه صلتها بسابقتها ، ومنهم من يقول : إنه التآخي أو التآلف ، ومنهم من يقول : إنه التعانق والتناسق ، وغير ذلك من الأوصاف التي تؤدي كلها غرضا واحدا .

وينبغي أن تعرف أيها القارىء الكريم أنه لم يرد — فيما أعلم — نص مناسبة بين آية وآية ولا بين سورة وسورة عن الرسول ﷺ ولا عن صحابته رضي الله تعالى عنهم ولا عن التابعين رحمهم الله ، ولم يتكلم أحدهم في ذلك إذ كانوا يشعرون بالترابط التام بين آيات القرآن الكريم وسوره ، ويحسونه بسليقتهم العربية وصفاء أذهانهم ونقاء قلوبهم ، بل يرونه بارزا ماثلا كأن القرآن العظيم سبيكة واحدة لا يعرف أولها من آخرها ، فلم يكونوا في حاجة إلى التكلم والبحث في هذا الموضوع وكانوا في غنى عنه ، وإنما بدا الكلام فيه في وقت متأخر عنهم ، فذكر المناسبات بين السور والآيات أمر ابتكره العلماء الأجلاء ويرجع إلى رأيهم واجتهادهم ، ولذا اختلفت عباراتهم في صوغ المناسبة وفي تسميتها ووصفها كما علمت عن كثب .

ثمرة هذا العلم وفائدته

لعلك وقفت — أيها القارىء الفاضل — على ثمرة هذا العلم وفائدته مما سبق ، وأزيدها هنا وضوحا وجلاء وإضافة فأقول :

إن هذا العلم يبرز ألفاظ القرآن وجمله وآياته وسوره مترابطة متماسكة كأنه نزل جملة واحدة ، ويصير حاله — كما هو الحق والواقع — كحال بناء مرصوص محكم متين متضام اللبنات متلاحم الأجزاء ، هذا الترابط والتماسك والروح الساري في القرآن الكريم كله نوع من أنواع إعجازه ، ودليل على أنه منزل من عند الله تعالى خالق القوى والقدر ، فما كان يمكن رسول الله ﷺ ولا أحدا من الخلق أن يرتبه هذا الترتيب وأن ينسقه هذا

التنسيق العجيب ، مع العلم بأنه نزل منجما فى مدة طويلة ، واختلفت أوقات نزوله ، وأماكنه ، وأسبابه ، وتنوعت موضوعاته .

ولم يشأ الله تعالى أن يكون تأليف كتابه المعجز وجمعه على حسب ترتيب نزوله ، إذ لو ألف وجمع على حسب ترتيب نزوله لفات نوع من أنواع إعجازه وهو الترابط والتناسب بين أجزائه ، ولفهم بعض الناس أن آياته النازلة على أسباب وحوادث خاصة بأسبابها مقصورة على حوادثها ، أو فهموا أنه حلول وقتية للمشكلات والحوادث التى وقعت فى حياة الرسول ﷺ فقط ، أو أنه خاص بعهد الرسول وأصحابه ، وإنما اقتضت حكمته ومشيئته تعالى أن يكون تأليفه وفق المناسبات البلاغية وأسرار الإعجاز البهية ليكون كتابا معجزا عاما خالدا لا يختص بعصر دون آخر ولا بقوم دون غيرهم ، ومن ثم رتبه الله هذا الترتيب العجيب الذى تركه عليه رسول الله ﷺ والذى نراه إلى اليوم ، وسيظل إلى أن تقوم الساعة ليحقق الإعجاز التام والعموم والخلود ، وقد ورد فى الأثر عن محمد بن سيرين رحمه الله أنه قال : قلت لعكرمة مولى عبد الله بن العباس رضى الله عنهم : ألفوه — يعنى القرآن — كما أنزل الأول فالأول ؟ ، قال عكرمة : لو اجتمعت الإنس والجن على أن يؤلفوه هذا التأليف ما استطاعوا »[1].

وإن أردت أن تتأكد وتستوثق من صحة ما تقدم فجرب بنفسك : انهض واجمع همتك وأمرك وانظر إلى نتاج أكبر كاتب من الكتاب أو أعظم أديب من الأدباء وتأمله مليا وترو فى تأملك تجد بالنظر والمقارنة فرقا بين ما كتبه فى مستهل عمره ، وبين ماكتبه فى أوسطه ، وبين ماكتبه فى أواخره ، بل لو نظرت إلى نتاجه فى الكتاب الواحد ذى الموضوع الواحد لوجدت

---

(١) انظر الأثر فى الإتقان للسيوطى جـ ١ ص ٥٨ .

فرقا فى الأسلوب والفكرة والبيان والتنسيق والعرض والترتيب ونحو ذلك ، ولو أعاد مؤلفه نفسه النظر فيه لغير فيه وبدل .

فإذا فقدنا التناسب والتناسق بين نتاج البشر ومؤلفاتهم ووجدناه بين ألفاظ القرآن وجمله وآياته وسوره بديعا على أكمل صورة وظاهرا أتم ظهور ومتجليا أعظم تجلى أيقنا بأن القرآن الكريم معجز من هذه الحيثية ، وآمنا بأنه عليّ وحكيم وفوق إمكانات الخلق وطاقتهم ، قال الإمام العلامة فخر الدين الرازى خلال تفسيره لقوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ... ﴾ الآية [1]:

ومن تأمل فى لطائف نظم هذه السورة وفى بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضا معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته ، ولعل الذين قالوا إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك .... أ هـ [2].

ويضاف إلى ما أسلفنا أن فى تجلية المناسبات بين الآيات والسور وإبراز إحكام ترتيب القرآن وإبداعه كما هو الواقع سدا لباب الكذب على القرآن الكريم وإفحاما للخراصين والمفترين من متطرفى الشيعة وغيرهم من الزنادقة والفسقة الزاعمين أن القرآن ضاعت منه آيات بل سور بتمامها إبّان جمعه فى عهد الصحابة — رضى الله عنهم — ، بل تجاوزوا الحد وازدادوا كفرا فزعموا أن الصحابة أسقطوا ما أسقطوه من القرآن أثناء جمعه عمدا وقصدا ، — وحاش الصحابة الكرام عن ذلك فهم حماة الدين ، وحراس الإسلام ، وحملة لوائه الأوائل ، وشموس الأمة ، ونجوم الهدى ، وبذلوا المهج

---

(١) سورة البقرة ٢٨٥ .

(٢) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير لفخر الدين الرازى جـ ٧ ص ١٢٨ .

والأرواح والأنفس والنفائس فى سبيل الحفاظ على دينهم الحنيف ، ودستوره المنيف ، وقوامه وعماده ، وهو القرآن الكريم .

كما أن فى ذكر المناسبات إبطالا وتفنيدا لزعم الزاعمين أن فى القرآن كلمات مستوحشة غير مستساغة ولا مقبولة ككلمة « ضيزى »[1].

فحين يذكر العلماء والمفسرون المناسبات تتجلى عظمة القرآن وسموه ، وتتجلى رفعته وإعجازه ، وتندفع افتراءات المفترين ، ويوصد الباب فى وجه تخرصات المتخرصين ، وإرجافات المرجفين .

ويضاف إلى ما سلف أن ذكر المناسبة يعين على فهم الآية فهما سديدا ، ويساعد على استلهام معناها ومعرفة مرماها ، فهى مصباح منير يضىء الطريق للمفسر والباحث فى القرآن الكريم ، ويأخذ بيده إلى الفهم الرشيد ، والتأويل السديد ، فذكرها لا يقل أهمية عن ذكر سبب النزول .

المصنفون فى هذا العلم

ذكر العلماء أن أول من تكلم فى هذا الفن وكشف عن أهميته والحاجة إليه هو العلامة أبو بكر النيسابورى[2] : كان إماما غزير العلم فى الشريعة والأدب ، وكان حين يجلس على الكرسى ليفسر القرآن الكريم وتقرأ عليه الآية يسأل ويقول : لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه الآية ؟ وما الحكمة فى جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة ؟ وكان يعيب على

---

(١) كلمة من آية فى سورة النجم والآية هى : تلك إذًا قسمة ضيزى ٢٢ .

(٢) أبو بكر النيسابورى هو الحافظ الجليل أبو بكر عبد الله بن محمد النيسابورى الفقيه الشافعى ، رحل فى طلب العلم وطوف ببلاد كثيرة ثم ألقى عصا الترحال واستقر ببغداد ت ٣٢٤ هـ انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى جـ ٢ ص ٣٠٢ ، وطبقات القراء لابن الجزرى جـ ١ ص ٤٤٩ .

علماء بغداد ويأخذ عليهم عدم علمهم بالمناسبة .

وواصل العلماء بعده الكلام فى هذا العلم وبذلوا جهدهم فى إبرازه ودراسته حتى ألف بعضهم فيه وصنف ، فممن صنفوا فيه :

١ ـــ العلامة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسى ت ٧٠٨ هـ شيخ أبى حيان ، ألف كتابا سماه : « البرهان فى مناسبة ترتيب سور القرآن » .

٢ ـــ القاضى أبو بكر ابن العربى المعافرى ت ٥٤٣ هـ ، بين وجوه المناسبات وكتب فيها واستمر يواصل جهوده إلى أن رأى قصر همة الخلق وضعف عزيمتهم عن هذا العلم النفيس، فانصرف عنه إلى غيره من العلوم ، وجعله بينه وبين الله تعالى .

٣ ـــ برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعى ت ٨٨٥ هـ ألف كتابا سماه : « نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور » ، وهو من أنفس الكتب المؤلفة فى التفسير ، يذكر فيه البقاعى المناسبات بين الآيات والسور وبين جمل الآية الواحدة ـــ إلى جانب التفسير ـــ ، ويفسر ألفاظ البسملة بما يتناسب مع مقصد السورة رابطا بينهما ، وسلك مسلكه فى تفسير كلمات البسملة بما يتواءم مع مقصد كل سورة الخطيب الشربينى شمس الدين محمد بن محمد القاهرى الشافعى العالم الورع ت ٩٧٧ هـ فى تفسيره : « السراج المنير فى الإعانة على معرفة بعض معانى كلام ربنا الحكيم الخبير » وهو مطبوع .

وقد أجاد العلامة البقاعى فيما كتبه ، ومن مراجعه فى تأليف كتابه النفيس : كتاب أبى جعفر بن الزبير السابق ، وكتاب التحرير والتحبير لابن النقيب ، اطلع عليهما البقاعى واستفاد منهما كثيرا .

٤ ـــ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ت ٩١١ هـ صنف

كتابا أسماه : « تناسق الدرر فى تناسب السور » .

ومن المحدثين الذين كتبوا فى ذلك :

١ ــ أبو الفضل عبد الله بن محمد الصديق الغمارى الحسنى ، صنف كتابا بعنوان : « جواهر البيان فى تناسب سور القرآن » فرغ من تأليفه عام ١٣٨٥ هـ .

٢ ــ الأستاذ الدكتور محمد بن أحمد بن يوسف القاسم ، كتب رسالته التى نال بها درجة الدكتوراه فى تناسب الآيات والسور ، وتوجد بمكتبة كلية أصول الدين جامعة الأزهر بالقاهرة .

أما المفسرون الذين عنوا بإيراد المناسبات فى تفاسيرهم واهتموا بذكرها اهتماما فائقا فهم كثيرون ، منهم :

١ ــ فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر الرازى ت ٦٠٦ هـ ، حفل تفسيره المسمى : « مفاتيح الغيب » أو « التفسير الكبير » بذكر المناسبات ، ويبدأ بذكر المناسبة قبل الشروع فى التفسير ، بل يذكر أحيانا أكثر من مناسبة بين الآية والآية .

٢ ــ جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليمان بن الحسن المقدسى المعروف بابن النقيب الحنفى ت ٦٩٨ هـ ، اهتم بذكر المناسبات فى تفسيره المسمى : « التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير » ، وهذا الكتاب أكبر كتاب ألف فى التفسير ، استفاد منه أبو حيان تلميذه ، والبقاعى كثيرا ، وهو من مراجعهما المهة ، ويبلغ فى العدد مائة سفر أو يكاد .....[1] .

٣ ــ نظام الدين الحسن بن محمد النيسابورى، ت ٧٢٨ هـ ، عنى بذكر

---

(١) انظر البحر المحيط لأبى حيان جـ ١ ص ١١ .

المناسبات فى تفسيره المسمى : « غرائب القرآن ورغائب الفرقان » .

٤ ــ العلامة أبو السعود محمد بن محمد العمادى ت ٩٨٢ هـ فى تفسيره : « إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم » .

٥ ــ شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى ت ١٢٧٠ هـ ، اهتم كثيرا بذكر المناسبات بين الآية والآية وبين السورة والسورة فى تفسيره : « روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى » .

وغيرهم كثير وكثير .

ومن العلماء المحدثين الذين عنوا بذكر المناسبات فى تفاسيرهم أو الكلام عنها فى مؤلفاتهم :

١ ــ الشيخ السيد محمد رشيد رضا ت ١٣٥٤ هـ فى تفسير : « المنار » .

٢ ــ الدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز فى كتابه : « النبأ العظيم » .

٣ ــ الشهيد الأستاذ سيد قطب فى تفسيره : « فى ظلال القرآن » .

٤ ــ أستاذنا الدكتور محمد سيد طنطاوى فى كتابه : « التفسير الوسيط » .

٥ ــ الشيخ العالم الورع محمد متولى الشعراوى فى دروسه التفسيرية .

٦ ــ الأستاذ سعيد حوى فى كتابه : « الأساس فى التفسير » .

إلى غير هؤلاء من العلماء القدامى والمحدثين الذين عنوا بذكر المناسبات فى تفاسيرهم وحفلت بها مؤلفاتهم ، أعظم الله أجرهم وأجزل مثوبتهم .

موقف العلماء من هذا العلم

اتفق العلماء على استحسان علم المناسبات ، وعلى ذكرها فى خلال تفسير القرآن الكريم ، بيد أنهم اختلفوا فى التطبيق :

ففريق يرون أن المناسبة تذكر إذا كانت ظاهرة جلية لا تكلف فى ذكرها بأن كان الكلام واحدا يرتبط آخره بأوله أو نزل فى أمر واحد أو تناول موضوعا واحدا ....

ولا تذكر المناسبة إذا كانت الآيات النازلة مختلفة الأغراض متنوعة الموضوعات إذ يستلزم ذكرها فى هذه الحالة التكلف والتعسف .

ومن هذا الفريق الإمام عز الدين بن عبد السلام[1] والإمام محمد بن على الشوكانى اليمنى ت ١٢٥٠ هـ والعلامة محمد الطاهر بن عاشور التونسى ت ١٢٨٤ هـ ، وغيرهم ، ووردت عنهم نصوص تحمل وجهة نظرهم ، وهاك بعضها :

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : المناسبة علم حسن ولكن يشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا برباط ركيك يصان عنه حسن الحديث فضلا عن أحسنه فإن القرآن نزل فى نيف وعشرين سنة فى أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض إذ لا يحسن أن يرتبط تصرف الإله فى خلقه ، وأحكامه بعضها ببعض مع اختلاف العلل والأسباب ، كتصرف الملوك والحكام والمفتين ، وتصرف الإنسان نفسه

(١) هو عبد العزيز بن عبد السلام ، اشتهر بكلمة « العز » ، وهو من العلماء الورعين المجاهدين الغيورين على الحق ذوى الجرأة والشجاعة ت ٦٦٠ هـ .

بأمور متوافقة ومتخالفة ومتضادة ، وليس لأحد أن يطلب ربط بعض تلك التصرفات مع بعض مع اختلافها فى نفسها واختلاف أوقاتها أ هـ [١].

وبسط الشوكانى كلام العز بن عبد السلام ، وحمل حملة شعواء على العلماء المشتغلين بهذا العلم المعنيين به ، ورماهم بتضييع أوقاتهم واستنفاد طاقاتهم فيما لا فائدة فيه ، وبالتكلم بمحض الرأى المنهى عنه ، ووسم هذا العلم بالتكلف ، فقال أثناء تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون ﴾[٢] قال :

اعلم أن كثيرا من المفسرين جاءوا بعلم متكلف ، وخاضوا فى بحر لم يكلفوا سباحته ، واستغرقوا أوقاتهم فى فن لا يعود عليهم بفائدة ، بل أوقعوا أنفسهم فى التكلم بمحض الرأى المنهى عنه فى الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه ، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود فى المصاحف ، فجاءوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف ، ويتنزه عنها كلام البلغاء ، فضلا عن كلام الرب سبحانه ، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف ، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف ، كما فعله البقاعى فى تفسيره ، ومن تقدمه حسبما ذكر فى خطبته .

وإن هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف أن هذا القرآن ما زال ينزل مفرقا على حسب الحوادث المقتضية لنزوله منذ نزول الوحى على رسول الله ﷺ إلى أن قبضه الله عز وجل إليه ، وكل عاقل فضلا عن عالم لا يشك أن هذه الحوادث المقتضية نزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها ، بل قد

---

(١) انظر البرهان للزركشى جـ ١ ص ٣٧ ، والإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ١٠٨ .

(٢) سورة البقرة ٤٠ .

تكون متناقضة[1] كتحريم أمر كان حلالا ، وتحليل أمر كان حراما ، وإثبات أمر لشخص أو أشخاص يناقض ما كان قد ثبت لهم قبله ، وتارة يكون الكلام مع المسلمين ، وتارة مع الكافرين ، وتارة مع من مضى ، وتارة مع من حضر ، وحينا فى عبادة ، وحينا فى معاملة ، ووقتا فى ترغيب ، ووقتا فى ترهيب ، وآونة فى بشارة ، وآونة فى نذارة ، وطورا فى أمر دنيا ، وطورا فى أمر آخرة ، ومرة فى تكاليف آتية ، ومرة فى أقاصيص ماضية .

وإذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف ، ومتباينة هذا التباين الذى لا يتيسر معه الائتلاف ، فالقرآن النازل فيها هو باعتباره نفسه مختلف كاختلافها ، فكيف يطلب العاقل المناسبة بين الضب والنون ، والماء والنار ، والملاح والحادى[2] .....

واستمر الشوكانى فى سرد وجهة نظره وبسطها ــ وهى لا تخرج عن وجهة نظر العز ــ فأطال حبل الكلام ثم ختمه بقوله :

وإنما ذكرنا هذا البحث فى هذا الموطن لأن الكلام هنا قد انتقل مع بنى إسرائيل بعد أن كان قبله مع أبى البشر آدم عليه السلام ، فإذا قال متكلف : كيف ناسب هذا ما قبله ؟ قلنا : لا كيف :

---

(١) ليس فى القرآن الحكيم ولا فى أحكامه تناقض ، وفى عبارة الشوكانى شىء من التساهل ، ولعله يعنى اختلاف الأحكام الشرعية عن طريق النسخ مع اختلاف الزمن وهو الظاهر .

(٢) الضب : حيوان جبلى صغير يحيا فى المناطق الشديدة الجدب والقحط وليس فى جسمه ماء ، أما النون : فهو الحوت : حيوان يعيش فى الماء ، فهما متناقضان ويضرب بهما المثل فى شدة البعد وعدم إمكان التلاقى والجمع .
والملاح : هو راكب السفينة الجارية فى الماء ، والحادى : هو راكب الإبل الحادى والمغنى لها فى الصحراء : ويضرب بهما المثل كذلك فيما تقدم .

فدعْ عنك نهبا صيح فى حجراته   وهات حديثا ما حديث الرواحل[1]

وذكر الشوكانى القارىء بوجهة نظره ورأيه مرة ثانية عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين ﴾[2].

هذا ، وللشوكانى فى تفسيره المسى : فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير » مناسبات جيدة ورائعة ، وهو يحرص على ذكرها إذا كانت ظاهرة خالية من التكلف كما يرى ، وقد أفردت فى رسالتى التى أعددتها لنيل درجة الدكتوراه فصلا كاملا فى بيان منهج الشوكانى فى ذكر المناسبات ، وذكرت رأيه كاملا فيها ، ومنهجه فى عرضها ، وناقشته الحساب وذكرت ما له من محاسن ومناقب ، وما عليه من مآخذ ومثالب ، فارجع إليها إن شئت ، وتوجد بمكتبة كلية أصول الدين جامعة الأزهر بالقاهرة بعنوان : « الشوكانى المفسر » .

وقال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور فى مقدمة تفسيره المسمى — التحرير والتنوير — : إن فخر الدين الرازى وبرهان الدين البقاعى عند ربطهما بين الآيات فى تفسيريهما لم يأتيا فى كثير منها بما فيه مقنع ، وإن بيان المناسبة بين السور ليس أمرا لازما ولا حقا على المفسر ا هـ .

والحق أن هذا الفريق مغالون فى رأيهم مبالغون فى وجهة نظرهم ، فنزول آيات مختلفة الأغراض متنوعة الموضوعات لا ينفى أن بينها مناسبة ، ولا يمنع من محاولة الكشف عنها وذكرها والعمل على إبرازها ليظهر وجه من وجوه إعجاز القرآن المجيد وسر من أسراره ، وفى هذا خدمة لكتاب الله

---

(١) انظر فتح القدير للشوكانى جـ ١ ص ٧٢ — ٧٣ .

(٢) سورة البقرة ١٢٢ .

تعالى .

ولا يستلزم ذكرها التكلف والتعسف لأن الآيات التى تدق فيها المناسبة وتخفى وتغمض ويحتاج ذكرها إلى التروى وإعمال الفكر وبذل الجهد قليلة محدودة معدودة ، وهى إن دقت وخفيت على بعض العلماء أو غابت عنهم لا تكون دقيقة ولا خافية ولا غائبة على غيرهم ، ولا يلزم من خفائها على بعضهم انتفاؤها عن كلهم :

وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

ولا جدال فى أن ذكر المناسبة والاشتغال بإبرازها اجتهاد واشتغال بالعلم وبخدمة القرآن الكريم والمجتهد مأجور .

ولو قعدنا عن ذكر المناسبات بين تلك الآيات بحجة أن فى ذكرها تكلفا وتعسفا مبنيا على اختلاف أغراضها وتنوع موضوعاتها — كما قالوا — لقعدنا عن جانب من العلم ، وركنا إلى الراحة والدعة ، وأخلدنا إلى الكسل والخمول ، وفاتتنا لطائف بهية ، وطرائف علمية ، وضاع منا خير كثير ، وفتحنا بابا يلج منه أعداء الإسلام وخصومه للطعن فى القرآن الحكيم والنيل منه .

فهذا العلم — علم المناسبات — نفيس جم الفوائد ، عظيم العوائد ، يانع الثمرات ، كثير الخيرات والبركات كما عرفت آنفا ، ويحتاج إلى مهارة فائقة ، وثقافة واسعة ، وإمعان النظر ، وفطنة وشفافية ، وتوفيق من الله تعالى ، ومن ثم تفاوتت فيه أقدام العلماء وأقدارهم ، ومرده إلى بنات أفكارهم واجتهادهم ، ولذا قال بعضهم : « المناسبة أمر معقول ، إذا عرض على العقول تلقته بالقبول »[1].

(١) البرهان للزركشى جـ ١ ص ٣٥ .

ويقابل هذا الفريق فريق آخر من العلماء الأجلاء ، يرون أن ذكر المناسبة بين الآية والآية ، وبين السورة والسورة ، أمر مطلوب ولو كانت المناسبة دقيقة أو خفية ، أو كانت أغراض السورة وأهدافها متنوعة ، أو كانت موضوعاتها متعددة مختلفة ، فهم يرغبون فى ذكرها على الإطلاق ، ويحثون على الالتزام بها فى التفسير لما فى ذكرها من الفوائد العظيمة ، بل يرون أنها لا تقل فى الذكر والأهمية عن سبب النزول ، ومما يدلنا على هذا أن العلماء اختلفوا :

أيهما أولى بالبدء به فى تفسير الآية : أيبدأ بسبب النزول أو بالمناسبة لأنها المصححة لنظم الكلام وهى سابقة على النزول ؟

والتحقيق : التفصيل بين أن يكون وجه المناسبة متوقفا على سبب النزول ، فهذا ينبغى فيه تقديم ذكر السبب لأنه حينئذ من باب تقديم الوسائل على المقاصد ، وإن لم يتوقف على ذلك فالأولى تقديم وجه المناسبة[1].

ومن هذا الفريق الشيخ أبو بكر النيسابورى ، وولى الدين الملوى ، وفخر الدين الرازى ، وبرهان الدين البقاعى ، وبدر الدين الزركشى ، والقاضى أبو بكر بن العربى المعافرى وغيرهم وغيرهم ، وقد وردت نصوص كثيرة عنهم تحمل رأيهم وتتضمن الرد على رأى الفريق الأول ، وإليك بعضها :

قال الشيخ ولى الدين الملوى : قد وهم من قال : لا يطلب للآى الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المتفرقة ، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا ، وعلى حسب الحكمة ترتيبا ، فالمصحف كالصحف

---

(١) انظر البرهان للزركشى جـ ١ ص ٢٦ — ٣٤ .

الكريمة على وفق مافى الكتاب المكنون مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف ، وحافظ القرآن العظيم لو استفتى فى أحكام متعددة أو ناظر فيها أو أملاها لذكر آية كل حكم على ماسئل ، وإذا رجع إلى التلاوة لم يتل كما أفتى ولا كما نزل مفرقا ، بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة ، ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر ، فإنه : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾[1] .... والذى ينبغى فى كل آية أن يبحث أول كل شىء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة ، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها ، ففى ذلك علم جم ، وهكذا فى السور ، يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له ا هـ[2].

وقال الفخر الرازى فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله .... ﴾ الآية الكريمة[3] قال :

ومن تأمل فى لطائف نظم هذه السورة وفى بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضا معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته ، ولعل الذين قالوا « إنه معجز بحسب أسلوبه » أرادوا ذلك ، إلا أنى رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير متنبهين لهذه الأمور ، وليس الأمر فى هذا الباب إلا كما قيل :

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته   والذنب للطرف لا للنجم فى الصغر[4]

وقال بدر الدين الزركشى : واعلم أن المناسبة علم شريف تحزر به العقول ، ويعرف به قدر القائل فيما يقول ، .... وقد قل اعتناء المفسرين

(١) سورة هود عليه السلام ١ .

(٢) البرهان للزركشى جـ ١ ص ٣٧ ، والإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ١٠٨ .

(٣) سورة البقرة ٢٨٥ .

(٤) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للرازى جـ ٧ ص ١٢٨ .

بهذا النوع لدقته ، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازى ، وقال فى تفسيره : أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط أ هـ [1] .

وقال القاضى أبو بكر بن العربى الأندلسى المعافرى فى كتابه — سراج المريدين — ونقل قوله الزركشى فى البرهان والسيوطى فى الإتقان ، قال :

ارتباط آى القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعانى منتظمة المبانى علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ، ثم فتح الله عز وجل لنا فيه ، فلما لم نجد له حملة ، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ، ختمنا عليه ، وجعلناه بيننا وبين الله ، ورددناه إليه ا هـ [2]) .

فهذا الفريق من العلماء أخذوا على أنفسهم إيضاح العلاقات وإبراز الصلات بين السور والآيات مطلقا ، وهم جم غفير ، ونصوصهم فى ذلك موفورة مستفيضة ، ويكفى ما ذكرناه من نصوص عن بعضهم .

ومع كون القاضى أبى بكر بن العربى عالما جليلا ، وفقيها نبيلا ، وإماما فاضلا له مكانته العلمية الرفيعة المرموقة ، ومنزلته السامقة ، ويقر بشموخه القاصى والدانى آخذ عليه هنا :

عدم تصريحه باسم العالم الواحد الذى عمل فى ضوء هذا العلم العظيم سورة البقرة ، ليته صرح باسمه واسم كتابه لتزداد الفائدة .

وإيصاده لهذا الباب العظيم بعلة تكاسل الناس وانصرافهم عن هذا

(١) انظر البرهان للزركشى جـ ١ ص ٣٥ — ٣٦ .
(٢) البرهان للزركشى جـ ١ ص ٣٦ ، والإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ١٠٨ .

العلم المبارك ، لأن العالم الكبير لا يؤلف كتابه لجيل دون جيل ، ولا لعصر دون عصر ، وإنما يؤلفه لكل الأجيال وسائر العصور اللاحقة ، ولن يعدم فى المستقبل عالما أو فقيها أو باحثا يدرس كتابه ويطلع عليه ويستفيد منه ، ولو أوصد كل عالم بابا من أبواب العلم للعلة السابقة ، وختم عليه ، وجعله بينه وبين ربه ، ورده إلى خالقه سبحانه ، لدرس العلم بين الناس ، وعاشوا فى جهل وظلام ، وخلت المكتبات من نفائس المصنفات ، وذخائر المؤلفات .

المناسبات فى القرآن الكريم

من المعلوم أن القرآن الكريم يتكون من (١١٤) أربع عشرة ومائة سورة ، استهلت كل سورة منها بالبسملة إلا سورة براءة لسر لا يعلمه على سبيل الحقيقة والكمال إلا الله تعالى ، ولكل سورة اسمها الخاص بها وملامحها وسماتها ، والسور تتكون من آيات تختلف فى العدد والطول والقصر والموضوعات ، وكل ذلك بتوقيف من الله تعالى ، ومن ثم تختلف المناسبات فى القرآن الكريم ، وتتنوع بحسب موطنها وموضعها إلى ما يأتى :

أ ــ المناسبة بين آيتين متجاورتين فى سورة واحدة ، والمناسبة بينهما تكون ظاهرة جلية وهو الأعم والأغلب فى القرآن الكريم ، وتكون أحيانا غامضة خفية وهو قليل فى القرآن الحكيم .

وهذا النوع من المناسبات أعنى المناسبة بين الآيات يتنوع إلى ما يأتى :

١ ــ مناسبة أول الآية لآخر الآية التى قبلها ، أو لأولها .
٢ ــ مناسبة الآية ككل للآية التى قبلها ككل .
٣ ــ مناسبة الآية لعدد من الآيات قبلها .
٤ ــ مناسبة أول الآية لآخرها ، وبدئها لختامها .

ب ــ المناسبة بين شيئين فى سورة واحدة ، وينضوى تحت ذلك :

١ ــ مناسبة اسم السورة لمقصود السورة وهدفها .
٢ ــ مناسبة البسملة وتفسيرها بما يتواكب مع مقصود السورة وغرضها .
٣ ــ مناسبة موضوعات السورة بعضها لبعض .
٤ ــ مناسبة فاتحة السورة وصدرها لخاتمتها وعجزها .

جـ ـــ المناسبة بين السورة والسورة ، وتتنوع إلى :

١ ـــ مناسبة السورة للسورة السابقة عليها والمجاورة لها .

٢ ـــ مناسبة السورة للسورة اللاحقة لها .

٣ ـــ مناسبة السورة لأكثر من سورة سابقة عليها أو لاحقة بها .

ويندرج كذلك تحت « المناسبة بين السورة والسورة » :

١ ـــ مناسبة أول السورة لآخر السورة السابقة عليها والملاصقة لها .

٢ ـــ مناسبة أول السورة بأول السورة التى قبلها .

٣ ـــ مناسبة السورة ككل للسورة السابقة عليها والمجاورة لها ككل .

٤ ـــ مناسبة بعض موضوعات السورة وآياتها لبعض موضوعات وآيات السورة السابقة عليها والمجاورة لها .

وكما تختلف المناسبات وتتنوع فى القرآن الكريم بالنظر إلى موطنها وموضعها فى الآيات والسور ، تختلف وتتنوع بالنظر إلى كنهها ونوعها ، وستأتيك ـــ أخى القارىء الكريم ـــ عن كثب بعون الله وتوفيقه أنواعها ـــ من هذه الحيثية ـــ بالنسبة للآيات وللسور .

أنواع المناسبة بين الآيات

علمنا أن كثيرا من المفسرين وبخاصة المفسرين بالرأى عنوا ببيان المناسبات بين الآيات ، والمناسبة بين الآيات تتنوع فى الجملة إلى نوعين :

الأول : المناسبة المعنوية ، بمعنى أن بين كل آية وآية سابقة عليها رابطا قويا وروحا يسرى فى أوصال الآيتين معا ، وهذا موجود بين كل آيتين فى القرآن الكريم ، يستشعره ويستشفه المفسر والباحث ، فنلاحظ أن الآيات يسرى فيها الارتباط القوى المتين ، والمحكم الرصين ، هذا الارتباط بمثابة الأنسجة الموجودة فى الجسم السارية بين الأعضاء والمفاصل الجامعة لها

والرابطة بينها ولا غنى عنها .

وتختلف عبارة المفسرين فى صوغ الرابط المعنوى بين كل آية وآية حسب اجتهادهم ووفق قدراتهم ، وكثيرا ما يهتمون بذكره إذا ما كانت الآية مستأنفة استئنافا إعرابيا (نحويا) ، وإليك نماذج من أقوالهم فى ذلك :

قال الإمام فخر الدين الرازى فى الربط بين قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ... ﴾ الآية[1] وبين ما قبلها من آيات فى سورة البقرة قال :

اعلم أنه تعالى لما بين بالدليل كون القرآن معجزا أورد ههنا شبهة أوردها الكفار قدحا فى ذلك ، وأجاب عنها ، وتقرير الشبهة : أنه جاء فى القرآن ذكر النحل والذباب والعنكبوت والنمل[2] ، وهذه الأشياء لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء ، فاشتمال القرآن عليها يقدح فى فصاحته فضلا عن كونه معجزا ، فأجاب الله تعالى عنه بأن صغر هذه الأشياء لا يقدح فى الفصاحة إذا كان ذكرها مشتملا على حكم بالغة ، فهذا هو الإشارة إلى كيفية تعلق هذه الآية بما قبلها اهـ[3] .

والإمام الفخر الرازى من أبرز المفسرين الذين اهتموا بإظهار المناسبات بين الآيات ، وبين أجزاء الآية الواحدة إن كان فى ارتباط أجزائها شىء من الغموض ، بل إنه يصدر تفسير الآية بذكر المناسبة ، ويذكر أحيانا فى الآية الواحدة أكثر من مناسبة ، ويلفت النظر إلى أحسنها ، ويذكر أحيانا

(١) سورة البقرة ٢٦ .

(٢) تحدث الله تعالى عن النحل والعنكبوت والنمل فى سورها وهى : سورة النحل وسورة العنكبوت وسورة النمل ، أما الذباب فذكره الله سبحانه فى أواخر سورة الحج .

(٣) مفاتيح الغيب للرازى جـ ٢ ص ١٣١ ، ١٣٢ .

مناسبات فاتها غيره ويعقب عليها ، ويبين ما يروقه ويستحسنه ، انظر تفسيره لقوله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ... ﴾ الآية [1]، وقوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آالله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾ [2]، وقوله تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ... ﴾ [3] وغيرها من الآيات الكريمات .

وقال الإمام الشوكانى فى الربط بين قوله تعالى : ﴿ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ..... ﴾ الآية وبين ما قبلها فى سورة البقرة قال :

لما ذكر سبحانه التوحيد بقوله ﴿ وإلهكم إله واحد .... ﴾ عقب ذلك بالدليل الدال عليه وهو هذه الأمور التى هى من أعظم صنعة الصانع الحكيم مع علم كل عاقل بأنه لا يتهيأ من أحد من الآلهة التى أثبتها الكفار أن يأتى بشىء منها أو يقتدر عليه أو على بعضه ، وهى خلق السماوات ، وخلق الأرض ، وتعاقب الليل والنهار ، وجرى الفلك فى البحر ، وإنزال المطر من السماء ، وإحياء الأرض به ، وبث الدواب منها بسببه ، وتصريف الرياح ، : فإن من أمعن نظره وأعمل فكره فى واحد منها انبهر له ، وضاق ذهنه عن تصور حقيقته ، وتحتم عليه التصديق بأن صانعه هو الله سبحانه اهـ [4].

---

(١) سورة المائدة ٢٧ .

(٢) سورة يونس عليه السلام ٥٩ .

(٣) سورة القيامة الآية ١٦ وما بعدها .

(٤) فتح القدير للشوكانى جـ ١ ص ١٦٣ ، وهو كتاب جمع فيه الشوكانى بين التفسير بالأثر والتفسير بالرأى .

وقال العلامة أبو حيان الأندلسي في الربط بين قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا ﴾ وبين ما قبلها من آيات في سورة النساء قال :

مناسبة هذه الآية لما قبلها هو : أنه تعالى لما ذكر طاعته وطاعة رسوله وكان من أهم الطاعات إحياء دين الله أمر بالقيام بإحياء دينه وإعلاء دعوته وأمرهم أن لا يقتحموا على عدوهم على جهالة فقال : ﴿ خذوا حذركم ﴾ ، فعلمهم مباشرة الحروب ، ولما تقدم ذكر المنافقين ذكر في هذه الآية تحذير المؤمنين من قبول مقالاتهم وتثبيطهم عن الجهاد فنادى أولا باسم الإيمان على عادته تعالى إذا أراد أن يأمر المؤمنين أو ينهاهم ا هـ [1].

هذا ، ولو قارنا أقوال المفسرين السابقة بأقوال غيرهم من المفسرين في الربط بين الآيات المذكورة لوجدنا اختلافا في التعبير والصيغة وإن كان الهدف والمضمون واحدا .

فكل آية في القرآن الكريم لا تخلو مع ما قبلها من مناسبة معنوية ، وتكون في الأعم الأغلب واضحة جلية ، وأحيانا تكون غامضة خفية تحتاج إلى لطف حس وشفافية وتذوق وتأنٍ ومهارة فائقة .

الثاني : المناسبة اللغوية : بمعنى أن تكون الآية متعلقة بما قبلها تعلقا إعرابيا ، ويكون لها دخل ما في تمام الكلام وفي كمال المعنى ، وهذا يوجد في آيات كثيرة في القرآن الكريم ، وهذه المناسبة جلية واضحة لا غموض فيها ، ويندرج تحتها أنواع شتى من أوجه الربط منها :

١ ـ أن تكون الآية الثانية مؤكدة للأولى كقوله تعالى : أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى [2]، وهاتان الآيتان من موافقات النبي ﷺ فقد روى

(١) البحر المحيط لأبي حيان جـ ٣ ص ٢٩٠ . (٢) سورة القيامة ٣٤ ــ ٣٥

ابن أبي حاتم والنسائى بسنديهما أن ابن عباس رضى الله عنهما قال حين سأله سعيد بن جبير رحمه الله عن الآيتين قال : قاله رسول الله ﷺ لأبى جهل ثم أنزله الله عز وجل فى القرآن [1]، وكقوله تعالى : « فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر »[2]، وقوله تعالى : وكلا سيعلمون ، ثم كلا سيعلمون »[3] ، وقوله تعالى : « فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا »[4] وغير ذلك من الآيات .

٢ ــ أن تكون الآية الثانية صفة لموصوف فى الأولى كقوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك ... إلخ[5] فإن هذه الآيات صفة للمتقين المذكورين فى الآية الأولى ، وقوله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ..[6] إلخ فإن الآيات وصف للمؤمنين المفلحين المذكورين فى الآية الأولى .

٣ ــ أن تكون الآية الثانية مفسرة لشىء فى الأولى كقوله تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون ﴾[7]، وقوله تعالى : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين ﴾[8].

---

(١) انظر تفسير الحافظ ابن كثير جـ ٤ ص ٤٥١ ــ ٤٥٢ ، وروى الطبرانى نحوه ورجاله ثقات انظر مجمع الزوائد للهيثمى جـ ٧ ص ١٣٢ .

(٢) سورة المدثر ١٩ ــ ٢٠ .

(٣) سورة النبأ ٤ ــ ٥ .

(٤) سورة الشرح ٥ ــ ٦ .

(٥) سورة البقرة ٢ وما بعدها .

(٦) سورة المؤمنون ١ ومابعدها .

(٧) سورة الصافات ١٧١ ــ ١٧٣ .

(٨) سورة المعارج ١٩ ــ ٢٢ .

٤ — أن تكون الآية الثانية بدلا أو عطف بيان لشيء فى الآية الأولى كقوله تعالى : ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ﴾[١]، وقوله تعالى : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾[٢]، وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون ﴾[٣].

٥ — أن يكون فى الآية الثانية تفصيل لإجمال فيما قبلها كقوله تعالى : ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ، فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق ، خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد ، وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴾[٤]، وقوله تعالى : ﴿ ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ﴾[٥].

٦ — أن يكون فى الآية الثانية استثناء من الآية الأولى كقوله تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ﴾[٦]، وقوله تعالى : ﴿ .... وأنهم يقولون مالا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا ... ﴾[٧]، وقوله تعالى :

---

(١) سورة الفاتحة ٦ — ٧ .

(٢) سورة يونس عليه السلام ٦٢ — ٦٣ .

(٣) سورة الشعراء ١٣٢ — ١٣٤ .

(٤) سورة هود عليه السلام ١٠٥ — ١٠٨ .

(٥) سورة النساء ١٧٢ — ١٧٣ .

(٦) سورة هود عليه السلام ١١٨ — ١١٩ .

(٧) سورة الشعراء ٢٢٦ — ٢٢٧ .

﴿ والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... ﴾[1] .

٧ ــ أن تكون الآية الثانية بمثابة الدليل على قدرة الله تعالى وتقرر مضمون ما قبلها كقوله تعالى : ﴿ ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى ﴾[2]، وقوله تعالى : ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا ، وخلقناكم أزواجا ... ﴾[3].

٨ ــ أن تكون الآية الثانية تعليلا لما قبلها كقوله تعالى : ﴿ وانزلنا من السماء ماء طهورا ، لنحي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا ﴾[4]، وقوله تعالى فى وصف ألوان التعذيب للكفار والتعليل لذلك : ﴿ .... جزاء وفاقا ، إنهم كانوا لا يرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كذابا ... ﴾[5].

٩ ــ أن يكون فى الآية الثانية جواب لشرط فى الآية الأولى كقوله تعالى : ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا .... »[6]، وقوله تعالى : « لو أن عندنا ذكرا من الأولين ، لكنا عباد الله المخلصين ﴾[7].

١٠ ــ أن تكون الآية الثانية جوابا لقسم فيما قبلها كقوله تعالى : ﴿ والطور ، وكتاب مسطور ، فى رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور ، إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع ﴾[8] ،

---

(١) سورة العصر .
(٢) سورة القيامة ٣٧ ــ ٤٠ .
(٣) سورة النبأ ٦ ــ ١٦ .
(٤) سورة الفرقان ٤٨ ــ ٤٩ .
(٥) سورة النبأ ٢٦ ــ ٢٨ .
(٦) سورة الحجر ١٤ ــ ١٥ .
(٧) سورة الصافات ١٦٨ ــ ١٦٩ .
(٨) سورة الطور ١ ــ ٨ .

وقوله تعالى : « والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ﴾[1] .

١١ ـــ أن تقع الآية الثانية معترضة بين الكلام لحكمة وفائدة كقوله تعالى : إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ...... إلى قوله تعالى : ﴿ ..... أولئك ينادون من مكان بعيد[2] .

فإن جملة (أولئك ينادون من مكان بعيد) خبر لقوله (إن الذين كفروا) وما بينهما معترض على وجه إعرابى للنحاة .

وقوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ، إنه لقرآن كريم ... ﴾ .[3]فإن الآية الثانية معترضة بين الآيتين أى القسم وجوابه ، وفى الآية الثانية جملة معترضة أيضا وهى جملة (لو تعلمون) بين الموصوف والصفة .

١٢ ـــ أن يكون فى الآية الثانية حال ، وصاحبها والعامل فيها فى الآية الأولى كقوله تعالى فى الكافرين الظالمين : أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون[4] ، وقوله تعالى فى المفلحين الفائزين : يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها أبدا[5].

١٣ ـــ أن تكون الآية الثانية مرتبطة بالآية الأولى بأى وجه آخر من أوجه الارتباط اللغوية ، كأن يكون فيها خبر لمبتدأ أو لناسخ فى الآية الأولى كقوله

---

(١) سورة النجم ١ ـــ ٤ .
(٢) سورة فصلت ٤١ ـــ ٤٤ .
(٣) سورة الواقعة ٧٥ ـــ ٧٧ .
(٤) سورة آل عمران ٨٧ ـــ ٨٨ .
(٥) سورة التوبة ٢١ ـــ ٢٢ .

تعالى : إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون [١].

أو ظرف متعلق بكلمة فى الآية السابقة كقوله تعالى :... إن الله عزيز ذو انتقام ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات[٢]، وقوله تعالى فى البخلاء الكانزين :... فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم[٣] ، وقوله تعالى : ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون ، من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا[٤]، وقوله تعالى : ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ، إلى فرعون وملائه[٥].

أو تكون الآية الثانية مقولا لقول يقع حالا من الآية الأولى كقوله تعالى فى جزاء أولى الألباب الصابرين الممتثلين شرع الله ومنهجه الإلهى :... والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم ..[٦]) أى قائلين لهم سلام عليكم ... ، وقوله تعالى : ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ، إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا[٧]: فجملة (إنما نطعمكم لوجه الله) وجملة (إنا نخاف من ربنا ...) تقع كل منهما مقولا لقول مقدر يكون حالا أى قائلين إنما نطعمكم لوجه الله ... وقائلين إنا نخاف من ربنا يوما ......

---

(١) سورة يونس عليه السلام ٧ — ٨ .
(٢) سورة إبراهيم عليه السلام ٤٧ — ٤٨ .
(٣) سورة التوبة ٣٤ — ٣٥ .
(٤) سورة غافر ٧٣ — ٧٤ .
(٥) سورة هود عليه السلام ٩٦ — ٩٧ .
(٦) سورة الرعد ٢٣ — ٢٤ .
(٧) سورة الإنسان ٨ — ٩ .

وأحيانا يكون القول مذكورا وليس مقدرا كقوله تعالى فى الكفار : وإن كانوا ليقولون . لو أن عندنا ذكرا من الأولين ، لكنا عباد الله المخلصين [1]، وقوله سبحانه : إن هؤلاء ليقولون ، إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين [2].

أو يكون فى الآية الثانية إضراب عن الأولى ، ولا يقطع الإضراب بنوعيه الإنتقالى والإبطالى الاتصال بينهما ، كقوله تعالى :..... أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين [3]، وقوله تعالى : تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك ... [4] .

وغير ذلك من أوجه الارتباط اللغوية التى يطول ذكرها ، والتى تلوح للناظر فى القرآن الكريم ، ولا تخفى على أهل العلم وأولى الفهم .

وفى حالة خفاء تعلق الآية الثانية بالأولى وغموض ارتباطها بها وكأن كلا منهما جملة مستقلة عن الأخرى ننظر فيهما ونتأمل — كما قال الزركشى فى البرهان والسيوطى فى الاتقان [5] فإما أن تكون الآية الثانية معطوفة على الأولى بأحد أحرف العطف الذى يفيد الاشتراك فى الحكم أولا :

فإن كانت معطوفة فلابد من جهة جامعة أى مناسبة بين المعطوف والمعطوف عليه كقوله تعالى : نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن

---

(١) سورة الصافات ١٦٧ — ١٦٩ . (٢) سورة الدخان ٣٤ — ٣٥ .

(٣) سورة آل عمران ١٤٢ . (٤) سورة السجدة ٢ — ٣ .

(٥) انظر البرهان للزركشى جـ ١ ص ٤٠ وما بعدها والإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ١٠٩ — ١١٠ .

عذابي هو العذاب الأليم [1]، وقوله تعالى : إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجار لفي جحيم [2]، وقوله تعالى : فأما من أوتي كتابه بيمينه ، فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، وينقلب إلى أهله مسرورا ، وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ، فسوف يدعو ثبورا ، ويصلى سعيرا [3].

وإن لم تكن الآية الثانية معطوفة على الأولى فلابد من وجود قرينة تؤذن باتصالها بها وتناسبهما وارتباط الكلام بعضه ببعض ، ولذلك أسباب كثيرة منها :

١ ـــ التنظير وإلحاق الشبيه بالشبيه كقوله تعالى : كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب [4] ، وقوله تعالى : كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون [5]، وقوله تعالى : كما أنزلنا على المقتسمين ، الذين جعلوا القرآن عضين [6] .

ومعنى التنظير في الآية الأولى : أن الله شبه حال المشركين المعاندين والمناوئين لرسول الله ﷺ بحال آل فرعون والكافرين المكذبين في الأمم السابقة ، وأنه سيحل بهم مثل ما حل بآل فرعون والكافرين السابقين من العذاب إن ظلوا على كفرهم ولجاجهم وعتوهم واستمرائهم الفساد والعناد ، وأن أموالهم وأولادهم وقوتهم لن تغني عنهم من الله شيئا ، وسيكونون وقود النار في جهنم .

وللآية المذكورة نظيران في سورة الأنفال وهما رقم ٥٢ ـــ ٥٤ .

---

(١) سورة الحجر ٤٩ ـــ ٥٠ .
(٢) سورة الانفطار ١٣ ـــ ١٤ .
(٣) سورة الانشقاق ٧ ـــ ١٢ .
(٤) سورة آل عمران ١١ .
(٥) سورة الأنفال ٥ .
(٦) سورة الحجر ٩٠ ـــ ٩١ .

ومعناه فى الآية الثانية : أن كراهة بعض الصحابة رضى الله عنهم لما فعله رسول الله ﷺ فى قسمة الغنائم ككراهة بعضهم للخروج للقاء كفار قريش فى يوم بدر ، وقد استبان أن الخير تحقق فى الخروج حيث انتصروا على عدوهم وظفروا بهم وغنموا منهم وعز دينهم فيجب عليهم أن يوقنوا أن الخير كذلك فى قسمة رسول الله للغنائم ، وأن يرضوا بهذه القسمة ويزيلوا من أنفسهم الحرج ويسلموا تسليما ليظل إيمانهم كاملا ويرضى عنهم الله ورسوله .

٢ ـــ التضاد كقوله تعالى : إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير [١]، وقوله تعالى : إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ....[٢] .

ولهذه القرينة أمثلة كثيرة فى القرآن الكريم فإن الله يقرن الوعد بالوعيد ، والخير بالشر ، وفريق المؤمنين وجزائهم بفريق الكافرين وجزائهم ، ليزداد المؤمنون إيمانا وثباتا على دينهم وشوقا إلى ربهم وابتهاجا بجزائهم ، ويرتدع الكافرون وينزجروا ويرعووا عن الغى والفساد والبغى والعناد ويتحسروا على جزائهم « فبضدها تتميز الأشياء » .

٣ ـــ الاستطراد كقوله تعالى : يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير .... »[٣].

(١) سورة البروج ١٠ ـــ ١١ (٢) سورة البينة ٦ ـــ ٨ .

(٣) سورة الأعراف ٢٦ .

فإن هذه الآية ذكرت بعد ذكر الآيات التى تحدثت عن آدم وحواء عليهما السلام وبدو السوءات وخصف الورق عليها والتضرع إلى الله تعالى ودعائه بالمغفرة والرحمة ، ذكرت بعدها على سبيل الاستطراد لبيان نعمة الله وفضله على الأناسى حيث جعل لهم اللباس سترا لعوراتهم وحفظا لكرامتهم وصونا لهم عن الفضيحة والمهانة وبابا من أبواب التقوى والورع والترق والترفع .

ومن القرائن المعنوية المؤذنة بالاتصال والتناسب أيضا :

حسن التخلص ، وحسن الانتقال من حديث إلى آخر ، وحسن المطلب ، وغيرها من القرائن التى ذكرها بأمثلتها البدر الزركشى والجلال السيوطى وغيرهما [1]، وتدرك بالتأمل وإجالة البصر ، وإمعان الفكر والنظر .

هذا كله فى التناسب بين الآيات المتجاورة فى السورة الواحدة .

ويوجد نوع آخر من التناسب بين الآيات غير المتجاورة فى السورة الواحدة ، ويعرف بالتناسب بين المطلع والمقطع أى التناسب بين فاتحة السورة وخاتمتها وظهور قوة الاتصال بينهما ، ويسمى فى علم البلاغة برد العجز على الصدر ، وهو محسن من المحسنات البديعية ، وللإمام جلال الدين السيوطى كتاب أفرده بالتأليف فى ذلك يسمى : « مراصد المطالع فى تناسب المقاطع والمطالع » ، ولهذا النوع من التناسب أمثلة كثيرة وأشكال متعددة فى القرآن الكريم :

١ ــ فتارة يكون التناسب بين المطلع والمقطع تناسبا لفظيا بمعنى أن تذكر بعض الألفاظ فى صدر السورة وفى آخرها ، كسورة الشورى حيث

---

(١) انظر البرهان للزركشى جـ ١ ص ٤٠ ومابعدها ، والإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ١٠٩ ــ ١١٠ .

افتتحت واختتمت بذكر الوحي فقال سبحانه وتعالى في صدرها : « كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » ، وقال في أواخرها : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا .... » الآية [1].

وسورة الجاثية بدئت بوصف الله تعالى بالعزة والحكمة وذكر السماوات والأرض ، وختمت بذلك ، فقال تبارك وتعالى في صدرها : ... تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين » ، وقال في آخرها : وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم »[2].

ومثلها سورة الحشر وغيرها ، ومعلوم أن التناسب اللفظي يستلزم ويتضمن التناسب المعنوي .

٢ ــ وتارة يكون التناسب بين المطلع والمقطع معنويا أي يوجد اتفاق بينهما في المعنى ، ويعود آخر السورة إلى أولها ، كسورة الملك فإن في أولها ثناء على الله تعالى وتنزيها له وتدليلا على كمال قدرته على كل شيء وتصرفه المطلق في ملكه ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ، الذي خلق سبع سماوات طباقا .... ﴾ الآيات ، وفي آخرها ثناء عليه عز وجل وتدليل على قدرته وافتقار الخلق إليه وإلى نعمته ، فلا ملجأ منه إلا إليه ﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين ، قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ﴾[3].

ولذا يستحب أن يقول القارىء والمستمع عقب الانتهاء من قراءة

(١) انظر الآيات في سورة الشورى ٣ و ٥١ ــ ٥٢ .
(٢) انظر الآيات في سورة الجاثية من ١ إلى ٣ و ٣٧ .
(٣) انظر الآيات في سورة الملك أو سورة تبارك من ١ إلى ٥ و ٢٩ ــ ٣٠ .

هذه الآية من هذه السورة المباركة العلية مجيبا : « الله رب العالمين » ، أي الذي يقدر على إتيان الماء هو الله رب العالمين لا غيره .

وهذا اللون تناسب بالتطابق

٣ ــ وتارة يكون التناسب بين المطلع والمقطع بالتضاد ، كسورة المؤمنون ، فالله تبارك وتعالى افتتحها ببيان صفات المؤمنين وفلاحهم فقال : قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون .... » الآيات ، واختتمها بنفي الفلاح عن الكافرين فقال : .... إنه لا يفلح الكافرون[1]، فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة[2]، وهو تناسب بالتضاد بينهما إذ بين الوصفين والفريقين برزخ لا يبغيان .

٤ ــ وتارة يكون التناسب بين المطلع والمقطع بالعموم والخصوص ، أو بالإجمال والتفصيل ، كسورة الحج حيث استهلها الله تعالى بأمر الناس كافة بتقوى الله عز وجل فقال : يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم » ، ثم اختتمها سبحانه بأمر المؤمنين خاصة بتنفيذ التقوى وتطبيق أفرادها من ركوع وسجود وعبادة وفعل للخيرات وجهاد في سبيل الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله وحده في قوله جل وعلا : يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ، وجاهدوا في الله حق جهاده ..... الآية الكريمة[3].

٥ ــ وتارة يكون التناسب بين المطلع والمقطع بالخصوص والعموم ، كسورة الأحزاب ، بدأها الله تبارك وتعالى بأمر النبي ﷺ بالتقوى ونهيه عن طاعة الكافرين والمنافقين في قوله : ﴿ يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين

---

(١) انظر الآيات في سورة المؤمنون من ١ إلى ١٠ و ١١٧ .

(٢) انظر الكشاف للزمخشري جـ ٣ ص ٥٨ .

(٣) انظر الآيات في سورة الحج ١ ــ ٧٧ ــ ٧٨ .

والمنافقين ... ﴾ ، وختمها بأمر المؤمنين عامة بالتقوى وبالقول السديد وطاعة الله ورسوله لا طاعة المنافقين والمشركين : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما .... ﴾الآيات (١).

٦ ــ وتارة يكون التناسب بين المطلع والمقطع بالتدرج والترقى فى الوصف ، كسورة الإسراء حيث افتتحها الله عز وجل بالتسبيح والتنزيه ونفى النقص عنه بقوله : ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ... ﴾ ، واختتمها بالحمد على صفاته الذاتية وبيان أنه كامل الذات متفرد الصفات جدير بأن يحمد بمجامع الحمد وبدائع الصفات ومتام الكمالات : ﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا ﴾ (٢).

ومما يدل على فضل هذه الآية وعظيم قدرها ما رواه الإمام أحمد بسنده عن معاذ بن أنس الجهنى مرفوعا : آية العز : وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا .... إلى آخر السورة ، وأن النبى ﷺ كان يقرؤها إذا نفر (٣).

إلى غير ذلك من ألوان التناسب بين الآيات غير المتجاورة فى السورة الواحدة فى مطلعها ومقطعها ، وهو تناسب بديع وتناسق رفيع .

ويوجد نوع آخر من التناسب وهو تناسب فواتح السور المبدوءة بأحرف مقطعة ــ وعددها تسع وعشرون سورة ــ مع آياتها وكلماتها التى فى ثناياها حتى قال العلماء : إن كل سورة بدئت بأحرف مقطعة لو نظرنا

(١) انظر الآيات فى سورة الأحزاب ١ ــ ٧٠ وما بعدها ، ومعلوم أن النبى ﷺ كان تقيا نقيا فأمره بتقوى الله أمر بالثبات والمداومة عليها والازدياد فيها .

(٢) انظر سورة الإسراء آية رقم ١ و ١١١ .

(٣) انظر المسند للإمام أحمد رحمه الله جـ ٣ ص ٤٣٩ .

فيها وأحصينا حروفها لوجدنا أحرفها التى بدئت بها كثيرة فيها ، فمثلا سورة (ص) بدئت بهذا الحرف : ص ، نرى هذا الحرف مذكورا كثيرا فى كلمات هذه السورة ، وسورة (ق) بدئت بهذا الحرف : ق ، ونراه كثيرا فى كلماتها ، وسورة (ن) بدئت بهذا الحرف : ن ، ونجده بكثرة فى كلماتها وألفاظها ..... وهكذا الحال فى كل سورة من السور التسع والعشرين مما جعل بعض العلماء يقول عن هذه الأحرف إنها أسماء لسورها التى افتتحت بها ، وهو قول مرجوح بلا ريب .

ويستبين مما تقدم أن كل آية فى القرآن الكريم رتبت ووضعت بتوقيف من الله تعالى فى موضعها اللائق بها والمخصص لها ، وأنها مع أختها ملتحمة متماسكة ، متضامة متعانقة ، ولا تخلو آية ما من هذا الوجه المعجز .

والذى نفسى بيده لو لم يكن فى القرآن الكريم من ألوان إعجازه إلا روعة الترتيب وجمال التنسيق وبديع المناسبات لكان آية الآيات ، ومعجزة المعجزات ، كيف وقد جمع الله فيه ألوانا شتى من وجوه الإعجاز وضروبه ؟؟؟ .

فسبحان من أنزل خير كتاب ، بواسطة خير ملك ، على خير رسول ، فى خير أمة ، وخير زمان ، وخير مكان .

﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ﴾[1] لكان هذا القرآن المنزل على رسول الله محمد ﷺ ، والمحفوظ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

نفعنا الله تعالى به وجعله حجة لنا يوم الدين .

---

(١) جزء آية من سورة الرعد ٣١

واجبنا تجاه الآية التى تشكل مناسبتها وتغمض

توجد فى القرآن الكريم آيات تشكل مناسبتها لما قبلها وتدق وتغمض ، وتحتاج إلى طول نظر وكثرة تروى ، فإن التسرع فى ذكر المناسبة وإظهارها فى مثل هذه الحالة يؤدى إلى ركوب متن الاعتساف والتكلف الذى لا يليق بكلام الله تعالى ويأباه إعجازه .

وهذه الآيات قليلة معدودة محدودة منها :

قوله تعالى فى سورة القيامة : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه ﴾[1].

فإن هذه الآيات تخاطب الرسول ﷺ وتنهاه عن تحريك لسانه بالقرآن والعجلة فى أخذه من جبريل عليه السلام وتلقفه وقت قراءته له ، وتطمئن رسول الله ﷺ بجمعه له فى صدره ، وبيانه له .

وهذه الآيات تدق وتخفى مناسبتها لما قبلها وما بعدها ، لأن الآيات التى قبلها وبعدها تتحدث عن يوم القيامة ، وتذكر طرفا من أحواله وأهواله ، ولذا سميت السورة بسورة القيامة .

وغموض المناسبة بين هذه الآيات وبين ما قبلها استغله بعض قدماء الشيعة المتطرفين الزائفين ، فزعموا أن القرآن سقطت منه آيات إبان جمعه ، وتلقف المستشرقون وأعداء الإسلام هذا الزعم ــ ومنهم جولد تسيهر ــ[2] وحاولوا النيل من القرآن الحكيم ، والتشنيع عليه مستشهدين بهذه الآيات زاعمين أن بينها وبين ما قبلها تفككا وتفصما .

---

(١) سورة القيامة ١٦ ــ ١٩ .

(٢) انظر ماقاله هذا اللعين ، من كلام مفترى على القرآن المبين فى كتابه : مذاهب التفسير الإسلامى ص ٢٩٥ وغيرها .

ومن تسرعوا فى ذكر المناسبة بينها وبين ما قبلها العلامة أبو بكر القفال كما حكى كلامه الفخر الرازى ، فقد ربط بينها وبين ما قبلها ربطا ظاهرا غير واضع فى اعتباره ونصب عينيه سبب نزولها فجانبه الصواب وأخطأه التوفيق .

يرى أبو بكر القفال أنها نزلت فى الإنسان المذكور قبلها فى قوله تعالى : ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾[1] وهى تتحدث عنه لا عن الرسول ﷺ ، والمعنى أنه يعرض عليه كتابه يوم القيامة ليقرأه ، فيتلجلج لسانه من شدة الخوف إذا أخذ فى القراءة ، فيسرع فيها ، فيقال له : لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا أن نجمع عملك ، وأن نقرأه عليك ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه بالإقرار بأنك فعلت تلك الأفعال ، ثم إن علينا بيان أمر الإنسان وما يتعلق بعقوبته .

ولا شك أن ما قاله أبو بكر القفال رحمه الله مخالف لما ثبت فى الحديث الصحيح من أنها نزلت فى الرسول محمد ﷺ وأنها تخاطبه ، وقد أحس القفال نفسه بذلك فقال عقب كلامه كما نقل عنه الفخر الرازى : « فهذا وجه حسن ليس فى العقل ما يدفعه وإن كانت الآثار غير واردة به »أ هـ[2] .

والظاهر أن الذى حدا بالقفال إلى هذا المنحى أن يرد على زعم الشيعة ومن على شاكلتهم .

وقد شمر العلماء عن ساعد الجد للربط بين هذه الآيات وبين ما قبلها وإظهاره حتى لاحت أوجه كثيرة فى الربط بينها ، ذكرها فخر الدين الرازى ، وبدر الدين الزركشى ، وجلال الدين السيوطى ، وشهاب الدين

(١) سورة القيامة ١٣ .

(٢) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للرازى جـ ٣٠ ص ٢٢٣ .

الألوسى وغيرهم [1] منها :

أ ــ أن الله تعالى لما وصف الكفار بأنهم يستبعدون البعث والجزاء ويحبون الملذات وحياة الشهوات ، ويتعجلون فى كل شىء ، فى قوله عنهم : ﴿ ... بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ، يسأل أيان يوم القيامة ... ﴾ [2] بين أن التعجيل مذموم مطلقا ولو كان فى أمور الدين وأهم شىء فيه فقال : لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه .... ﴾ ثم عاد إلى الحديث عن الكفار فقال : كلا بل تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة .

ب ــ أن الله سبحانه حكى عن الكافر أنه يقول : « أين المفر » ، ثم قال له : « كلا لا وزر ، إلى ربك يومئذ المستقر » ، فكأن الكافر يفر من الله إلى غيره ، وأما الرسول ﷺ فهو يفر من غير الله إلى الله بإقباله على جبريل عليه السلام وسرعة حفظه ولهفته فى أخذه عنه ، فهو مضاد لذلك الكافر ، فكأن الله يقول له : اترك التكرار والعجلة خوف التفلت ، واستعن بالله فى سائر أمورك ، وتأن فى تلقى ما يوحى إليك ، ولا تتعجل كما يتعجل سائر البشر فى كل شىء ، ــ وبخاصة الكفار ــ فلكونهم خلقوا من عجل يحبون العاجلة ويذرون الآخرة ، والله تعالى كفيل بأن يجعلك حافظا مستوعبا مستظهرا .

جـ ــ أن المتأمل فى القرآن الكريم يجد أن الله عز وجل إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد ، والذى سيعرض عليه يوم القيامة ، أتبعه بذكر

---

(١) انظر مفاتيح الغيب للرازى جـ ٣٠ ص ٢٢٣ ، والبرهان للزركشى جـ ١ ص ٤٨ ، والإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ١١٠ ــ ١١١ وروح المعانى للألوسى جـ ١٠ ص ١٧٩ ــ ١٨١ .

(٢) انظر الآيات فى سورة القيامة ٣ ــ ٦ .

الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية فى الدنيا التى تنشأ عنها المحاسبة عملا وتركا وهو القرآن الكريم ، كما قال تعالى فى سورة الإسراء : .... فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا ..... » إلى أن قال فى نفس السورة : .... ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل »[1].

وقال فى سورة الكهف : ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ..... » إلى أن قال فى نفس السورة : ... ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل[2].

فسورة القيامة ذكر فيها ـــ كعادة القرآن ـــ الكتاب الجامع لعمل العبد والمعروض عليه يوم القيامة « ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر » ، وأردف بذكر الكتاب المحتوى على الأحكام الدينية فى الدنيا .

د ـــ أن النفس لما تقدم ذكرها فى صدر السورة المباركة وانجر الكلام على الكافر المستبعد للبعث عدل القرآن إلى ذكر نفس الرسول ﷺ ، كأنه قيل : هذا شأن النفوس ، أما أنت يا محمد فنفسك أشرف النفوس وأسماها وأجلها ، فلتأخذ بأكمل الأحوال من التأنى والتثبت والتمهل .

هـ ـــ أن جبريل عليه السلام لما نزل بأول السورة إلى قوله تعالى فى الإنسان : « .... ولو ألقى معاذيره » ، وقرأه على رسول الله ﷺ ، صادف أنه ﷺ فى هذه الحالة بادر إلى حفظ ما نزل ، وحرك به لسانه من عجلته ولهفته خشية تفلته ، وبارى جبريل عليهما السلام ، فنزلت الآيات : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه ﴾ ، ثم عاد الكلام إلى تكملة ما ابتدئت به السورة .

(١) سورة الإسراء ٧١ ـــ ٨٩ .
(٢) سورة الكهف ٤٩ ـــ ٥٤ .

قال الفخر الرازى : ونحوه ما لو ألقى المدرس على الطالب مثلا مسألة ، فتشاغل الطالب بشىء عرض له ، فقال له المدرس : لا تنشغل وألق إلى بالك وتفهم ما أقول ، ثم كمل المدرس المسألة .

فالكلام الثانى متصل بالأول حسن الترتيب وليس خارجا عنه ، ويحمل فى طيه التشويق والترغيب ، ومن لا يعرف السبب يقول : ليس هذا الكلام مناسبا للمسألة ، بخلاف من عرفه [1].

ووقع نحو هذا المثال عند المحدثين ـــ وهو مجرد تنظير مع الفرق الواسع والبون الشاسع ـــ ، فقد روى الإمام مسلم رحمه الله فى صحيحه بسنده عن عبد الله بن يحى بن أبى كثير قال : سمعت أبى يقول : لا يستطاع العلم براحة الجسم أ هـ .

قال الإمام النووى معلقا على هذه الرواية : جرت عادة الفضلاء بالسؤال عن إدخال مسلم هذه الحكاية عن يحى مع أنه لا يذكر فى كتابه إلا أحاديث النبى ﷺ محضة ، مع أن هذه الحكاية لا تتعلق بأحاديث مواقيت الصلاة فكيف أدخلها بينها ؟ .

وحكى القاضى عياض رحمه الله تعالى عن بعض الأئمة أنه قال : سببه أن مسلما رحمه الله تعالى أعجبه حسن سياق هذه الطرق التى ذكرها لحديث عبد الله بن عمر وكثرة فوائدها وتلخيص مقاصدها وما اشتملت عليه من الفوائد فى الأحكام وغيرها ، ولا نعلم أحدا شاركه فيها ، فلما رأى ذلك أراد أن ينبه من رغب فى تحصيل الرتبة التى ينال بها معرفة مثل هذا فقال : طريقه أن يكثر اشتغاله وإتعابه جسمه فى الاعتناء بتحصيل العلم .

---

(١) انظر مفاتيح الغيب للرازى جـ ٣٠ ص ٢٢٢ ـــ ٢٢٣ والإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ١١١ .

هذا شرح ما حكاه القاضى أ هـ [(١)].

وانظر ما رواه ابن ماجة رحمه الله بسنده عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار » وتعليق الحافظ جلال الدين السيوطى على هذا الحديث فى كتابه : « تدريب الراوى » ، وكلامه فى شرح عبارة الإمام النووى فى التقريب : « وربما وقع فى شبه الوضع بغير قصد »[(٢)] .

وصفوة القول أن هذه الآيات — وإن كانت معترضة لها اتصال وثيق بما قبلها وبما بعدها من آيات فهى معها ملتحمة متماسكة ، متعانقة متشابكة ، وليست المناسبة بينها وبين ما قبلها وما بعدها « عسرة جدا » كما قال الإمام السيوطى فى كتابه الإتقان[(٣)] ، فالآيات فى السياق وإن اختلف المذاق .

ومثل هذه الآيات قوله تعالى : يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون[(٤)] ، فإن الكلام قبل هذه الآية عن آدم وزوجه حواء عليهما السلام ، وعما وقع منهما بسبب إبليس اللعين الرجيم .

وقوله تعالى : واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ، كتاب المساجد ، باب أوقات الصلوات الخمس جـ ٢ ص ٢٥٩ .

(٢) انظر سنن ابن ماجه كتاب إقامه الصلاة والسنة فيها باب ما جاء فى قيام الليل جـ ١ ص ٤٢٢ ، وتدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى للسيوطى ص ١٨٨ .

(٣) انظر الإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ١١٠ .

(٤) سورة البقرة ٤٠ .

أحدهما ولم يتقبل من الآخر ..... [1]، فإن الكلام قبلها فى بنى إسرائيل وعصيانهم لنبيهم موسى عليه السلام ، وفى ذكر طائفة من جرائمهم التى ارتكبوها وارتكسوا فيها .

وقوله تعالى : .... اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا .....[2]، حيث ذكرت هذه الجمل فى خلال آية طويلة يتحدث صدرها وعجزها عن المحرمات .

والآيات التى تغمض فيها المناسبة وتخفى قليلة جدا .

وإياك أن تفهم — أيها القارىء الكريم — من غموض المناسبة ودقتها فى بعض الآيات عدمها ، إذ أن المناسبة قائمة وثابتة وموجودة بين كل آية وآية ، غاية الأمر أن المناسبة أحيانا تكون ظاهرة جلية وهو الأغلب فى القرآن الحكيم ، وأحيانا تكون دقيقة خفية تحتاج إلى طول نظر وكثرة أناة وهذا فى آيات قليلة محدودة معدودة .

فإن خفيت عليك مناسبة وغمضت فارجع إلى أمهات كتب التفسير التى تعنى بذكر المناسبات ، وإلى مراجع هذا العلم الجليل ومصادره ، وتأن فى قراءتك ، وتمهل فى اختيارك ، والله معك ، وستجد إن شاء الله بغيتك ، وتتحقق طلبتك ، وينشرح صدرك ، وتقر عينك ، مادمت صادقا مخلصا فى طلبك .

---

(١) سورة المائدة ٢٧

(٢) سورة المائدة ٣ .

قاعدة جليلة

تعين على معرفة التناسب بين الآيات

إن الوصول إلى المناسبة الصحيحة القويمة بين الآيات الكريمة ، والوقوف على وجه الترابط بينها يحتاج إلى دراسة الآيات القرآنية وفهمها ومعرفة مراميها ومعانيها ، وإعمال العقل وإمعان النظر والفكر ، وقد استنبط أحد العلماء المتأخرين وهو : أبو الفضل محمد بن محمد المشدالى المغربى المالكى المتوفى ٨٦٤ هـ — شيخ البقاعى — قاعدة فى المناسبات ذكرها الإمام جلال الدين السيوطى فى الإتقان ، والإمام البقاعى فى مقدمة كتابه : نظم الدرر ، والإمام الشوكانى فى كتابه : البدر الطالع ، وإليك نصها من كتاب : الإتقان للسيوطى :

قال السيوطى : قاعدة : قال بعض المتأخرين : الأمر الكلى المفيد لعرفان مناسبات الآيات فى جميع القرآن هو : أنك تنظر الغرض الذى سيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات فى القرب والبعد من المطلوب . وتنظر عند انجرار الكلام فى المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التى تقتضى البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها .

فهذا هو الأمر الكلى المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن ، فإذا عقلته تبين لك وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية فى كل سورة أ هـ [1].

---

(١) الإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ١١٠ ، وانظر البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكانى فى ترجمة أبى الفضل المشدالى جـ ٢ ص ٢٤٨ ، ومقدمة كتاب نظم الدرر للبقاعى .

فهذه القاعدة استنبطها أبو الفضل المشدالى — بفتح الميم والمعجمة وتشديد اللام — شيخ البقاعى بعد استقراء وتتبع وتأمل ودراسة للآيات القرآنية ، وهى تدل على مدى اعتنائه بالمناسبات واحتفائه بها .

كما ذكر بدر الدين الزركشى وجلال الدين السيوطى وغيرهما كلمة جامعة فى المناسبات وهى أن : « مرجعها فى الآيات ونحوها إلى معنى ما رابط بينهما : عام أو خاص ، عقلى أو حسى أو خيالى ، وغير ذلك من أنواع العلاقات ، أو التلازم الذهنى كالسبب والمسبب ، والعلة والمعلول ، والنظيرين ، والضدين ، ونحوه ، أو التلازم الخارجى كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع فى باب الخبر »[1].

---

(١) البرهان للزركشى جـ ١ ص ٣٥ . والإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ١٠٨

التناسب بين السور

علمنا فيما تقدم أن بعض المفسرين اهتموا بذكر المناسبات بين السور كما اهتموا بذكرها بين الآيات ، كالإمام شهاب الدين الألوسى فى تفسيره : « روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى » ، وأن بعض العلماء أفرد تناسب السور بالتأليف :

كالإمام أبى جعفر بن الزبير الأندلسى شيخ العلامة أبى حيان فى كتابه : البرهان فى مناسبة ترتيب سور القرآن » .

والإمام برهان الدين البقاعى فى كتابه : نظم الدور تناسب الآيات والسور » .

والإمام جلال الدين السيوطى فى كتابه : تناسق الدور فى تناسب السور ، لخصه كما قال من كتابه : « قطف الأزهار فى كشف الأسرار » ، ويسميه السيوطى أحيانا : « أسرار التنزيل » ، وقد طبع كتاب : تناسق الدرر للسيوطى تحت عنوان : أسرار ترتيب القرآن وقام بتحقيقه الأستاذ عبد القادر أحمد عطا عام ١٩٧٦ م .

والعلامة أبى الفضل عبد الله محمد الصديق الغمازى الحسنى فى كتابه : جواهر البيان فى تناسب سور القرآن » .

وإن المتأمل فى القرآن الكريم يجد أن المناسبات بين السور بالنظر إلى نوعها وكنهها كثيرة متنوعة :

١ ــ فتارة يكون بين السورتين تقارب فى التسمية ، مثل سورة القمر مع سورة النجم : فسورة النجم بدئت بقوله تبارك وتعالى : « والنجم إذا هوى » ، وسورة القمر بدئت بقوله سبحانه وتعالى : « اقتربت الساعة

وانشق القمر »(١) . فبين السورتين تقارب فى التسمية وفى افتتاحهما .

ومثل سورة المدثر مع سورة المزمل : لأن المقصود بهما رسول الله ﷺ ، وبين التدثير والتزميل تشابه وتقارب ، والمدثر نزلت بعد المزمل أى صدرها ، وكل منهما تسجل حالة من حالتى رسول الله ﷺ .

ومثل سورة الطارق مع سورة البروج لأن الطارق هو النجم الثاقب ، فبين السورتين تقارب فى التسمية وبدئت كل منهما بالقسم بالسماء .

٢ ـــ وتارة يجمع السور المتجاورة اشتراكها فى قدم النزول أى نزولها مبكرة بمكة المكرمة : كسورة الإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء لقول عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه فيما أخرجه البخارى بسنده عنه : هن من العتاق الأول وهن من تلادى (٢)، فذكرها ابن مسعود رضى الله عنه نسقا كما استقر ترتيبها ، وبين أنها نزلت فى وقت مبكر من البعثة .

٣ ـــ وتارة تكون العلاقة بين السورة وسابقتها أنها تليها فى ترتيب نزولها : كسورة المدثر مع سورة المزمل كما سبق ، وسورة يونس وهود ويوسف عليهم السلام ، فترتيب هذه السور فى المصحف كترتيبها فى النزول .

٤ ـــ وتارة تكون السورة مع أختها السابقة عليها مشتملتين على قصص

(١) سورة النجم ١ وسورة القمر ١ .

(٢) صحيح البخارى كتاب التفسير سورة الأنبياء جـ ٦ ص ١٢١ ، و (تلادى) بكسر التاء وفتحها : يقصد ابن مسعود رضى الله عنه أنه أخذها بمكة المكرمة منذ زمن مبكر ، ومعنى (التلاد) : المال القديم الذى نشأ عند الشخص ونماه وتولد عنده ، ويقال له أيضا : (التالد) أى القديم ، أما (الطارف) فهو المال الحادث ، ومثله (الطريف) . فهذه الكلمة (الطارف) ضد تلك (التالد) : انظر الصحاح للجوهرى ص ٤٥٠ ـــ ١٣٩٤ والقاموس المحيط جـ ١ ص ٢٧٩ وجـ ٣ ص ١٦٧ والمصباح المنير للفيومى ص ٧٦ .

عجيبة وأمثلة غريبة ، وكلها حقائق يتحتم الإيمان بها والاعتبار بما فيها ، ويكفر من ينكرها ، كسورة مريم عليها السلام مع سورة الكهف فإن كلتيهما اشتملتا على قصص تدل على كمال قدرته تعالى وبالغ حكمته ، وبديع صنعه ولطفه .

ففى سورة الكهف : قصة أصحاب الكهف ، وقصة صاحبى الجنتين ، وقصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح الخضر ، وقصة ذى القرنين ويأجوج ومأجوج .

وفى سورة مريم قصة زكريا وإنجابه ليحى عليهم السلام بعد بلوغه من الكبر عتيا ، واشتعال رأسه شيبا ، وعقم امرأته ، وقصة عيسى مع أمه مريم حيث ولدته بدون أب ، وحملت بإذن الله مع بقاء بكارتها وعدم زواجها ، وتكلم عيسى عليه السلام وهو صبى فى المهد ، ونطقه بالحقائق الرفيعة السامية التى هى أصول الدين .

وكذلك سورة طه وهى تليها فيها أمور عجيبة وخوارق غريبة كقلب عصا موسى عليه السلام حية تسعى ، وإخراجه يده بيضاء من غير سوء ، وإلقائه وهو رضيع فى اليم ، والتقاط فرعون له وتربيته له فى بيته وهو عدوه ، والتقام عصاه التى صارت حية لما صنعه سحرة فرعون ، وعودته إلى أمه بعد ذلك العمر الطويل ، وغير ذلك من العجائب والغرائب التى تحتويها هذه السور الثلاث ، والدالة على كمال قدرة الله تعالى وتمام تدبيره ، واستحقاقه الثناء ، وإفراده بالإلهية والربوبية ، واتصافه بكافة صفات الجلال والكمال .

٥ ـــ وتارة تكون العلاقة بين السورة وأختها اشتراكهما معا فى النزول أى نزولهما معا كاملتين فى وقت واحد ، مثل سورة الناس فإنها نزلت مع سورة الفلق فى زمن واحد وسميتا بالمعوذتين وبدؤهما واحد وهو : « قل أعوذ » .

روى الإمام مسلم — واللفظ له — والترمذى بسندهما عن عقبة بن عامر الجهنى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط : قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس » .

وفى رواية أخرى عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ : أنزل أو أنزلت على آيات لم ير مثلهن قط : المعوذتين »[1] .

وفى هذا الحديث بروايتيه دلالة على :

أن السورتين نزلتا معا فى وقت واحد ، وبيان لفضلهما الكبير ، وتصريح من رسول الله ﷺ بأنهما من القرآن الكريم ، وأن كلمة « قل » فيهما التى افتتحت بهما منهما وهى قرآن منزل .

وفيه رد مفحم على من نسب إلى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه خلاف ذلك ، لأن مثله لا يجهل كون هاتين السورتين من القرآن ، ورد مفحم على من يفترى على الله الكذب ويزعم أن « قل » ليست من القرآن وأنها زائدة ودخيلة عليه .

فمن يقل بخلاف ما ثبت وتواتر عن رسول الله ﷺ وكان معلوما لدى المسلمين ففى قوله اعوجاج وخلل ، وفى منهجه انحراف وزلل ، وفى قلبه مرض ودخل ، وفى صدره زيغ ودغل .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى : كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة المعوذتين جـ ٢ ص ٤٦٣ ، ورواه الترمذى فى سننه جـ ٥ ص ١٢٢ وقال عنه حديث حسن صحيح ، انظر فيه : سنن النسائى كتاب الافتتاح فى الصلاة باب الفضل فى قراءة المعوذتين جـ ٢ ص ١٥٨ وكتاب الاستعاذة جـ ٨ ص ٢٥١ ، والمسند للإمام أحمد جـ ٤ ص ١٤٤ ، وسنن أبى داود كتاب الصلاة باب فى المعوذتين جـ ٢ ص ٧٣ .

٦ ــ وتارة تكون مناسبة السورة لما قبلها اشتراكهما معا فى التناسب بين المطلع والمقطع ، أو بتعبير آخر بلاغى : فى كل منهما : « رد العجز على الصدر » ، كسورة البقرة وسورة آل عمران :

فسورة البقرة : افتتحها الله تعالى بالثناء على المتقين الذين آمنوا بجميع ما أنزله على رسوله محمد ﷺ : وجميع ما أنزله على الرسل السابقين ، ثم بذم الله للكافرين والمنافقين .

واختتم الله السورة بمدح المتقين المؤمنين بـالله وملائكته وكتبه ورسله ، والذين تلهج ألسنتهم بدعائه بالمغفرة والرحمة والعفو والنصر على سائر الكافرين .

فتناسق آخرها مع أولها ، وتعانق مقطعها بمطلعها .

وكذلك سورة آل عمران : جاء فى صدرها الثناء على المؤمنين ودعاؤهم ربهم بقولهم : ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ..... إلخ ، وتحقير الكافرين وتهديدهم وبيان مآلهم وسوء عاقبتهم : إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار .... إلخ[1] ، واختتم الله السورة بمدح المؤمنين ودعائهم لربهم واستجابته لهم ، وبإخزاء الكافرين وبيان سوء منقلبهم ... فتناسب مقطعها مع مطلعها .

ويضاف إلى هذا أن السورتين استهلتا بأحرف مقطعة واحدة ، وبالحديث عن القرآن الحكيم ، وسماهما رسول الله ﷺ بالزهراوين .

وأمثلة التناسب بين المطلع والمقطع فى سور القرآن المجيد كثيرة ، ويكون التناسب بينهما بالتطابق ، وبالعموم والخصوص ، وبالمقابلة ، وبالتضاد ،

(١) سورة آل عمران ٧ ــ ١٢ .

وبغير ذلك مما يلوح للمتأمل فى سور القرآن العظيم ، ومن الكلام والتمثيل لذلك .

٧ ــ وتارة تكون العلاقة بين السورة وسابقتها اشتراكهما فى الحديث عن موضوع واحد والعناية ببيانه ، كسورة الصف والجمعة : فإن السورتين تتحدثان عن الرسالات السماوية الثلاث وموقف أهلها منها : رسالة موسى وعيسى عليهما السلام إلى بنى إسرائيل ، ورسالة محمد ﷺ فى العرب الأميين وإلى الناس كافة بل إلى الثقلين قاطبة ، وإن كانت كل سورة منهما انفردت وامتازت عن الأخرى بتناول شيء آخر .

ومثل سورة القيامة ، والإنسان ، والمرسلات ، والنبأ ، والنازعات ، وعبس ، والتكوير ، والانفطار ، والمطففين ، والانشقاق ، والبروج ، والطارق : فإن هذه الكوكبة من السور تتناول موضوع البعث وأحوال الخلق يوم القيامة ومآلهم ، وإن كان هذا لا ينفى أن كل واحدة منها تميزت بشيء لا يوجد فى الأخرى ، لكن القاسم المشترك بينها كلها هو الحديث عن البعث وما يتلوه من أهوال وأحوال وأوصاف ، وأكثر الله فيها من الأدلة على وقوعه وأبان الحجة ونوع الأساليب فى إبانتها وتفنيد شبهات الكفار الجاحدين له .

وقد نزلت سورة المرسلات كلها جملة واحدة فى غار بمنى ورسول الله ﷺ بين طائفة من أصحابه كما روى البخارى ومسلم بسندهما عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه[1].

وقال ﷺ فيما رواه الترمذى وأحمد بسندهما عن عبد الله بن عمر رضى الله

---

(١) انظر صحيح البخارى كتاب التفسير سورة المرسلات جـ ٦ ص ٢٠٤ ــ ٢٠٥ ، وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب قتل الحيات وغيرها جـ ٥ ص ٩٢ .

تعالى عنهما : من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ : ﴿إذا الشمس كورت ، وإذا السماء انفطرت ، وإذا السماء انشقت﴾[1].

٨ ــ وتارة يكون التناسب بين السورة وأختها فى اشتراكهما فى مكان النزول واشتمالهما معا على أحكام تشريعية كثيرة ، كسورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة ، فإن هذه الكوكبة من السور المباركة نزل كل منها بعد الهجرة فى المدينة المنورة ، واستوعبت كل سورة منها أحكاما تشريعية مستفيضة .

وهذه السور الأربع أطول السبع الطوال ، والأوليان منها استهلتا بأحرف مقطعة (الم) ، والأخريان منها استهلتا بالنداء (يا أيها الناس) ، (يا أيها الذين آمنوا) .

فسبحان من هذا كلامه وتقسيمه وتنويعه .

٩ ــ وتارة تكون الصلة بين السورة وأختها هى الضدية أو المقابلة فى التسمية ، كسورة الليل مع سورة الشمس ، أو فى بعض المعانى بمعنى أن السورة الثانية تشتمل على معان تقابل بعض المعانى التى تنتظمها السورة السابقة ، كسورة المنافقون مع سورة الجمعة :

فسورة الجمعة تتحدث عن رسالة سيدنا محمد ــ ﷺ ــ إلى العرب وإلى غيرهم من الناس قاطبة ، وتذم اليهود الذين غمطوا الحق وأخفوه بعد أن عرفوه ، وجحدوا رسالته ﷺ ، وتشبههم بأبلد الحيوانات وأغباها وأحمقها وهو الحمار ، ثم تختم السورة الكريمة بالحديث عن المؤمنين وعن يوم الجمعة وواجبهم فيه .

أما سورة المنافقون التى تليها وتعقبها فهى تتحدث عن المنافقين وتذكر لهم

(١) سنن الترمذى ، أبواب التفسير ، سورة إذا الشمس كورت جـ ٥ ص ١٠٤ ، والمسند جـ ٢ ص ٢٧ .

أوصاف تقابل أوصاف المؤمنين وتضادها .

روى الإمام الطبراني — رحمه الله — بسنده عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة يحرض بها المؤمنين ، وبسورة المنافقون يقرع بها المنافقين »[1] .

ومثل سورة قريش والماعون والكوثر :

فسورة قريش : بينت أن الله تعالى امتن على قريش وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف فهو جدير بعبادتهم له وهو يستحقها وهم مأمورون بها وبشكره لما هم فيه من آلاء ونعم ورغد ومنن .

وسورة الماعون : بينت أنهم جحدوا هده النعم وتنكروا لها ، فكذبوا بالدين ، ودفعوا اليتيم دفعا عنيفا ، ودعوه دعا بغيظ وحنق وشنآن وبغض ، وبخلوا بالطعام على المسكين الجائع الطاوى ، وتضمنت السورة وصف المنافقين بالبخل والحرص ، وترك الصلاة ، والرياء فيها إن أدوها ، ومنع الزكاة .

وسورة الكوثر : أخبرت بإكرام الله لرسوله محمد ﷺ وأمرته بالصلاة ، والإخلاص لربه ، والتصدق ، على عكس ما عليه الكفرة الفجرة ، فهو مباين لهم تمام المباينة وصفاته تقابل صفاتهم وتضادها : ولذا قيل إن صفة البخل التي في سورة الماعون يقابلها في سورة الكوثر إعطاء الكوثر أى الخير الكثير الوفير ويدخل فيه الحوض المورود دخولا أوليا أخذا بحديث الصادق المصدوق ﷺ ، وصفة ترك الصلاة يقابلها الأمر بها والمداومة عليها (فصل) ، وصفة الرياء فيها يقابلها كلمة « لربك » أى لرضاه وابتغاء

(١) رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن ، وروى نحوه البزار والطبراني في الكبير عن أبي عبيدة الخولاني وفي سنده أبو مهدى سعيد بن سنان وهو ضعيف انظر مجمع الزوائد حـ ٢ ص ١٩١

وجهه سبحانه ، وصفة منع الماعون أى الزكاة ونحوها يقابلها الأمر بالنحر والتصدق على المحتاجين بلحم الأضحية [1].

١٠ ــ وتارة تكون العلاقة بين السورة وأختها التوازن اللفظى بين أول السورة وآخر السورة السابقة ، كسورة الإخلاص المبدوءة بقوله تعالى : قل هو الله أحد »[2] مع آخر سورة تبت المختومة بكلمة « مسد » ، فيوجد توازن فى اللفظ والنغم الصوتى بين كلمة « مسد » وكلمة « أحد » ، وهى مناسبة لفظية صرفة .

أو التناسب فى الجمل ، كما فى سورة النبأ وسورة المرسلات :

ففى سورة المرسلات قوله تعالى : « ألم نهلك الأولين ، ثم نتبعهم الآخرين .... ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين ، إلى قدر معلوم ..... ألم نجعل الأرض كفاتا ، أحياء وأمواتا ... » [3].

وفى سورة النبأ قوله جل وعلا : ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا ، وخلقناكم أزواجا ، وجعلنا نومكم سباتا ...... إلخ [4].

ومثلهما سورة الشرح مع سورة الضحى .

ففى هذه السور جمل متناسبة مبدوأة بالاستفهام التقريرى الدال على ثبوت المعنى وتحققه على وجه التأكيد والقطع واليقين .

١١ ــ وقد تكون مناسبة السورة لما قبلها اشتراكهما فى البدء والمخاطبة ،

---

(١) انظر مفاتيح الغيب للفخر الرازى جـ ٣٢ ص ١١٧ وقد قال عن هذه العلاقة بين السورتين : فاعتبر هذه المناسبة العجيبة ، وانظر البرهان للزركشى جـ ١ ص ٣٩ ، والإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ١١٢ .

(٢) سورة الإخلاص ١

(٣) سورة المرسلات ١٦ ــ ٢٦ .

(٤) سورة النبأ ٦ ومابعدها

وذكرهما لأحكام متشابهة متقاربة ، كما فى سورتى الطلاق والتحريم :

بدئت كل منهما بنداء النبى ﷺ ومخاطبته ، ومما اشتملت عليه سورة الطلاق : طلاق النساء والخصومة بينهن وبين رجالهن ، ولذا تسمى سورة الطلاق بسورة النساء القصرى .

ومما اشتملت عليه سورة التحريم : تحريم رسول الله ﷺ على نفسه شرب العسل أو نكاح مارية رضى الله عنها وامتناعه عن ذلك على الخلاف فى سبب النزول ، وخصومة نسائه له حتى اعتزلهن — رضى الله تعالى عنهن — مدة من الزمن .

ومثلهما سورتا المزمل والمدثر : فقد بدئتا بنداء النبى ﷺ ومخاطبته ، وملاطفته ومؤانسته ، وأمره بأوامر عظيمة فيها نفع كبير للدعوة والنهوض بأعبائها وتبعاتها ، وتحمل مصاعبها ومشقاتها .

١٢ — وقد تكون علاقة السورة بما قبلها أنها بدئت بكلام يرتبط ارتباطا وثيقا بآخر السورة السابقة عليها وكأنه جزء منها ومتمم لها ، ولهذه العلاقة أمثلة كثيرة :

فسورة المائدة ختمت بالمراجعة والمساءلة بين الله تعالى وبين عيسى عليه السلام وستكون يوم القيامة ، وبيان ملكية الله تعالى للسماوات والأرض وقدرته على ما يشاء .

وافتتحت سورة الأنعام بحمد الله والثناء عليه المناسب لفصل القضاء كما فى قوله تعالى فى آية أخرى : ... وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾[1]

وسورة الحجر ختمت بقوله تعالى : ... واعبد ربك حتى يأتيك

(١) سورة الزمر ٧٥

اليقين »[1]، وهو الموت وسمى يقينا لتيقن وقوعه وتحتم مجيئه ، لا كما يزعم بعض المتطرفين الذين ينسبون أنفسهم إلى التصوف من أن المراد باليقين فى الآية الكريمة هو معرفة الله ـــ تعالى ـــ والعلم به ، وإذا وصل الإنسان إلى هذه المرتبة سقطت عنه التكاليف ولا يكون مطالبا بالعبادة .

ومما يبطل زعمهم قوله تعالى فى سورة أخرى حكاية لجواب الكفرة عن السؤال الموجه إليهم وهم فى سقر : « ما سلككم فى سقر ، قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين »[2]، أى الموت ، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن وهو أعلى مرتبة فى مراتب التفسير .

وافتتحت سورة النحل بقوله تبارك وتعالى : أتى أمر الله فلا تستعجلوه [3] .

فأول سورة النحل مرتبط بآخر سورة الحجر فى أمرين يتحتم وقوعهما وهما : الموت ومجىء يوم القيامة ، والأول منهما مقدمة وسبيل إلى الثانى .

ومثل هذه السور : سورة الكهف مع سورة الإسراء ، وسورة النجم مع سورة الطور ، وسورة الأحقاف مع سورة الجاثية ، وغير ذلك من السور المباركة .

١٣ ـــ وقد تكون صلة السورة بما قبلها أن صدرها يكون كالتعليل لما قبلها ، أو جوابا لسؤال مقدر نشأ وانبعث مما قبلها ، كسورة الحديد مع سورة الواقعة :

فقد ختم الله سورة الواقعة بالأمر بتسبيحه وتنزيهه فى قوله جل وعلا : فسبح باسم ربك العظيم[4]، وافتتح سورة الحديد بالإخبار بأن المخلوقات كلها فى

---

(١) سورة الحجر ٩٩

(٢) سورة المدثر ﷺ ٤٢ ـــ ٤٧ .

(٣) سورة النحل ١ .

(٤) سورة الواقعة ٩٦

السماوات والأرض تسبحه بقوله عز وجل : سبح لله ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم [1].

فصار صدر هذه السورة بمثابة التعليل أو السبب للأمر فى آخر السورة السابقة ، أى سبح باسم ربك العظيم لأن المخلوقات كلها سبحته وقدسته وقدرته حق قدره ولا تكن شاذا عنها ولا مخالفا لها .

ومثل سورة التكاثر مع سورة القارعة :

فإن سورة القارعة لما ختمت بقوله سبحانه وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ، وما أدراك ماهيه ، نار حامية [2]، نشأ سؤال عن سبب وعلة هذا المصير الوخيم والعذاب الأليم ، فجاء الجواب بقوله سبحانه وتعالى فى صدر سورة التكاثر :

﴿ ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر ﴾ [3].

أى سبب هذه العاقبة السيئة والنهاية المؤلمة المفجعة أن التكاثر بالمال والأولاد والعتاد والتباهى وحب الدنيا الذى هو رأس كل خطيئة واشتغالكم بها ألهاكم عن الأعمال الصالحة والأفعال الطيبة وأنساكم ذكر الله والعمل للآخرة إلى أن باغتكم الموت وفاجأكم أجلكم فخفت موازينكم لذلك .

ومثل سورة البينة مع سورة القدر :

فسورة القدر لما بدئت بقوله عز وجل : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ [4] ، تضمنت سؤال سائل ، فكان صدر سورة البينة جوابا لسؤاله ، كأن سائلا قال : ولم ذلك ؟ فجاء الجواب : لأن الكافرين من أهل الكتاب والمشركين لن ينفكوا عن كفرهم حتى تأتيهم البينة ، وهو الرسول محمد ﷺ المرسل من

(1) سورة الحديد 1
(2) سورة القارعة 8 — 11
(3) سورة التكاثر 1 — 2 .
(4) سورة القدر 1

الله تعالى ، يتلو هذا الرسول المرسل من حفظه صحفا مطهرة ، وهذا المتلو هو المنزل من عند الله فى ليلة القدر .

ومثل سورة قريش مع سورة الفيل .

١٤ — وقد تكون مناسبة السورة لما قبلها أن صدرها يكون تأكيدا ودليلا على ختام ماقبلها ، كسورة الفجر مع سورة الغاشية :

فالله تعالى ختم سورة الغاشية بتسلية رسوله ﷺ والتسرية عنه وتخفيف حسرته ولوعته لعدم إيمان قومه وإعراضهم عنه ونكوصهم عن رسالته ، وبإيعاد الكفار جميعا بالعذاب وبيان أن مصيرهم إليه وحسابهم عليه بقوله تعالى : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر ، إلا من تولى وكفر ، فيعذبه الله العذاب الأكبر ، إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم ﴾[1] .

وافتتحت سورة الفجر بالقسم بالفجر ، والليالى العشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر » على أخذ الكفار أخذ عزيز مقتدر وتعذيبهم بدليل مابعده من ذكر مصير عاد إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود ، وفرعون ، وبين الله عظمة هذا القسم لدى ذوى العقول والحجى .

١٥ — وقد تكون علاقة السورة بأختها أنها تكون مكملة لمقصودها ومتممة لغرضها : كسورة المعارج مع سورة الحاقة :

فسورة الحاقة تحدثت عن القيامة وتهويل شأنها وتعظيم حالها واليوم الآخر وأحوال المؤمنين والكافرين .

وسورة المعارج تناولت هذا المقصد العلى ، وذاك الغرض الجلى ، وجاءت مكملة ومتممة لسورة الحاقة .

---

(١) سورة الغاشية ٢١ — ٢٦

ومما يرشح هذه العلاقة ويعاضدها ، ويقويها ويساندها أن سورة المعارج نزلت بعد سورة الحاقة ، فترتيبها فى المصحف كترتيبها فى النزول .

ومثل سورة التوبة مع سورة الأنفال :

فسورة الأنفال تناولت قتال الكفار وترك مهادنتهم ، وسورة التوبة جاءت بعدها مكملة لمقصودها ومتممة لموضوعها وكأنهما سورة واحدة .

ومثلهما سورة الحجر مع سورة إبراهيم عليه السلام .

١٦ ـــ وقد تكون مناسبة السورة لسابقتها أنها تكون شارحة ومفصلة لها كسورة الشعراء مع سورة الفرقان :

فسورة الفرقان تحدثت فى صدرها عن موقف الكفار من سيدنا رسول الله ﷺ ومن دعوته ، وعن قصص الأنبياء على سبيل الإجمال فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا ، فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا ، وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما ، وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا ، وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا ﴾(١) .

وسورة الشعراء التى تليها بسطت ذلك وفصلت قصص بعض الأنبياء ، وبدأت بقصة موسى الكليم ، عليه أتم التسليم ، كما هو ترتيبها فى سورة الفرقان ومثلهما سورة القمر مع سورة النجم :

فإن سورة النجم تحدثت فى صدرها عن موقف الكفار من رسول الله ﷺ وعن أربع قصص على وجه الإجمال فى قوله تعالى : ﴿ وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى ، وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ، والمؤتفكة أهوى ، فغشاها ما غشى ﴾ (٢)

(١) سورة الفرقان ٣٥ ـــ ٣٩

(٢) سورة النجم ٥٠ ـــ ٥٤ .

وسورة القمر تناولت كل ذلك على سبيل التوضيح والتفصيل .

١٧ ــ وقد تكون علاقة السورة بسابقتها أنها تكون مفصلة وشارحة لشيء مجمل مذكور في سابقتها ، كسورة القصص مع سورة النمل :

ففي سورة النمل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون ﴾ [1] .

وفي سورة القصص تفصيل واسع لهذه الآية الكريمة وتبيين لها بدأ بذكر قصة موسى عليه السلام في قوله تبارك وتعالى : ﴿ نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ﴾ [2] ، وذكرت قصة موسى في هذه السورة باستفاضة وتوضيح لم يذكر في سورة أخرى ، وذلك منذ ولادته : والتقاط آل فرعون له : وإرضاعه ، وسبب ذهابه وفراره إلى أرض مدين ، وزواجه من ابنة الشيخ الكبير ، واختياره للرسالة : وعودته رسولا نبيا إلى فرعون وملائه ، وما دار من محاورات ومجادلات مع فرعون وأتباعه ، وأخيرا هلك فرعون كافرا ، وليس كما يزعم البعض من أنه مات مؤمنا في آخر لحظة من عمره أي وقت الغرق ، فهذا كلام باطل ، ورأى عاطل ، مخالف للحق ، مغاير للواقع والصدق ، لأن المعلوم من الأدلة أنه مات كافرا مشركا .

وذكرت فيها قصة قارون اللعين المتباهي المختال الفخور ، ولم تذكر في غيرها من سور القرآن ، وغير ذلك مما احتوته هذه السورة الكريمة ، وبعضه مما اختلفوا فيه .

ومثلهما سورة الرحمن مع سورة القمر :

فإن سورة القمر ذكرت نعيم المتقين في الجنة على وجه الإجمال .

وسورة الرحمن فصلت نعيمهم وبينته ، وذكرت أنواعا له ، ووضحت أنه

---

(١) سورة النمل ٧٦ (٢) سورة القصص ٣

غير مختص بالمتقين من الإنس ، وإنما يشمل المتقين من الجن كما يشمل المتقين من الإنس ، فالمتقون من الجن فى الجنة يتمتعون فيها كالمتقين من الإنس سواء بسواء ، والنعيم يعمهم ويغمرهم ، وفضل الله تعالى واسع وعميم ، وهو رحيم كريم : ﴿ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا ﴾ [1] ، ففى هذه السورة الكريمة تفصيل لبعض وختام ما فى سورة القمر .

ومثلهما سورة الحاقة مع سورة القلم ، وغيرهما من السور العظيمة .

هذه أوجه التناسب بين السور من حيث كنهها ونوعها ، وذكر نوع من المناسبة لاينفى ذكر نوع آخر أو أكثر كما يلاحظ فى بعض الأمثلة الآنفة ، وتعدد أوجه التناسب وتنوعها بين السور يؤيد تلاحم السور كلها وتماسكها ، وتعانقها وتشابكها كأن القرآن كله نزل جملة أو كأنه كلمة واحدة .

هذا ، والممعن النظر فى القرآن الكريم يرى أن المناسبات بين السور بالنظر إلى موطنها وموضعها متنوعة متعددة كذلك :

١ ـ فتارة يكون موطن المناسبة بين السورتين تعلق أول إحداهما بآخر الأخرى التى قبلها ، وهذا كثير بين سور القرآن وأمثلته موفورة ، كسورة الأنفال مع سورة الأعراف :

فالله عز وجل ختم سورة الأعراف بالأمر بالاستماع والإنصات إلى قراءة القرآن ، رجاء الرحمة والغفران ، وبالأمر بذكره تعالى فى سائر الحالات ، وبيان أن الملائكة تعبده وتسبحه وتطيعه دائما وتقدره حق قدره فى قوله : ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ، واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولاتكن من

(١) سورة الإسراء ٢٠ .

الغافلين ، إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾[1] .

واستهل سورة الأنفال بالأمر بتقواه تعالى وبيان مايحدثه سماع القرآن بإنصات ، وذكر الله فى كل الحالات عند المؤمنين من آثار حميدة ، وصفات مجيدة ، وخصال فريدة ، ووقوف الملائكة بجانب المؤمنين ومناصرتهم لهم بأمره تعالى وإذنه : ﴿ ....فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ، إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون .... ﴾[2] .

ومثلهما سورة الحج مع سورة الأنبياء :

فالله تعالى اختتم سورة الأنبياء بالحديث عن البعث وجزاء الكافرين والمؤمنين فى قوله : ﴿ واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين ... ﴾[3] .

وافتتح سورة الحج بنداء الناس قاطبة وأمرهم بتقواه والاستعداد لذلك اليوم العظيم العصيب الشديد الأهوال ، المتعدد الأحوال ، : ﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى .... ﴾ الآيات[4] .

ومثلهما سورة السجدة مع سورة لقمان (العبد الصالح على القول الراجح) :

---

(١) سورة الأعراف ٢٠٤ ــ ٢٠٦ .

(٢) سورة الأنفال ١ ــ ٣ وما بعدها من آيات .

(٣) سورة الأنبياء ٩٧ وما بعدها .　　(٤) سورة الحج ١ ــ ٢ وما بعدهما

فالله سبحانه وتعالى اختتم سورة لقمان بتأكيد اختصاصه بعلم مفاتح الغيب الخمسة المذكورة فى قوله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾[1] .

وذكر فى مطلع سورة السجدة عظمة القرآن الكريم باعتبار أنه كان غيبا مستورا وأنزله من عنده على رسوله بالحق ، واختصاصه سبحانه بالخلق والتدبير والتصرف فى ملكه كيفما يشاء فعلمه تعالى محيط ، وقدرته واسعة ، وتدبيره محكم ، وكل شىء فى الكون معلوم له علما أزليا وأبديا : ﴿ الٓمٓ ، تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين ، أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك ... ﴾ الآيات[2] .

ومثلهما سورة الصافات مع سورة يس :

فالله تبارك وتعالى ختم سورة يس باستبعاد الكافر للبعث وضربه لله المثل لذلك ، وبالرد على ذلك الكافر اللعين الجاحد ردا مقنعا مفحما ملقما الحجر فى فيه : ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ... ﴾ الآيات[3] .

وافتتح سورة الصافات ببيان وحدانيته وسعة قدرته وكمال إرادته والتدليل على ذلك ، وبالكلام عن البعث ، وجزاء الكافرين المنكرين له ، واطلاع بعض أهل الجنة على أهل النار ، ومخاطبتهم لهم تبكيتا وتقريعا وتعنيفا وتوبيخا .

---

(١) سورة لقمان الحكيم ٣٤ . (٢) سورة السجدة ١ ــ ٣ وما بعدها .
(٣) سورة يس ٧٧ إلى آخر السورة .

وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة الموفورة .

٢ ــ وتارة يكون موطن المناسبة بين السورتين تعلق أول الثانية بأول الأخرى التي قبلها ، كسورة الكهف مع سورة الإسراء :

فالله تعالى افتتح سورة الإسراء بتسبيحه وتنزيهه عن النقائص : وهو افتتاح عظيم لأن الإسراء لما كان من أكبر المعجزات وأعظمها لرسول الله ﷺ وأثار دهشة السامع وتعجبه وكذب به المشركون وتكذيبهم له تكذيب لله تعالى ولرسوله ﷺ جاءت كلمة ﴿ سبحان ﴾ المناسبة للمقام زالمنزهة لله عز وجل عما تفوه به المشركون من تكذيب واستهزاء وسخرية .

فذكرها من الأدلة على أن الإسراء كان بالروح والجسد معا ، وإلا لما أثار الدهشة وبعث فى النفس العجب : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾[١] .

وافتتح الله سبحانه سورة الكهف بحمده على إنزال الكتاب على عبده محمد ﷺ الذى بلغ فى عبوديته له درجة الكمال حتى صارت العبودية علما عليه بالغلبة ، وإنزال هذا الكتاب المبارك على عبده أجل النعم وأسماها ، وأفضلها وأعلاها : ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين ... ﴾[٢] .

فسورة الإسراء افتتحت بتسبيحه على معجزة الإسراء ، وسورة الكهف افتتحت بحمده على إنزال معجزته الغراء ، وهى معجزة دائمة خالدة ، وبين التسبيح والحمد تلازم ولذا قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾[٣] ، وقال : ﴿ ... وسبح بحمد ربك بالعشى

---

(١) سورة الإسراء ١ . (٢) سورة الكهف ١ ــ ٢ . (٣) سورة الحجر ٩٨ .

والإبكار ﴾[1] ، وقال : ﴿ فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾[2]، وغيرها من الآيات .

وقال ﷺ فى حديث طويل رواه مسلم بسنده عن أبى مالك الأشعرى رضى الله تعالى عنه : الطهور شطر الإيمان ..... وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ مابين السماوات والأرض .... »[3].

ووردت روايات مستفيضة فى كتب السنة يقترن فيها التسبيح بالتحميد منها ماهو مرفوع وما هو غير ذلك .

وهو ترتيب طبيعى ، وفيه ترق فى وصف الله تعالى والثناء عليه بما هو أهله ، لأن فى التسبيح والحمد نفى النقص عنه وإثبات الكمال له ، ولذا اختتمت سورة الإسراء بحمده كذلك فمهد مطلعها لمقطعها ، وتعانق أولها بآخرها ، وعاد عجزها إلى صدرها .

ومثلهما سورة المؤمنون مع سورة الحج :

ففى صدر سورة الحج حديث عن خلق الإنسان وتدليل على قدرة الله تبارك وتعالى — على البعث : ﴿ يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم .... ﴾ الآيات[4]

وفى صدر سورة المؤمنون حديث عن خلق الإنسان وبيان نعم الله عليه ، ثم موته ، ثم بعثه وإخراجه من قبره ، والتدليل على قدرته سبحانه على ذلك : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا

---

(١) سورة غافر ٥٥ .　　(٢) سورة ق ٣٩ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الطهارة باب فضل الوضوء جـ ١ ص ٥٠١ .　　(٤) سورة الحج ٥ وما بعدها .

المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر .... ﴾[1]

٣ — وتارة يكون موطن المناسبة بين السورتين تعلق أول إحداهما بالسورة الأخرى السابقة عليها ككل ، مثل سورة قريش مع سورة الفيل :

فإن سورة قريش افتتحها الله تعالى بحرف جار وهو اللام ، والجار والمجرور متعلق بفعل مفهوم من مضمون السورة السابقة سورة الفيل على بعض الآراء الإعرابية ، فالله تعالى فعل بأصحاب الفيل مافعل من هلاك لإيلاف قريش إيلافهم فى رحلتيهم فى الشتاء والصيف إلى اليمن وإلى الشام أو غيرهما ، للتجارة أو غيرها على اختلاف الآراء .

ولظهور الاتصال بين السورتين قال العلامة الأخفش : اتصالها بها من باب قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا ، وحزنا ﴾[2] ، أى كانت عاقبة إهلاك أصحاب الفيل إيلاف قريش ، كما أن عاقبة التقاط آل فرعون لموسى عليه السلام صيرورته عدوا لهم وحزنا ، فاللام الجارة للعاقبة .

ولقوة التعلق والتلاحم بين السورتين كانتا فى مصحف أبى بن كعب رضى الله تعالى عنه سورة واحدة كما قال الإمام جلال الدين السيوطى[3] .

ومثل أبى بن كعب رضى الله تعالى عنه لا يجهل أنهما سورتان مستقلتان ، ولعلهما وجدتا فى مصحفه الخاص به كذلك إن صحت الرواية التى استند إليها الجلال السيوطى فى قوله السابق لإبرازه رضى الله عنه قوة الاتصال بين السورتين وإظهار إحكام ودقة التناسب بينهما ، أو أن الكلام من باب التشبيه أى كانتا فى مصحفه كالسورة الواحدة كما أن سورة التوبة مع سورة

---

(١) سورة المؤمنون ١٢ — ١٤ ومابعدها . (٢) سورة القصص ٨ .

(٣) انظر البرهان للزركشى جـ ١ ص ٣٨ ، والإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ١٠٩ وتناسق الدرر للسيوطى وهو مطبوع ومحقق بعنوان : أسرار ترتيب القرآن ص ١٥٨

الأنفال كالسورة الواحدة إذ قصتها تشبه قصتها حتى ظن عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه — كما ورد — أنها منها .

٤ — وتارة يكون موطن المناسبة بين السورتين عاما ساريا فيهما معا بمعنى أن تكون السورة الثانية ككل متعلقة بالسورة السابقة عليها ككل ، ويكون بينهما أواصر القربى ووشائج الصلة ولحمة النسب .

ولهذا اللون من التناسب أمثلة كثيرة فى سور القرآن الكريم :

فسورة العنكبوت ، والروم ، ولقمان ، والسجدة : كلها تتناسب فى أنها سور مفتتحة بأحرف مقطعة واحدة وهى (الم) ، ونزلت كل منها بمكة المكرمة ، وتحدثت كل منها عن المبدأ والمعاد وغير ذلك مما تشترك فيه هذه السور الحكيمة .

بيد أن سورتى العنكبوت والروم لايوجد عقب افتتاحهما بالأحرف المقطعة حديث عن القرآن الكريم ، ومثلهما سورة مريم وسورة القلم ، وهو خلاف المعتاد إذ عودنا الله تعالى فى القرآن المجيد أن كل سورة افتتحها بأحرف الهجاء المقطعة وهى تسع وعشرون سورة أتلاها بالحديث عن القرآن العظيم إلا هذه السور الأربع سورة مريم والعنكبوت ، والروم ، والقلم ، : لسر يعلمه الله عز وجل فلا يعلم أسرار كتابه الحقيقية إلا هو جل وعلا .

ومثلهما سورة المعارج مع سورة الحاقة : فقد تناولت السورتان الحديث عن اليوم الآخر ومافيه بشىء من البسط والشرح .

ومثلهما سورتا الضحى والشرح : فقد اشتركتا فى الحديث عن سيدنا وحبيبنا رسول الله ﷺ ، وتقاسمتا بيان فضل الله تعالى عليه ورحمته به ونعمه عليه ومحبته العظمى له .

ومثلهما سورة البقرة مع سورة الفاتحة :

فإن سورة الفاتحة : تضمنت بإيجاز إثبات الإلهية والربوبية والنبوة والبعث

والتدين بدين الإسلام صراط الله المستقيم ، الذى له مافى السماوات ومافى الأرض ، والتبرأ من كل ما عداه وغايره .

وسورة البقرة تضمنت ذلك كله بالتوضيح والتفصيل ، والتبيين والتدليل ، فصارت مع سورة الفاتحة بمنزلة الدليل على الحكم ، وبمنزلة المفصل للمجمل.

وبهذه المناسبة نذكر أن الإمام جلال الدين السيوطى عليه رحمة الله تعالى ذكر في كتابه :

« تناسق الدرر » أنه قرر قاعدة مهمة مبنية على الدراسة والبحث والاستقراء والفحص والنظر والفكر ، مفاد هذه القاعدة وجماعها :

« أن سور القرآن بعضها يعد شرحا وتفصيلا للبعض الآخر ، بمعنى أن السورة تكون شارحة ومفصلة لمجمل ماذكر فى سابقتها ، وهذا فى غالب سور القرآن الكريم طويلها وقصيرها » .

وذكر الإمام السيوطى مثالا لهذه القاعدة ، فربط بين سورتى البقرة وآل عمران ليدلل على صحة رأية وصواب قاعدته فقال : ـــ أحسن الله إليه المآل ـــ :

وأقول قد ظهر لى بحمد الله وجوه من المناسبات :

أحدها مراعاة القاعدة التى قررتها من شرح كل سورة لإجمال مافى السورة قبلها[١]، وذلك هنا فى عدة مواضع :

منها : ماأشار إليه الإمام[٢] ، فإن أول البقرة افتتح بوصف الكتاب بأنه لا ريب

---

(١) لاتظن أخى القارىء أن هذه قاعدة مطردة تنطبق على كل سورة من سور القرآن الكريم كما توهم عبارته لأنه قرر من قبل فى ص ٧٨ من نفس الكتاب ـــ تناسق الدرر ـــ أنها قاعدة تتحقق فى غالب سور القرآن لا فى كل سورة ، وهذا هو الحق ، فما قاله هنا سهو منه ، عفا الله تعالى عنه وأدخله رحمته وأجزل مثوبته .

(٢) يعنى جلال الدين السيوطى فخر الدين الرازى ، وهو المراد بهذا الوصف =

فيه ، وقال فى آل عمران : ﴿ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ﴾ ، وذلك بسط وإطناب لنفى الريب عنه [١] .

ومنها : أنه ذكر فى البقرة إنزال الكتاب مجملا ، وقسمه هنا — أى فى آل عمران — إلى آيات محكمات ومتشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله [٢] .

ومنها : أنه قال فى البقرة : ﴿ وما أنزل من قبلك ﴾ [٣] ، وقال هنا : ﴿ وأنزل التوراة والإنجيل ، من قبل هدى للناس ﴾ [٤] مفصلا ، وصرح بذكر الإنجيل هنا لأن السورة خطاب للنصارى ، ولم يقع التصريح به فى سورة البقرة بطولها ، وإنما صرح فيها بذكر التوراة خاصة لأنها خطاب لليهود .

ومنها : أن ذكر القتال وقع فى سورة البقرة مجملا بقوله : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله ﴾ [٥] ، وقوله : ﴿ كتب عليكم القتال ﴾ [٦] ، وفصلت هنا قصة أحد بكمالها .

ومنها : أنه أوجز فى البقرة ذكر المقتولين فى سبيل الله بقوله : ﴿ أحياء ولكن لا تشعرون ﴾ [٧] ، وزاد هنا : ﴿ عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله

= الإمام — عند الإطلاق لدى المفسرين والعلماء الذين جاءوا بعده ، ومثلها كلمة « القاضى » : إذا ذكرت فى كتاب من كتب التفسير المتأخرة وأطلقت فإن المقصود بها القاضى ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوى المتوفى ٧٩١ هـ ، وتطلق هذه الكلمة فى شرح الإمام النووى لصحيح الإمام مسلم على القاضى عياض اليحصبى المتوفى ٥٤٤ هـ رحم الله الجميع وأسكنهم فسيح جنته وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خيرا .

(١) الآية فى سورة آل عمران ٣

(٢) انظر الآية فى سورة آل عمران ٧ .

(٣) جزء آية فى سورة البقرة ٤ .

(٤) سورة آل عمران ٣ — ٤ .

(٥) سورة البقرة ١٩٠ .

(٦) سورة البقرة ٢١٦ .

(٧) سورة البقرة ١٥٤ .

من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ﴾[1] ، وذلك فى إطناب عظيم .

ومنها : أنه قال فى البقرة : ﴿ والله يؤتى ملكه من يشاء ﴾[2] ، وقال هنا : ﴿ قـل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾ [3] ، فزاد إطنابا وتفصيلا .

ومنها : أنه حذر من الربا فى البقرة[4] ، ولم يزد على لفظ الربا إيجازا ، وزاد هنا قوله : ﴿ أضعافا مضاعفة ﴾ [5] ، وذلك بيان وبسط .

ومنها : أنه قال فى البقرة : ﴿ وأتموا الحج ﴾ [6] ، وذلك إنما يدل على الوجوب إجمالا ، وفصله هنا بقوله : ﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾ [7] ، وزاد بيان شرط الوجوب بقوله : ﴿ من استطاع إليه سبيلا ﴾ [8] ، ثم زاد تكفير من جحد وجوبه بقوله : ﴿ ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾[9] .

---

(١) سورة آل عمران ١٦٩ — ١٧٠ . (٢) سورة البقرة ٢٤٧ .

(٣) سورة آل عمران ٢٦ . (٤) سورة البقرة ٢٧٥ — ٢٨١ .

(٥) سورة آل عمران ١٣٠ — ومعلوم أن آية سورة آل عمران النازلة فى الربا نزلت قبل آيات سورة البقرة لأن الربا مر تحريمه فى الإسلام بمراحل ومراتب ، فلم يحرم طفرة وإنما على التدريج وهى سياسة حكيمة ، فالله عز وجل أنزل فى شأنه آيات متفرقات فى أزمنة مختلفة ، وتدرج بنفوس المسلمين وقتئذ إلى أن تهيأت لتقبل تحريمه ، وهو محرم فى سائر الشرائع السماوية لتنافيه مع كريم الأخلاق والفضائل وحسن المعاملة ، والآية التى حرمته تحريما نهائيا وأبديا آيات سورة البقرة لأنها آخر ما نزل فيه ، وهى صريحة فى تحريمه ، عافانا الله منه ووقانا شره وبلاياه .

(٦) سورة البقرة ١٩٦ . (٧) سورة آل عمران ٩٧ .

(٨—٩) سورة آل عمران ٩٧ .

ومنها : أنه قال فى البقرة فى أهل الكتاب : ﴿ ثم توليتم إلا قليلا منكم ﴾ [1] ، أجمل القليل وفصله هنا بقوله : ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ [2] ، الآيتين .

ومنها : أنه قال فى البقرة : ﴿ قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾ [3] ، فدل بها على تفضيل هذه الأمة على اليهود ، تعريضا لا تصريحا ، وكذلك قوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ [4] ، فى تفضيل هذه الأمة على سائر الأمم بلفظ فيه يسير إبهام .

وأتى فى هذه بصريح البيان فقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » [5] ، فقوله (كنتم) أصرح فى قدم ذلك من (جعلناكم) ، ثم زاد وجه الخيرية بقوله ﴿ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ [6] .

ومنها : أنه قال فى البقرة : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الحكام ﴾ [7] ، وبسط الوعيد هنا بقوله : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ﴾ [8] ، وصدره بقوله : ﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لايؤده إليك مادمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ﴾ [9] .

فهذه عدة مواضع وقعت فى البقرة مجملة ، وفى آل عمران تفصيلها .

الوجه الثانى : أن بين هذه السورة آل عمران وسورة البقرة اتحادا وتلاحما

---

(1) سورة البقرة ٨٣ .
(2) سورة آل عمران ١١٣ — ١١٤ .
(3) سورة البقرة ١٣٩ .
(4) سورة البقرة ١٤٣ .
(5)- (6) سورة آل عمران ١١٠ .
(7) سورة البقرة ١٨٨ .
(8) —(9) سورة آل عمران ٧٥ — ٧٧ .

متأكدا ، لما تقدم من أن البقرة بمنزلة إزالة الشبهة ، ولهذا تكرر هنا مايتعلق بالمقصود الذى هو بيان حقيقة الكتاب : من إنزال الكتاب ، وتصديقه للكتب قبله ، والهدى إلى الصراط المستقيم ، وتكررت هنا آية : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل ﴾[1] بكمالها ، ولذلك أيضا ذكر فى هذه ما هو تال لما ذكر فى تلك أو لازم فى تلك ، أو لازم له :

فذكر هناك خلق الناس ، وذكر هنا تصويرهم فى الأرحام ،[2] ، وذكر هناك مبدأ خلق آدم — وذكر هنا مبدأ خلق أولاده ،[3] وألطف من ذلك أنه : افتتح البقرة بقصة آدم — عليه السلام — حيث خلقه من غير أب ولا أم ، وذكر فى هذه نظيره فى الخلق من غير أب وهو عيسى عليه السلام ولذلك ضرب له المثل بآدم — عليه السلام — [4] ، واختصت البقرة بآدم لأنها أول السور ، وآدم أول فى الوجود وسابق ، ولأنها الأصل ، وهذه كالفرع والتتمة لها .. ، ولأنها خطاب لليهود الذين قالوا فى مريم ماقالوا ، وأنكروا وجود ولد بلا أب ، ففوتحوا بقصة آدم لتثبت فى أذهانهم ، فلا تأتى قصة عيسى إلا وقد ذكر عندهم مايشبهها من جنسها .

ولأن قصة عيسى قيست على قصة آدم فى قوله : ﴿ كمثل آدم ﴾[5] ، والمقيس عليه لابد وأن يكون معلوما لتتم الحجة بالقياس ، فكانت قصة آدم والسورة التى هى فيها جديرة بالتقدم .

ومن وجوه تلازم السورتين أنه قال فى البقرة فى صفة النار : ﴿ أعدت للكافرين ﴾[6] ، ولم يقل فى الجنة : أعدت للمتقين ، مع افتتاحها بذكر

(1) سورة البقرة ١٣٦ وسورة آل عمران ٨٤ . مع اختلاف بينهما فى بعض الألفاظ .
(2) انظر سورة البقرة ٢١ وسورة ال عمران ٦ .
(3) انظر سورة البقرة ٣٠ وما بعدها وسورة آل عمران ٦ .
(4) انظر سورة البقرة ٣٠ وما بعدها وسورة آل عمران ٥٩ .
(5) سورة آل عمران ٥٩ .
(6) سورة البقرة ٢٤ .

المتقين والكافرين معا ، وقال ذلك فى آخر آل عمران . فى قوله : ﴿ جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ﴾ [١] .

فكأن السورتين بمنزلة سورة واحدة ، وبذلك يعرف أن تقديم آل عمران على النساء أنسب من تقديم النساء عليها .

وأمر آخر استقرأته وهو : أنه إذا وردت سورتان بينهما تلازم واتحاد : فإن السورة الثانية تكون خاتمتها مناسبة لفاتحة الأولى للدلالة على الاتحاد ، وفى السورة المستقلة عما بعدها يكون آخر السورة نفسها مناسبا لأولها .

وآخر آل عمران مناسب لأول البقرة :

فإنها افتتحت بذكر المتقين ، وأنهم المفلحون ، وختمت آل عمران بقوله : ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ [٢] .

وافتتحت البقرة بقوله : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ [٣] ، وختمت آل عمران بقوله : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليك وما أنزل إليهم ﴾ [٤] .

فـلله الحمد على ماألهم .

وقد ورد أنه لما نزلت : ﴿من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ﴾[٥] ، قال اليهود : يامحمد افتقر ربك فسأل القرض عباده ، فنزل قوله : ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ [٦] ، فذلك أيضا من تلازم السورتين .

---

(١) سورة آل عمران ١٣٣ والصواب أنها فى وسط السورة تقريبا لا فى آخرها كما ذكر .

(٢) انظر سورة البقرة ٢ ــ ٥ وسورة آل عمران ٢٠٠ .

(٣) سورة البقرة ٤ .　　(٤) سورة آل عمران ١٩٩ .

(٥) سورة البقرة ٢٤٥ .　　(٦) سورة آل عمران ١٨١ .

ووقع فى البقرة حكاية عن إبراهيم — عليه السلام — : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ﴾ الآية [1] ، ونزل فى هذه : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ﴾ [2] ، وذلك أيضا من تلازم السورتين ١هـ [3].

وماقاله الإمام الجلال السيوطى فى الربط بين السورتين الكريمتين قول طيب ، وكلامه وجيه ونفيس ، وقاعدته صادقة ، يمكن تطبيقها ، وتظهر جلية فى غالب سور القرآن الحكيم كما قال .

ولا يمكن تطبيقها على كل سورة سورة ، فمثلا : لا يمكن تطبيقها على سورة النصر مع سورة الكافرون ، ولا على سورة الإخلاص مع سورة المسد ، : فهى قاعدة أغلبية وليست قاعدة مطردة كلية .

ومما يبين عظم التناسب بين السورتين المذكورتين اللتين تكلم عنهما الإمام السيوطى — البقرة وآل عمران — وقوة التلازم والتلاحم وشدة التماسك بينهما ورود أحاديث عن رسول الله ﷺ فى فضلهما معا ، واقترانهما فى بعض الأحاديث ، وتسميتهما فى بعضها باسم واحد ، كقوله ﷺ فيما أخرجه الإمام مسلم — واللفظ له — والإمام أحمد بسندهما عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه ، اقرءوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما : غمامتان ، أو كأنهما غيابتان ، أو كأنهما فرقان من طير صواف ، تحاجان عن أصحابهما ، اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا

---

(١) سورة البقرة ١٢٩ . (٢) سورة آل عمران ١٦٤ .

(٣) تناسق الدرر فى تناسب السور للسيوطى وهو محقق ومطبوع تحت عنوان : أسرار ترتيب القرآن ص ٨٣ — ٨٨ .

تستطيعها البطلة . قال معاوية — هو ابن سلام أحد رواه — بلغنى أن البطلة : السحرة »[1] .

وروى الإمام مسلم — واللفظ له — والترمذى وأحمد بأسانيدهم عن النواس بن سمعان الكلابى رضى الله تعالى عنه قال : سمعت النبى ﷺ يقول : يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقدمه سورة البقرة وآل عمران ، وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال مانسيتهن بعد ، قال : كأنهما غمامتان ، أو ظلتان سوداوان بينهما شرق ، أو كأنهما حزقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما [2] .

ووردت روايات أخرى كثيرة فى فضل هاتين السورتين معا منها ماهو مرفوع وما هو غير ذلك [3] .

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة جـ ٢ ص ٤٥٧ ، والمسند للإمام أحمد جـ ٥ ص ٢٤٩ . وسميت السورتان بالزهراوين لقوة نورهما وكبير هدايتهما وعظيم أجرهما ، ومعلوم أن أسماء السور توقيفية ، والغمامة والغيابة : كل شىء يظل الإنسان ويكون فوق رأسه كالسحابة ونحوها ، والمراد فى الحديث أن ثواب هاتين السورتين يأتى كغمامتين يستظل بهما صاحبهما يوم القيامة .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة جـ ٢ ص ٤٥٧ ، وسنن الترمذى أبواب فضائل القرآن باب ما جاء فى آل عمران جـ ٤ ص ٢٣٥ وقال عنه : حديث حسن غريب ، والمسند للإمام أحمد جـ ٤ ص ١٨٣ .
و « سمعان » بكسر السين وفتحها ، والفرقان بكسر الفاء وإسكان الراء ، والحزقان بكسر الحاء وإسكان الزاى ومعناهما واحد : أى قطيعان وجماعتان ، واحدهما : فرق وحزق ، ويقال : حزيقة أى جماعة . وشرق : بفتح الراء وإسكانها وهو الأشهر : أى ضياء ونور .

(٣) انظ سنن الدارمى كتاب فضائل القرآن باب فى فضل سورة البقرة وآل عمران =

هذه أوجه المناسبات بين السور بالنظر إلى مكمنها ومواطنها ، وقد يجتمع بين السورتين أكثر من وجه للمناسبة بينهما ، فذكر مناسبة لا يمنع ذكر مناسبة أخرى ، بل إن تعدد أوجه المناسبة يزيد من ظهور قوة التلاحم وشدة التماسك بين سور القرآن الحكيم .

وبما تقدم نكون قد أنهينا الحديث عن التناسب بين الآيات والسور ، واستبانت جليا عظمة القرآن الكريم فى تناسب أجزائه ، وتماسك لبناته ، وتلاحم سوره وآياته ، ووفرة معجزاته ، فهو معجزة كبرى تحتوى معجزات ، وآية عظمى تشتمل على آيات .

فسبحان من بالحق أنزله ، وبالحق نزل .

وأيم الله لو لم يكن من وجوه إعجازه الكثيرة الموفورة إلا وجه التناسب بين آياته وسوره لكفى فى الدلالة على أنه منزل من عند الله تعالى ، وعلى صدق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

= جـ ٢ ص ٤٥٠ — ٤٥٢ ، وتفسير الحافظ ابن كثير جـ ١ ص ٣٣ — ٣٤ ، وغيرهما .

المبحث الثانى

النسخ

أهمية هذا المبحث وفائدته

هذا المبحث من أهم المباحث القرآنية العظيمة الشأن الجليلة ، القدر ولذلك عنى به سلف هذه الأمة وخلفها ، وكثرت فيه المؤلفات قديمها وحديثها ، وتنوعت فى بعض مسائله الآراء : راجحها ومرجوحها ، صوابها وخطؤها .

ولدراسته والعلم به فوائد جمة منها أنه :

١ — يقفنا على المصدر الحقيقى للقرآن الكريم ، وهو الله عز وجل ، فهو سبحانه الناسخ فى الحقيقة والواقع ، يمحو ما يشاء من وحيه ويثبت ، ويبدل ويغير ما يريد ، لا دخل لأحد من الخلق أيا كان فى ذلك ، ولا معقب لحكمه .

فوجود النسخ دليل على أن القرآن الكريم من عند الله تعالى .

٢ — ويكشف النقاب عن سير التشريع الإسلامى ويبين مراعاته لظروف الناس وأحوالهم ، ونظرته إلى مصالحهم وقت نزول القرآن المجيد ، وتدرجه معهم وبهم إلى الكمال ، وبعده عن الطفرة ، ورحمة الله تعالى بالأمة ورأفته بها وشفقته عليها ، فهو سبحانه أرحم من الأم بولدها .

٣ — ويعين على فهم الإسلام فهما صحيحا ، وعلى الإهتداء إلى صحيح الأحكام ، والبعد عن الخلط وسوء التأويل وفساد الرأى .

فبعض النصوص يوجد بينها تعارض ولا يمكن الجمع بينها إلا بتكلف وتعسف ، وركوب متن التكلف والاعتساف فى الجمع بين النصين

المتعارضين أمر معيب ومسلك بغيض . ولذا يلجأ العلماء إلى القول بالنسخ لدفع التعارض وعدم إمكان الجمع على الوجه الحسن المقبول ، وذلك يكون بعد معرفة سابق النصوص من لاحقها ، ومتقدمها من متأخرها فى النزول .

وهذا المنحى يبرز بحق سلامة القرآن الكريم وتنزهه عن الاختلاف والتناقض ، والتضارب والتعارض .

٤ — ويسلح الدارسين والباحثين الإسلاميين بأسلحة قوية صارمة مسلولة تمكنهم من الدفاع عن عرين الإسلام ، ورد كيد أعدائه الذين يتربصون به الدوائر فى نحورهم وإعادة أسلحتهم التى يصوبونها تجاه الإسلام إلى صدورهم ، وجعل تدميرهم فى تدبيرهم ومكرهم .

فمما عابه الأعداء على الإسلام وجود النسخ فيه ، واتخذوا منه أسلحة مسمومة فتاكة وعزموا على النيل منه ، وجمعوا كيدهم وروجوا لما أرادوا ، حتى اغتر بآرائهم وسفسطانهم بعض البسطاء والسذج من المتعلمين والكتاب المسلمين ، انطلت عليهم أفكار أعداء الإسلام فى النسخ فأنكروا وقوعه مثلهم ، وساروا فى ركابهم وحطبوا فى حبلهم ، وتمحلوا لتبرير رأيهم التأويلات وتكلفوا لتصحيح وجهة نظرهم التوجيهات .

ولما كان هذا المبحث متعدد الفائدة متنوع العائدة ومن الأهمية بمكان كما رأيت أوجب الأئمة على كل من يشتغل بتفسير القرآن العظيم ، أو بالقضاء ، أو بالإفتاء ، أو بالفقه ، أو بالأصول ، أو بالوعظ والتذكير : معرفته والإلمام به .

ونهوا من لم يعلمه ويلم به عن التصدى لأى فن من الفنون السابقة واعتبروه ناقص العلم قليل البضاعة .

وقد ورد فى الأثر أن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما فسر الحكمة

فى قوله تعالى : ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾ : فسرها بمعرفة ناسخ القرآن ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله (١) .

وورد أن على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه دخل مسجد الجامع بالكوفة ففوجىء برجل يسمى بأبى يحى المعرقب عبد الرحمن بن دأب وكان يخوف الناس ويعظهم ويذكرهم ويخلط الأمر بالنهى والإباحة بالحظر ، فسأل على رضى الله تعالى عنه بعض الحاضرين عنه فقالوا : رجل يذكر الناس ، فقال : ليس هذا رجلا يذكر الناس ولكنه يقول أنا فلان بن فلان فاعرفونى ، فأرسل إليه على كرم الله وجهه فسأله : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا ، فأخذ على أذنه وفتلها وقال له : أخرج من مسجدنا ولا تذكر فيه .

وورد أنه مر على قاصّ فسأله : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا ، فقال له : « هلكت وأهلكت » ، أى عرضت نفسك وغيرك للهلاك لخلطك وسوء فهمك بسبب جهلك بالناسخ والمنسوخ .

وقد وقع نظير هذا لعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهم مع رجل آخر وقالا له مثل ما قال على رضى الله عنه لذلك

---

(١) الآية الكريمة من سورة البقرة ٢٦٩ — والأثر أخرجه ابن جرير الطبرى رحمه الله فى تفسيره جامع البيان جـ ٣ ص ٨٩ . وبدء ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير الحكمة بالنسخ وتقديمه له دليل على أهميته .
ولا ريب أن معنى الحكمة فى الآية الكريمة أوسع مما فسرها به ابن عباس رضى الله عنهما ، فتفسيره هذا كما ذكر من باب تفسير العام ببعض أفراده ، وتخصيص هذه الأفراد بالذكر لبيان مدى أهميتها ومسيس الحاجة إليها .

الرجل[1] .

ولأهمية هذا المبحث أفرده بالتأليف خلائق لا يحصون كما قال جلال الدين السيوطى — فى كتابه الإتقان — وغيره منهم :

قتادة بن دعامة السدوسى ت ١١٨هـ وهو من كبار التابعين الذين تلقوا العلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه بالكوفة فهو من مدرسة العراق ، وهو المراد والمقصود بالذكر عند الإطلاق ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ت ٢٢٤هـ ، وأبو داود السجستانى صاحب السنن ت ٢٧٥هـ ، وأبو عبد الله محمد بن حزم الأندلسى ت ٣٢٠هـ ، وأبو بكر بن الأنبارى ت ٣٢٨هـ ، وأبو جعفر النحاس ت ٣٣٨هـ ، وهبة الله بن سلامة الضرير ت ٤١٠هـ ، والقاضى أبو بكر ابن العربى ت ٥٤٣هـ ، وأبو الفرج بن الجوزى ت ٥٩٧هـ .

وغيرهم كثير وكثير ممن تقدمهم وعاصرهم وجاء بعدهم .

ومن المعاصرين الذين أفردوا هذا المبحث بالتصنيف الدكتور مصطفى زيد ، ألف كتابا كبيرا بعنوان : النسخ فى القرآن » .

وكما عنى العلماء بالتأليف فى ناسخ القرآن ومنسوخه عنوا بالتأليف فى ناسخ الآثار والروايات ومنسوخها ومن هؤلاء :

أبو حفص عمر بن أحمد بن عثمان ابن شاهين ت ٣٨٥هـ ألف كتابه : ناسخ الحديث ومنسوخه ، وأبو الفرج ابن الجوزى ت ٥٩٧هـ ألف كتابا أسماه : « المصفى بأكف أهل الرسوخ فى الناسخ والمنسوخ » وهو

---

(١) انظر الناسخ والمنسوخ لهبة الله بن سلامة ص ٤ ، والناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم لابن حزم الأندلسى ص ٥ ، ونواسخ القرآن لابن الجوزى ص ٢٩ — ٣٢ ، والبرهان للزركشى جـ ٢ ص ٢٩ ، والإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ٢٠ .

مطبوع ، وأبو بكر محمد بن موسى بن عثمان بن حازم الهمزانى ت ٥٨٤هـ ألف كتابا أسماه : « الاعتبار فى بيان الناسخ والمنسوخ من الآثار » ، رتبه صاحبه على وفق الأبواب الفقهية وصدره بمقدمة علمية مفيدة ، وهو مطبوع .

ولا يخلو كتاب فى تفسير القرآن المجيد أو فى علومه ، أو فى السنة المطهرة أو فى علومها ، من التعرض لهذا المبحث أو التطرق إليه .

تعريف النسخ

كلمة « النسخ » مشترك لفظى ، تطلق فى لسان العرب على :

١ ــ إزالة الشىء ومحوه سواء كانت الإزالة ببدل أو بغير بدل :

فمن الأول قولهم : « نسخت الشمس الظل » : أى أزالته وحلت محله .

ومن الثانى قولهم : « نسخت الريح أثر المشى » أى أزالته وعفته ولم تحل محله .

ومن منطلق هذا المعنى اللغوى أى النسخ بمعنى الإزالة والمحو قوله تعالى : ﴿ ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ﴾[٢] .

٢ــ تحويل الشىء ونقله بعينه من شىء إلى شىء آخر ، قال السجستانى : والنسخ أن تحول مافى الخلية من النحل والعسل إلى أخرى ، ومنه « تناسخ المواريث » بمعنى تحويل الميراث ونقله من شخص إلى شخص آخر .

٣ ــ نقل صورة الشىء مع بقاء أصله على حاله .

ومنه قولك : « نسخت الكتاب » : إذا نقلت مافيه حاكيا لفظه ورسمه مما

---

(١) سورة البقرة ١٠٦ . (٢) سورة الحج ٥٢ .

يترتب عليه تجديده وتكثير أمثاله ، ومن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ماكنتم تعملون ﴾[1] ، أى نستكتب الملائكة أعمالكم فنسجلها فى الصحف وتنقلها منها إلى غيرها .

وهذه الكلمة « نسخ » من باب : قطع [2].

أما فى الاصطلاح فللنسخ تعاريف مختلفة وهى متقاربة ، أوضحها أن نقول هو : « رفع الحكم الشرعى بخطاب شرعى آخر متراخ عنه لولا الثانى لكان الأول ثابتا باقيا » .

فقولنا : « رفع الحكم الشرعى » : معناه إزالته ومحوه بالكلية عن سائر المكلفين ، وقطع تعلقه بأفعالهم وتصرفاتهم .

والمقصود ب : « الحكم الشرعى » : خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين مطلقا .

ويدخل فى ساحة النسخ ورحابه : نسخ شريعة سابقة بشريعة لاحقة ، ونسخ بعض الأحكام فى الشريعة الواحدة ببعض آخر فيها .

ويخرج بكلمة : « رفع الحكم » : ماليس برفع كلى للحكم عن كافة المكلفين كتخصيص العام ، فهو لا يرفع الحكم ويزيله جملة وإنما يقصره على بعض أفراده دون البعض ويبقى العمل به .

ويخرج بكلمة : « الشرعى » : رفع ماليس بحكم شرعى كالإباحة الأصلية الثابتة بحكم العقل باعتبار أن الأصل فى الأشياء هو الإباحة ، فإن رفعها بالشرع ليس نسخا ، وما كان عليه حال العرب فى الجاهلية فإن رفعه بالشرع لايعد نسخا .

---

(١) سورة الجاثية ٢٩ .
(٢) انظر الصحاح للجوهرى جـ ١ ص ٤٣٣ ، والقاموس المحيط للفيروزابادى جـ ١ ص ٢٧١ ، والمصباح المنير للفيومى ص ٦٠٣ .

وقولنا : « بخطاب شرعى » يخرج رفع الحكم بسبب آخر كالنوم ، والموت ، والسفه ، والجنون ، والعجز ، فإن رفع الحكم عن المكلف بسبب من ذلك لا يعد نسخا .

كما أنه لا نسخ بالعقل ، أو الإجماع ، أو القياس ، على القول الصحيح والرأى الرجيح لأنه يشترط فى النسخ : أن يكون الناسخ خطابا شرعيا ، أى نصا من الكتاب أو السنة ، سواء أكانت السنة سنة قولية ، أم فعلية ، أم تقريرية أم وصفية .

وسواء أكانت نبوية أم قدسية ، لأنها كلها وحى من الله تبارك وتعالى ، كنسخ وجوب الوضوء مما مسته النار بأكله ﷺ من لحم الشاة وقيامه للصلاة دون أن يعيد الوضوء ، : كما روى الإمام البخارى ومسلم وأبو داود وابن ماجه والدارمى والترمذى وغيرهم من المحدثين والأئمة بأسانيدهم عن : زيد بن ثابت وأبى موسى الأشعرى وأبى هريرة وعائشة أم المؤمنين وأم حبيبة أم المؤمنين وعبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله وأبى رافع مولى رسول الله ﷺ وعمرو بن أمية الضمرى وغيرهم رضى الله تعالى عنهم : روايات مختلفة متعددة فى ذلك ، منها ما هو مرفوع وما هو موقوف[1] .

---

(١) انظر الروايات فى صحيح البخارى ، كتاب الوضوء باب من لم يتوضأ من لحم الشاة والسويق جـ ١ ص ٦٠ ، وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب الحيض باب الوضوء مما مست النار جـ ١ ص ٦٥٢ وما بعدها ، وسنن أبى داود كتاب الطهارة باب فى ترك الوضوء مما مست النار جـ ١ ص ٤٨ ــ ٥٠ ، وسنن ابن ماجة كتاب الطهارة وسننها باب الوضوء مما غيرت النار ، وباب الرخصة فى ذلك جـ ١ ص ١٦٣ ــ ١٦٥ ، وسنن الدارمى كتاب الصلاة والطهارة باب الوضوء مما مست النار ، وباب الرخصة فى ترك الوضوء جـ ١ ص ١٨٥ ، وسنن الترمذى أبواب الطهارة باب ما جاء فى الوضوء مما غيرت النار ، وباب ما جاء فى ترك الوضوء مما غيرت النار جـ ١ ص ٥٢ ــ ٥٤ ، وقد قال الإمام أبو عيسى الترمذى كلاما طيبا فى =

ففعله صلى الله تعالى عليه وسلم كقوله فى التشريع .

وقولنا : « متراخ عنه » : قيد لبيان الواقع وزيادة الإيضاح ، فإن الناسخ لابد أن يتأخر عن المنسوخ نزولا ، ويلزمه بالتالى تأخره عنه زمانا .

ونلاحظ أن العلاقة بين المعنى الاصطلاحى المذكور وبين المعنى اللغوى الأول والثانى واضحة بينة .

وهى بعيدة على المعنى اللغوى الثالث .

وقد يقول قائل : إن التعريف الاصطلاحى السابق غير جامع ولا شامل لأنه احتوى على نسخ الحكم دون التلاوة ، ولم يشمل نسخ التلاوة دون الحكم ، ولا نسخهما معا ؟؟ :

والجواب : أن هذا التعريف السابق هو المشهور والمتداول على ألسنة العلماء الأجلاء والمدون فى بطون الكتب .

وأن النسخ فى الحقيقة والواقع لا يتوجه إلا إلى الحكم ، وتقسيم العلماء للنسخ إلى : « نسخ تلاوة ، ونسخ حكم ، ونسخها معا » هو فى الحقيقة تقسيم صورى للإيضاح واستيعاب الصور ، فما سموه نسخ تلاوة لا يخرج عن كونه نسخ حكم لأن نسخ تلاوة الآية معناه فى الحقيقة والواقع نسخ حكم من أحكامها المتضمنة لها : كرفع الثواب على مجرد ترتيلها وقراءتها ، وصحة الصلاة والتعبد بها ، وتواترها ونحو ذلك من الأحكام المتعلقة بها [1] .

وتطلق كلمة « الناسخ » على : الله عز وجل ، وهو إطلاق حقيقى لأنه لا ناسخ إلا هو بدليل قوله عز من قائل : ﴿ مانَنسخ من آية أو ننسها

= هذا الباب فانظره فى ذلك الموطن ، والله وحده هو الهادى والموفق

(١) انظر مناهل العرفان فى علوم القرآن للشيخ الزرقانى جـ ٢ ص ٧٤ .

نأت بخير منها أو مثلها ﴾[1] ، وقوله جل وعلا : ﴿ وماأرسلنا من قبلك من رسول ولانبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته ﴾[2] .

وتطلق على : الحكم الرافع لحكم آخر كقولك : وجوب التوجه إلى الكعبة فى الصلاة نسخ وجوب التوجه إلى بيت المقدس ، ووجوب صوم شهر رمضان نسخ وجوب صوم يوم عاشوراء .

وتطلق على : الدليل المتضمن للحكم أى على النص الشرعى كقولك : هذه الآية نسخت تلك الآية ، أو آية المواريث نسخت آية الوصية للوالدين والأقربين .

وتطلق كلمة « المنسوخ » على الحكم الذى كان معمولا به سابقا .

كما تطلق على النص الشرعى الذى ارتفع حكمه .

---

(١) سورة البقرة ١٠٦ . (٢) سورة الحج ٥٢ .

أركان النسخ وشروطه

من خلال ماتقدم يتبين لنا أن للنسخ أركانا وأن له شروطا :

أما أركانه فهى أربعة :

أ ـــ الناسخ

وهو الله تعالى فى الحقيقة ، وقد يطلق هذا الركن على غيره مجازا كما سلف .

ب ـــ المنسوخ :

وهو الحكم الذى ارتفع وزال العمل به وانقطع تعلقه بأفعال المكلفين وتصرفاتهم .

جـ ـــ المنسوخ به :

وهو النص الشرعى الدال على رفع الحكم وانتهاء العمل به سواء أكان هذا النص قرآنا أم سنة كما علمت سابقا .

د ـــ المنسوخ عنه :

وهو المكلف الذى زال عنه التكليف بالحكم وانقطعت صلته به .

وأما شروطه التى لابد منها فى تحققه فهى :

١ ـــ أن يوجد تعارض حقيقى بين نصين بحيث لا يمكن الجمع بينهما جمعا وجيها مقبولا ويتعذر الترجيح .

وينبغى أن تعلم أن النصين إن تعارضا من وجه دون وجه فإننا نجمع بينهما ونعمل بهما معا إذ إعمالها معا أولى من إعمال أحدهما وإهمال الثانى ولا يعد هذا تعارضا حقيقيا .

وإن تعارضا من جميع الوجوه فإننا ننظر ونتأمل :

إن كان أحدهما قطعيا فى الدلالة وكان الآخر ظنيا ، أو كان أحدهما أقوى فى الثبوت من الآخر فإننا نعمل بالأقوى ونأخذ به ونرجحه على الآخر .

وإن تعارضا من جميع الوجوه وتساويا فى القوة والثبوت وعلمنا النص المتقدم منهما فِى النزول والمتأخر فإننا نلجأ إلى النسخ ونقول به .

وإن تعارضا من كافة الوجوه وتساويا فى القوة والثبوت ولم نعلم النص المتقدم من المتأخر — وهى حالة افتراضية وما أظن أن لها أمثلة — فإننا لا نصير إلى النسخ ولا نقول به لمجرد الاجتهاد وإنما يجب علينا أن نتوقف عنهما معا ، أو نتخير بينهما .

٢ — أن يكون المنسوخ حكما شرعيا أى ثبت بخطاب الشرع ونصه ، فلا نسخ فى الأحكام العقلية ، ولا فيما كان عليه أهل الجاهلية من أعمال خالفهم فيها الشرع كما مر .

٣ — أن يكون النص الدال على ارتفاع الحكم وإزالته خطابا شرعيا .

٤ — أن يكون النص الدال على ارتفاع الحكم وإزالته متأخرا عن المنسوخ فى النزول ، ويلزمه تأخره عنه فى الزمان .

٥ — أن لا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيدا بوقت معين ، أو مغيا بغاية ، فإن كان مقيدا بوقت معين أو مغيا بغاية فإن الحكم ينتهى بإنتهاء وقته أو غايته ، ولا يعد هذا من قبيل النسخ .

قال العلامة مكى بن أبى طالب حموش القيسى المتوفى ٤٣٧هـ :

ذكر جماعة أن ماورد من الخطاب مشعرا بالتوقيت والغاية مثل قوله تعالى في سورة البقرة : ....﴿ فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره ﴾[1] ، محكم غير منسوخ لأنه مؤجل بأجل ، والمؤجل بأجل لا نسخ فيه اهـ[2] .

وهناك شروط أخرى اختلف العلماء فى اشتراطها فى النسخ منها :

١ ـــ أن يكون الناسخ مماثلا للمنسوخ فى القوة ، أو أقوى منه ، ولا يجوز أن يكون الناسخ دونه لأن الضعيف لاينسخ القوى ولا يزيله .

٢ ـــ أن يكون ناسخ القرآن قرآنا ، وناسخ السنة سنة .

٣ ـــ أن يرد النص الشرعى الدال على بيان ارتفاع الحكم بعد تمكن المكلف من الفعل وامتثاله .

٤ ـــ أن يكون النسخ ببدل .

٥ ـــ أن يكون البدل خيرا من الحكم المنسوخ ، أو مساويا له ومتكافئا معه .

إلى غير ذلك من الشروط التى اشترطها العلماء ويوجد فيها اختلاف بينهم ، وقد ذكرنا أهمها .

ما يقع فيه النسخ

ويقع النسخ فى الأوامر والنواهى الصريحة ، وكذلك فى الجمل الخبرية التى تكون بمعنى الأمر أو النهى : أى الخبرية لفظا والإنشائية معنى إذ العبرة بالمعنى لا باللفظ ، كقوله تبارك وتعالى : .....﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ، الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله

(١) سورة البقرة ١٠٩ .   (٢) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ٢ ص ٢١ .

والله مع الصابرين ﴾[1] :

فإن هذا خبر فى اللفظ وإنشاء فى المعنى ، فهو فى قوة :

« ليقف الواحد من المسلمين للعشرة — على الأقل — من الكافرين وليصمد فى مواجهتهم » .

ثم قال لهم بعد ذلك تخفيفا ورحمة ورأفة وشفقة :

« ليقف الواحد من المسلمين لاثنين — على الأقل — من الكافرين وليثبت فى مواجهتهما وليصبر والله معه » .

وقوله تعالى : ﴿ الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك .... ﴾[2] :

فإن هذا خبر فى اللفظ وإنشاء فى المعنى — كما قيل — فهو فى قوة :

« لا تنكحوا — بفتح التاء — إلا مؤمنة عفيفة ، ولا تنكحوا — بضم التاء — إلا مؤمنا عفيفا . ويؤيده قراءة عمرو بن عبيد وغيره — وهى قراءة شاذة — : « الزانى لا ينكح » بالجزم على أن (لا) ناهية .

وليست جميع الأوامر والنواهى محلا للنسخ لأن هناك أوامر ونواهى لا نسخ فيها :

كالتى تتعلق بالاعتقادات الراجعة إلى ذات الله تبارك وتعالى ، وصفاته ، ورسله وكتبه واليوم الآخر .

والتى تتعلق بأصول العبادات والمعاملات[3] كالصلاة والزكاة والصيام والحج

---

(1) سورة الأنفال ٦٥ — ٦٦ . (2) سورة النور ٣ .

(3) الفرق بين أصول العبادات والمعاملات وبين فروعها : أن الفروع هى التفاصيل المتشعبة عنها المتعلقة بالهيئات والأشكال والأمكنة والأزمنة والعدد ، أو هى بعبارة أوجز وأجمع : كمياتها وكيفياتها .

أما أصولها فهى ذوات العبادات والمعاملات دون النظر إلى الكم والكيف ، انظر =

وإحلال البيع وتحريم الربا ونحوه .

والتى تتعلق بالآداب العامة والأخلاق الفاضلة والخصال الحميدة المجيدة كالحلم والصبر والصفح والكرم والعدل :

فإن هذه كلها حقائق صحيحة وأمور ثابتة وأسس ودعائم مستقرة اتفقت عليها عامة الرسالات السماوية ودعا إليها كافة الأنبياء والمرسلين ، ومصلحة البشرية فى بقائها واستمرارها ودوامها فى كل عهد وعصر ، ومن ثم فلا يدخلها التغيير ولا تقبل التبديل .

قال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ﴾[1] .

وقال جل وعلا : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[2] ، وقال عز وجل : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ... ﴾ إلى آخر الآيات الحاكية وصايا لقمان الحكيم العبد الصالح[3] .

وقال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾[4] ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم

= مناهل العرفان للشيخ الزرقانى جـ ٢ ص ١٠٨ .

(١) سورة الشورى ١٣ .

(٢) سورة الأنبياء ٢٥ .

(٣) سورة لقمان انظر الآية ١٣ وما بعدها .

(٤) سورة البقرة ١٨٣ .

الحساب ﴾[٥] ، وقال عز من قائل : ﴿ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾[١] .....

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة الحكيمة الدالة على ما سبق .

ولا يقع النسخ أيضا فى الأخبار الصريحة المحضة : أى الجمل الخبرية لفظا ومعنى لأن خبر الله تعالى ثابت على ما هو عليه ، والرجوع عن الخبر تكذيب له ، والله سبحانه منزه ومتعال عن ذلك .

ومن الأخبار الصريحة التى لا تقبل النسخ : الوعد والوعيد على الرأى السديد والقول الرشيد ، قال العلامة جلال الدين السيوطى : .... إذا عرفت ذلك عرفت فساد صنع من أدخل فى كتب النسخ كثيرا من آيات الأخبار ، والوعد والوعيد أهـ[٢] .

فتبين مما تقدم أن النسخ يقع فى الأوامر والنواهى الصريحة وغير الصريحة التى تكون فى الأحكام الفرعية العملية من عبادات ومعاملات .

---

(١) سورة ص ٢٦ . (٢) سورة آل عمران ١٤٦ .

(٣) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ٢ ص ٢١ ، وانظر نواسخ القرآن لابن الجوزى ص ٢٢ .

طرق معرفة النسخ

علمت فيما سبق أن القول بالنسخ لا يتأتى إلا إذا وجد نصان شرعيان ، وتعارضا تعارضا حقيقيا ، وتعذر الجمع بينهما على وجه حسن مقبول ، ولم يمكن الترجيح — والترجيح يكون فى السنة — ، وتساويا فى الثبوت ، وعرف المتقدم منهما فى النزول من المتأخر .

والذى يعين لنا النص المتقدم من النص المتأخر ويحدده أى المنسوخ من الناسخ هو أحد طرق أربعة :

الأول : أن يكون فى أحد النصين الشرعيين ما يدل على تعيين المتأخر منهما كقوله تعالى : ﴿ .... إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ، الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم ، أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله .... ﴾[2] .

فإن فى كل من الآيتين الأخريين مايدل على تأخر كل منهما فى النزول عن

(١) سورة الأنفال ٦٥ — ٦٦ (٢) سورة المجادلة ١٢ — ١٣ .

كل من الآيتين اللتين قبلهما وأن كلا منهما نسخت حكم التى قبلها وهو قوله تعالى فى الأولى : ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ﴾ .

وقوله تعالى فى الثانية : ﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم ﴾ .

الثانى : النقل الصريح الصحيح عن سيدنا رسول الله ﷺ كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم فيما رواه ابن ماجه والترمذى وأبو داود والحاكم وغيرهم بأسانيدهم عن عبد الله بن مسعود وبريدة بن الحصيب وأنس بن مالك رضى الله عنهم : كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تزهد فى الدنيا وتذكر الآخرة »(1) .

الثالث : أن يجمع من يعتد بإجماعهم من الأمة على تعيين النص المتقدم والنص المتأخر .

ومن المعلوم أن لا إجماع بدون مستند من الكتاب أو السنة ، وذلك كقتل شارب الخمر فى المرة الرابعة ، فإن هذا الحكم منسوخ بدليل الإجماع على عدم قتله :

قال جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه : إن النبى ﷺ ضرب من شرب الخمر فى المرة الرابعة وجلده ولم يقتله » .

وذكر قبيصة بن ذؤيب رضى الله عنه نحوه وقال : فرفع القتل وكانت رخصة » .

---

(1) انظر سنن ابن ماجه كتاب الجنائز باب ما جاء فى زيارة القبور ص ٥٠١ ، وسنن الترمذى أبواب الجنائز باب ما جاء فى الرخصة فى زيارة القبور جـ ٢ ص ٢٥٩ وقال الترمذى : حديث بريدة حسن صحيح ، وسنن أبى داود كتاب الجنائز باب فى زيارة القبور جـ ٣ ص ٢١٨ ، وانظر المستدرك للحاكم ، والجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٨١

وقال الإمام النووى فى شرحه لصحيح مسلم رحمهما الله تعالى :

قد أجمع المسلمون على تحريم شرب الخمر ، وأجمعوا على وجوب الحد على شاربها سواء شرب قليلا أو كثيرا ، وأجمعوا على أنه لا يقتل بشربها وإن تكرر ذلك منه ، هكذا حكى الإجماع فيه الترمذى وخلائق .

وحكى القاضى عياض رحمه الله تعالى عن طائفة شاذة أنهم قالوا « يقتل بعد جلده أربع مرات ، للحديث الوارد فى ذلك » .

وهذا القول باطل مخالف لإجماع الصحابة — رضى الله عنهم — فمن بعدهم ، على أنه لا يقتل وإن تكرر منه أكثر من أربع مرات ، وهذا الحديث — أى الذى استندت إليه الطائفة الشاذة — منسوخ ، قال جماعة : دل الإجماع على نسخه ، وقال بعضهم : نسخه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : لايحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة أهـ(١) .

والروايات الواردة الثابتة فى حد شارب الخمر كثيرة مستفيضة رواها الأئمة : البخارى ومسلم وابن ماجه وأبو داود والدارمى والترمذى وغيرهم بأسانيدهم عن معاوية بن أبى سفيان وأنس بن مالك وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وأبى هريرة وغيرهم رضى الله تعالى عنهم أجمعين(٢) .

---

(١) انظر الحديث المذكور فى صحيح البخارى كتاب الديات باب قول الله تعالى : ﴿ أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف ﴾ جـ ٩ ص ٦ ، وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب القسامة باب ما يباح به دم المسلم جـ ٤ ص ٢٤٣ ، وسنن الترمذى أبواب الديات باب ماجاء لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث جـ ٢ ص ٤٢٩ ، وسنن ابن ماجة كتاب الحدود باب لا يحل دم امرىء مسلم إلا فى ثلاث ص ٨٤٧ ، وسنن الدارمى كتاب الحدود باب ما يحل به دم المسلم جـ ٢ ص ١٧١ — ١٧٢ ، وهو مروى عن ابن عباس وابن مسعود وعائشة رضى الله عنهم .

(٢) انظر صحيح البخارى كتاب الحدود باب ما جاء فى ضرب شارب الخمر ، وما =

وينبغى أن تعلم أن الإجماع لا يكون ناسخا ولا منسوخا على القول الصحيح ، لأن النسخ لابد أن يكون يوحى وفى حياته صلى الله تعالى عليه وسلم ، والإجماع ــ ومثله القياس ــ دليلان شرعيان ظهرا بعد انقطاع الوحى وانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، فهما متأخران فى الزمن وفى ترتيب الأدلة الشرعية ، خلافا لبعض المعتزلة الذين أجازوا النسخ بالإجماع .

أما قول العلماء : « هذا الحكم منسوخ إجماعا » : فمرادهم أن الإجماع انعقد على أنه منسوخ بدليل آخر ، لا أن الإجماع هو الذى نسخه .

الرابع : أن يرد عن أحد الصحابة بالسند الصحيح مايبين النص المتقدم ويميزه من المتأخر ، أو مايفيد أن قصده من عبارته النسخ بالمعنى الاصطلاحى ، كقول الصحابى : نزلت هذه الآية بعد تلك الآية ، أو : نزلت هذه الآية قبل تلك الآية ، أو يقول : نزلت هذه الآية عام كذا ــ وكان معروفا أن الآية الأخرى المعارضة نزلت قبلها أو نزلت بعدها .

ومن هذا قول عائشة رضى الله تعالى عنها : « كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ، ثم نسخن . بخمس معلومات ، فتوفى رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن »[1] .

= بعده جـ ٨ ص ١٩٦ ــ ١٩٧ ، وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب الحدود باب حد الخمر جـ ٤ ص ٢٩١ ، وسنن ابن ماجه كتاب الحدود باب حد السكران وباب من شرب الخمر مرارا ص ٨٥٨ ــ ٨٥٩ ، وسنن أبى داود كتاب الحدود باب الحد فى الخمر وباب إذا تتابع فى شرب الخمر جـ ٤ ص ١٦٢ ــ ١٦٧ ، وسنن الدارمى كتاب الحدود باب فى حد الخمر وباب فى شارب الخمر إذا أوتى به الرابعة جـ ٢ ص ١٧٥ ــ ١٧٦ ، وسنن الترمذى أبواب الحدود باب ما جاء من شرب الخمر فاجلدوه فإن عاد فى الرابعة فاقتلوه جـ ٢ ص ٤٤٩ ــ ٤٥٠ ، وقال الإمام الترمذى فى هذه المسألة قولا طيبا فانظره .

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الرضاع ، حكم المصة والمصتين =

وقول أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه فى قصة أصحاب بئر معونة رضى الله عنهم أجمعين : « ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه »[1] .

= جـ ٣ ص ٦٣١ ، وسنن الترمذى كتاب الرضاع باب ما جاء لا تحرم المصة ولا المصتان جـ ٢ ص ٤٠٩ ، وسنن أبى داود كتاب النكاح باب هل يحرم مادون خمس رضعات جـ ٢ ص ٢٢٤ ، وسنن الدارمى كتاب النكاح باب كم رضعة تحرم جـ ٢ ص ١٥٧ ، وسنن النسائى كتاب النكاح ، القدر الذى يحرم من الرضاعة جـ ٦ ص ١٠٠ ، وغير ذلك من كتب السنة .

ومراد عائشة رضى الله تعالى عنها بقولها : « فتوفى رسول الله ﷺ وهن مما يقرأ من القرآن » : الإعلام بأن هنا نسخ تلاوة ، وأن هذا النسخ تأخر إلى قبيل وفاة الرسول ﷺ ، وأن من علم بالنسخ من الصحابة ترك القراءة بذلك القرآن المنسوخ ، ومن لم يعلم منهم بالنسخ ظل يقرأ به إلى أن علم بنسخه فترك القراءة به ، قال الإمام النووى فى شرحه لصحيح مسلم فى نفس الموطن : معناه أن النسخ بخمس رضعات تأخر إنزاله جدا حتى إنه ﷺ توفى وبعض الناس يقرأ خمس رضعات ويجعلها قرآنا متلوا لكونه لم يبلغه النسخ لقرب عهده ، فلما بلغهم النسخ بعد ذلك رجعوا عن ذلك وأجمعوا على أن هذا لا يتلى أهـ ، وانظر حاشية الإمام السندى على سنن النسائى فى نفس الموطن السابق ، وكتابنا : « الدر النظيم فى مباحث من علوم القرآن الكريم ص ١٦٨ — ١٧١ .

(١) انظر صحيح البخارى كتاب الصلاة باب القنوت قبل الركوع وبعده جـ ٢ ص ٣٢ ، وكتاب المغازى باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة جـ ٥ ص ١٣٢ ، وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب المساجد باب استحباب القنوت فى جميع الصلاة جـ ٢ ص ٣١٩ ، وأخرجه أبو داود وابن ماجه فى كتاب الصلاة .
وأصحاب بئر معونة هم : جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ممن اشتهروا بقراءة القرآن وإقرائه وعرفوا بالقراء ، وكان عددهم سبعين رجلا وقيل أربعين والأول أرجح ، =

وقول جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما : « كان آخر الأمرين عن رسول الله ﷺ : ترك الوضوء مما مسته النار »[1] .

وقول النبى ﷺ فيما رواه عنه رافع بن خديج وغيره من الصحابة رضى الله تعالى عنهم : « أفطر الحاجم والمحجوم »[2] .

فإن هذا الحديث منسوخ لأن ذلك كان فى فتح مكة سنة ثمان من الهجرة ، وقاله ﷺ أيضا لرجل كان يحتجم عند البقيع .

وروى ناسخه أنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، وعبد الله بن بحينة ، وعبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهم وهو : أن النبى ﷺ احتجم وهو

= أمرهم رسول الله ﷺ بالذهاب إلى أهل نجد لدعوتهم إلى الإسلام وتعريفهم به وتعليمهم شرع الله تعالى ، فامتثلوا وساروا إلى أن نزلوا ببئر معونة — إسم مكان من بلاد هذيل — فاستعدى عليهم عامر بن الطفيل قبائل وأحياء من بنى سليم وهم : رعل بكسر الراء وسكون العين ، وذكوان بفتح الذال ، وعصية بضم العين وفتح الصاد وتشديد الياء ، فتجمعوا عليهم وأحدقوا بهم وقاتلوهم فصمدوا فى مواجهتهم حتى قتلوا عن آخرهم رضوان الله عليهم أجمعين ، فعرفوا بأصحاب بئر معونة ، أو بسرية القراء ، وكانت فى شهر صفر سنة أربع من الهجرة .

(١) سبق تخريج الروايات فى هذه المسألة ، وانظر الرواية المذكورة فى سنن أبى داود كتاب الطهارة باب فى ترك الوضوء مما مست النار جـ ١ ص ٤٩ .

(٢) انظر سنن أبى داود كتاب الصوم باب فى الصائم يحتجم جـ ٢ ص ٣٠٨ — ٣٠٩ ، وسنن الدارمى كتاب الصوم باب الحجامة تفطر الصائم جـ ٢ ص ١٤ — ١٥ ، وروى هذا الحديث أيضا عن رسول الله ﷺ شداد بن أوس ، وسعد بن أبى وقاص ، وأسامة بن زيد ، وأبو موسى الأشعرى ، وأبو هريرة ، وعلى بن أبى طالب ، ومعقل بن يسار ، وعائشة ، وثوبان مولى رسول الله ﷺ ، وغيرهم من الصحابة ، رضى الله عنهم .

محرم صائم »[1]

وقد صحب ابن عباس وغيره من الصحابة رضى الله عنهم النبى ﷺ محرمين فى حجة الوداع سنة عشر من الهجرة .

ففعله ﷺ نسخ قوله .

قال العلامة ابن الحصار : على بن محمد بن محمد بن ابراهيم الخزرجى الأشبيلى المتوفى ٦١١هـ : « إنما يرجع فى النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله ﷺ ، أو عن صحابى يقول : آية كذا نسخت كذا ، قال : وقد يحكم به عند وجود التعارض المقطوع به مع علم التاريخ ليعرف المتقدم والمتأخر .... ا هـ[2] .

هذا ، ولا اعتماد فى النسخ على :

---

(١) انظر صحيح البخارى كتاب الصوم باب الحجامة والقىء للصائم جـ ٣ ص ٤٢ — ٤٣ ، وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب الحج باب جواز الحجامة للمحرم جـ ٣ ص ٢٩١ ، وسنن أبى داود كتاب المناسك (الحج) باب المحرم يحتجم جـ ٢ ص ١٦٧ ، وسنن ابن ماجه كتاب الصيام باب ما جاء فى الحجامة للصائم جـ ١ ص ٥٣٧ ، وسنن النسائى كتاب مناسك الحج ، الحجامة للمحرم جـ ٥ ص ١٩٣ — ١٩٤ ، وسنن الدارمى كتاب المناسك باب الحجامة للمحرم جـ ٢ ص ٣٧ ، وسنن الترمذى أبواب الصوم باب ما جاء فى كراهية الحجامة للصائم ، وباب ما جاء من الرخصة فى ذلك جـ ٢ ص ١٣٦ — ١٣٨ .
وقال أبو عيسى الترمذى رحمه الله رحمة واسعة قولا طيبا وجيها فى هذه المسألة فانظره فى الموطن السابق وعض عليه بالنواجذ وتنبه لما يقول .
وإنى أرى أن كتابه هو أحسن السنن الأربع وأدقها : وهى : سنن الترمذى ، وسنن أبى داود ، وسنن ابن ماجه ، وسنن النسائى : رحم الله الجميع وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خيرا .
(٢) انظر الإتقان فى علوم القرآن للحافظ جلال الدين السيوطى جـ ٢ ص ٢٤ .

١ ـــ مجرد قول الصحابى : « هذا النص ناسخ أو ذاك منسوخ » :
لجواز أن يكون الصحابى قال هذا برأيه واجتهاده وأخطأ فيه ، أو لجواز أنه لم يقصد بعبارته النسخ بمعناه الاصطلاحى المعروف ، وإنما قصد ما هو أعم منه كالتخصيص والبيان والنسء والاستثناء ونحو ذلك .

٢ ـــ قول المفسر بلا دليل : « هذا النص ناسخ أو منسوخ » :
إذ العبرة فى النسخ بالدليل ، ومجرد قوله لا يعد دليلا .

٣ ـــ اجتهاد المجتهد بدون سند : لأن اجتهاده بدون سند لا يعتبر حجة ، ولا يعطى رأيه قوة ، ولا إلزاما لغيره بما قال .

٤ ـــ التعارض الظاهرى ، إذ الجمع بين النصين المتعارضين تعارضا ظاهرا ممكن وميسر ، ولا مفر منه ولا معدى عنه إذ إعمال النصين معا أولى وأجدى وأهدى سبيلا .

والشرط فى تحقق النسخ أن يكون التعارض بين النصين حقيقيا أى يتعذر معه الجمع الحسن أو الترجيح المقبول .

٥ ـــ دليل عقلى أو قياسى ، لأن الحكم بالنسخ يقتضى رفع حكم وإثبات حكم آخر تقرر فى عهد الرسول ﷺ وفى حياته ، ولا يكون هذا بالعقل ولا بالقياس ، وإنما يكون بنص شرعى آت عن طريق الوحى .

قال العلامة ابن حزم :
لايحل لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقول فى شىء من القرآن والسنة : (هذا منسوخ) إلا بيقين ، لأننا مأمورون على سبيل الفرض والوجوب باتباع ماأنزله الله فى القرآن الكريم وما قاله الرسول ﷺ ، والعمل به .

فمن قال بنسخ شىء بلا يقين فقد ارتكب معصية وسلك مسلكا عمل فيه على إبطال الشريعة أهـ بتصرف[1] .

(١) انظر الإحكام لابن حزم جـ ٤ ص ٨٣ ـــ ٨٤ .

الحكمة من النسخ

لتعلم ــ أيها القارىء الكريم ــ أن النسخ قديم قدم الكتب السماوية ، وقد وقع بين الشرائع المتعددة ، كما وقع بين نصوص التشريع الواحد ، ولوقوعه حكم كثيرة نجملها فيما يأتى :

أ ــ مراعاة أحوال العباد والنظر إلى مصالحهم ، وتربيتهم على أطوار تناسب ظروف معيشتهم وأزمانهم المختلفة وفق ماتراه الحكمة الإلهية والمشيئة الربانية ، كما يفعل الطبيب مع المريض ، وهذه التربية تربية عملية واقعية متحركة .

ب ــ ابتلاء المكلفين واختبارهم ليتميز المطبع لتعاليم الله المصدق بها من العاصى المكذب ، أو ضعيف الإيمان الذى يعبد الله على حرف : « .... ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة وإن الله لسميع عليم »[1] .

ويشير إلى هذه الحكمة والفائدة قوله تعالى : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ــ والله أعلم بما ينزل ــ قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون ﴾[2] .

جـ ــ التدرج بالتشريع ومعالجة النفوس وتقويمها على مهل وتريث ، وتعهدها بما يمحصها ويرقيها شيئا فشيئا ويسمو بها إلى مرتبة الكمال حسب تطور الدعوة وأحوال الناس .

د ــ التذكير بنعمة الله تعالى على البشرية ورأفته ورحمته بها بالتيسير عليها ورفع الإصر والمشقة والعنت عنها .

---

(١) سورة الأنفال ٤٢ . (٢) سورة النحل ١٠١ .

وهذا يقتضى الازدياد من حمد الله وشكره بما هو أهله ، والإعتراف بفضله ونعمائه ، وكرمه وآلائه ، فيعظم الأجر ويجزل الثواب وتزداد النعم .

٥ ــ تذكيرنا بجيل التنزيل وبيئتهم الزمانية والمكانية ، وهم الصحابة الكرام رضى الله تعالى عنهم ، الذين استلهم الإسلام من عهد الجهل وبؤرة الانحرافات ، وانتشلهم من الظلمات والضلالات ، إلى عهد العلم والنور والتطهر والإشراقات ، وانصاعوا لشرع الله ، وأخبتوا لتعاليمه ، حتى صرنا نقتدى بهم ونتأسى بسيرتهم ، وصاروا نماذج فريدة ، وأمثلة حية مجيدة ، ماثلة فى عقول المسلمين وفى قلوبهم باقية إلى يوم الدين .

فتاريخهم ــ رضى الله تعالى عنهم وحشرنا فى زمرتهم ــ واقع صادق ، وعهدهم مثال بالحق ناطق ، يحياه المسلمون فى كل عصر ومصر ، وليس مجرد تاريخ يقرءونه أو روايات تحكى وحسب .

وهناك حكم أخرى فى النسخ ستستقبلك إن شاء الله تعالى أثناء الحديث عن أنواع النسخ .

الفرق بين النسخ وغيره

مما يشتبه به

أ ـــ الفرق بين النسخ والبيان

التبس النسخ بالبيان على بعض العلماء حتى قال : « إن النسخ هو تأخير البيان » .

وهذا خلاف الصواب لأن النسخ يفترق عن البيان بثلاثة أوجه :

الوجه الأول : أن البيان أعم وأشمل وأوسع نطاقا من النسخ ، فبينهما عموم وخصوص مطلق ، فكل نسخ يعد بيانا ، وليس كل بيان يعد نسخا ، ولذا عرف بعض العلماء النسخ بأنه :

« بيان انتهاء الحكم الشرعى الذى تقرر فى أذهاننا وفى نفوسنا استمراره بطريق التراخى » .

الوجه الثانى : أن البيان يقع فى الأخبار وفى الأوامر أى فى الجمل الخبرية والإنشائية .

أما النسخ فيقع فى الجمل الإنشائية لفظا ومعنى ، وفى الجمل الإنشائية معنى : أى هو خاص بالجمل الإنشائية .

الوجه الثالث : أن البيان يقع مفصولا عن المبين ، ويقع موصولا به .

أما النسخ فبخلاف ذلك إذ الناسخ يتأخر عن المنسوخ فى النزول ولا يكون متصلا به ، ويلزمه بالتالى تأخره عنه فى الزمان .

ولا يخل بهذا اتصاله بالمنسوخ فى تلاوة بعض الآيات الشريفة وترتبها لأن العبرة فى النسخ بترتيبها فى النزول لا بترتيبها فى المصحف الشريف .

وبهذا يتضح أن البيان أوسع نطاقا من النسخ على الرغم من الفرق بينها .

ب ــ الفرق بين النسخ والتخصيص والاستثناء

اشتبه على بعض العلماء النسخ والتخصيص والاستثناء ، وغاب عنهم الفرق بينها حتى ذهبوا إلى أنها شيء واحد .

وأوقع هذا الاشتباه بعضهم فى إنكار النسخ ، وبعضهم فى الإكثار من صور النسخ والإفراط فى ذكر أمثلته ، ومعظمها على التحقيق ليس من النسخ فى شيء .

والحق أن الصواب جانب الطرفين وخالف الفريقين :

لأن النسخ حقيقة واقعة ، وهناك فرق بينه وبين التخصيص والاستثناء ، ولنبدأ ببيان الفرق بين النسخ والتخصيص .

الفرق الأول : أن الحكم المنسوخ كان مرادا فى وقت سابق ، وكان العمل به مطلوبا .

بخلاف حكم ماخرج بالتخصيص فلم يكن مرادا من العام أصلا ومن بادىء الأمر .

الفرق الثانى : أن النسخ يقع ولو كان المأمور بالحكم شخصا واحدا ، كنسخ بعض الأحكام الخاصة به ﷺ كما فى سورة الأحزاب .

أما التخصيص فلا يقع إذا كان المأمور بالحكم شخصا واحدا لأنه واحد ولايعقل إخراج شيء من الواحد .

الفرق الثالث : أن الحكم المنسوخ لايعمل به بعد نسخه .

أما العام بعد تخصيصه فغير ذلك ، إذ الحكم فيه يبقى ويعمل به فيما بقى

من أفراده ، ولا يبطل الاحتجاج بالعام بعد تخصيصه ، غاية الأمر أن العام بعد تخصيصه يكون مجازا لأن مدلوله حينئذ بعض أفراده مع أن لفظه موضوع لكل الأفراد ، والقرينة هى المخصص .

الفرق الرابع : أن النسخ يكون بخطاب شرعى فقط على الرأى السديد والقول الرشيد .

أما التخصيص فيكون بالخطاب الشرعى وبالدليل العقلى وبالقياس وبالإجماع .

الفرق الخامس : أن الناسخ يكون متراخيا عن المنسوخ أى تأخر نزوله عنه . أما التخصيص فيجوز أن يكون بخطاب شرعى مقارن .

الفرق السادس : أن النسخ يكون فى الجمل الإنشائية فقط .

أما التخصيص فإنه يجوز أن يكون فى الجمل الخبرية .

فنلاحظ مما تقدم أن التخصيص أعم وأوسع دائرة من النسخ .

أما الفرق بين النسخ والاستثناء فهو بين واضح :

لأن النسخ كما علمناه : رفع حكم شرعى بخطاب شرعى آخر متراخ عنه لولا الثانى لظل الأول ثابتا والعمل به باقيا » .

أما الاستثناء فهو ماجاء بلفظ عام واستثنى منه بعض مايقع عليه ذلك اللفظ ، فالجملة المستثنى منها بعضها لم يرد الله تعالى إلزامنا إياها بعمومها ، ولا أراد إلا ما بقى منها بعد الاستثناء (١) .

فالاستثناء بعبارة أوجز : إخراج بعض ماشمله اللفظ من الحكم وكان داخلا فيه . والفرق بين الاستثناء والتخصيص :

أن المستثنى يأتى بعد المستثنى منه ، وليس كذلك التخصيص .

(١) انظر نواسخ القرآن للعلامة أبى الفرج ابن الجوزى ص ٢٢ .

جـ ـــ الفرق بين النسخ والنسء

يلوح الفرق بين النسخ والنسء بأدنى تأمل :

فالنسخ : رفع حكم شرعى بخطاب شرعى متراخ عنه ، أى أن الحكم الأول زال وانمحى ولا يعمل به ، وصار العمل بالحكم الشرعى الثانى أى بالناسخ ، ومن يعمل بالحكم الأول المنسوخ بعد علمه به يكون مخطئا ولا يكون عاملا بحكم شرعى .

أما النسء فهو : إيقاف حكم شرعى وإرجاؤه بخطاب شرعى آخر لزوال علته وسببه ، أى أن الحكم الشرعى الأول مرتبط ومنوط بعلة ، إن وجدت العلة طبق الحكم وعمل به ، وإن زالت العلة أوقف الحكم ولا يعمل به ، فالحكم يدور مع علته وسببه وجودا وعدما .

ومن أمثلة النسء : آية السيف وهى قوله تعالى : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴾[١] .

والآية التى تأمر بمجاهدة الكفار والمنافقين والغلظة عليهم[٢] .

بعد الآيات التى تأمر بالصبر على أذى الأعداء وتأمر بالعفو عنهم والصفح ... فليست آية السيف ناسخة ـــ كما ادعى بعض العلماء ـــ لآيات الصبر والعفو والصفح والمسالمة حتى قيل إنها نسخت ثلاثة عشر

(١) سورة التوبة أو براءة ٥ . (٢) انظر الآية فى سورة التحريم ٩ .

ومائة موضع فى القرآن الكريم[1] : لأن المسلمين كانوا مأمورين بالعفو والصفح والمسالمة حين كانوا فى حالة ضعف وقلة ويؤذيهم أعداؤهم ويضطهدونهم ، ثم أمرهم الله تعالى بالقتال ومجاهدة الكفار والغلظة عليهم بعد أن صاروا ذوى قوة وشوكة وبأس وعزة حين يتعرض لهم ولدينهم أعداؤهم ، ولا يزال الحكمان باقيين : فهم مأمورون بالعفو والصفح والصبر والمسالمة ــ إذا أوذوا ــ فى حالة ضعفهم ووهنهم ، ومأمورون بالقتال ومجاهدة أعدائهم والغلظة عليهم ــ إذا تعرضوا لهم ــ فى حال قوتهم وسطوتهم .

فكل من الحكمين يجب امتثاله فى وقته وحين توجد علته ، وهذا نسء أى إرجاء للأمر بالقتال فى وقت الضعف إلى أن يقوى المسلمون ويشتد بأسهم ويغلظ عودهم وتعظم قوتهم وليس بنسخ .

قال العلامة بدر الدين الزركشى :

.... يتبين ضعف مالهج به كثير من المفسرين فى الآيات الآمرة بالتخفيف أنها منسوخة بآية السيف ، وليست كذلك بل هى من

---

(١) فليس الإسلام دينا متعطشا لإراقة الدماء وإزهاق أرواح الأبرياء كما يزعم الأعداء وإنما هو دين التسامح والعفو ، والشفقة والرحمة ، والمغفرة والرأفة ، والهدى والبر ، ويكفى فى التدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون ﴾ ــ سورة الجاثية ١٤ ــ ، وقوله جل وعلا : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ ــ سورة الأنفال ٥٨ ــ ، وقوله سبحانه : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ﴾ ــ سورة الأنفال ٦١ ــ ٦٢ ــ ، وقوله سبحانه : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ... ﴾ من سورة التوبة ٦ ــ وغيرها من الآيات والأدلة .

المنسأ ـ بضم الميم وفتح السين[1] ـ ، بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله فى وقت مالعلة توجب ذلك الحكم ، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر ، وليس بنسخ ، إنما النسخ : الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبدا ...

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ يأأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ... ﴾ الآية [2] .

كان ذلك فى ابتداء الأمر ، فلما قوى الحال وجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والمقاتلة عليه ، ثم لو فرض وقوع الضعف كما أخبر النبى ﷺ فى قوله : « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ »[3]، عاد

---

(١) قرأ بعض القراء قوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ ... الآية (سورة البقرة ١٠٦) قرأ ـ أو ننسها ـ من النسيان أى رفع اللفظ جملة ، وقرأ بعضهم ـ أو ننسئها ـ من الإنساء وهو التأخير أى يؤخر العمل بها إلى مدة معلومة لسبب ، وفى الآية الكريمة قراءات أخرى منها ما هى متواترة ومقبولة ومنها ما هى شاذة .

(٢) سورة المائدة ١٠٥ .

(٣) انظر الحديث المذكور فى صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الإيمان باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا وأنه يأرز بين المسجدين جـ ١ ص ٣٥٨ ، وسنن الترمذى أبواب الإيمان باب ما جاء أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا جـ ٤ ص ١٢٩ ، وسنن ابن ماجه كتاب الفتن باب بدأ الإسلام غريبا ص ١٣١٩ ـ ١٣٢٠ ، وسنن الدارمى كتاب الرقاق باب أن الإسلام بدأ غريبا جـ ٢ ص ٣١١ ـ ٣١٢ ، والمسند للإمام أحمد جـ ١ ص ١٨٤ و ٣٩٨ وغيرهما من المواضع التى ذكره فيها الإمام أحمد فى المسند . =

الحكم ...

ويعود هذان الحكمان — أعنى المسالمة عند الضعف ، والمسايفة عند القوة — بعود سببهما ، وليس حكم المسايفة ناسخا لحكم المسالمة ، بل كل منهما يجب امتثاله فى وقته أهـ باختصار[1] .

وهذا الكلام الذى قاله الإمام بدر الدين الزركشى كلام نفيس ومعناه فخيم ، فعض عليه بالنواجذ ، واحرص عليه .

= ومن رواة هذا الحديث المرفوع من الصحابة : أبو هريرة ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وغيرهم من أكابر الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، وهو حديث متواتر ، انظر : المقاصد الحسنة للسخاوى ص ١٤٣ — ١٤٤ .

وهذا الحديث من علامات النبوة إذ الإسلام الآن فى غربة فى ديار المسلمين ، والمسلمون الصادقون العاملون به الآن فى غربة بين أقوامهم وأهليهم فطوبى للغرباء ، وفيه دعوة إلى الغربة والهجرة من أجل إقامة الدين والعمل به .

(١) انظر البرهان فى علوم القرآن للزركشى جـ ٢ ص ٤٢ -ـ ٤٣ .

د ـــ الفرق بين النسخ والبداء

إن الفرق بين النسخ والبداء ظاهر وواضح :

فالبداء بفتح الباء هو : الظهور بعد الخفاء ، ومنه قولهم : « بدا لنا سور المدينة » أى ظهر وبان بعد أن كان خفيا مستورا عن الأعين .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ، وبدا لهم سيئات ماكسبوا وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون ﴾[2] .

ونلمس هذه الصفة موجودة فى الخلق :

فالإنسان منا يأمر غيره بأمر ويجهل عاقبته ولا يدرى مايئول إليه حاله ونهايته ، ثم يبدو له رأى آخر أو تظهر له وتجدُّ عنده وجهة نظر أخرى فيغير أمره ويتحول منه إلى غيره .

أما النسخ فبخلاف ذلك : لأن الله جل وعلا يختص به ، فهو يحول عباده المكلفين من حكم شرعه لهم فى وقت لحكمة ومصلحة إلى حكم آخر شرعه لهم فى وقت آخر لحكمة ومصلحة أخرى ، والحكمان ـــ أى المنسوخ والناسخ ـــ وما يترتب على كل منهما من الحكم والمصالح معلومة له تعالى ، وهو يعلم حين شرع الحكم الأول أنه مؤقت وسيغيره فى وقت كذا بحكم آخر لحكمة ومصلحة تتعلق بعباده ، وكل شىء معلوم لله تعالى فى

(١) سورة يوسف عليه السلام ٣٥ .   (٢) سورة الزمر ٤٧ ـــ ٤٨ .

الأزل ، سبحانه ﴿ قد أحاط بكل شيء علما ﴾[1] .

فالبداء من صفات الخلق ، ويستلزم سبق الجهل ، وحدوث العلم ، وتجدده ، وتغيره .

أما النسخ فهو خاص بالله تبارك وتعالى وليس فى اتصافه به أدنى تغيير فى علمه ، وإنما التبديل والتغيير فى المعلوم والمخلوق لمصلحته لا فى العلم ولا فى الخالق ، فهو سبحانه عالم بما كان وما هو كائن وما سيكون ، فشتان ما بين البداء والنسخ .

وقد تعامى اليهود والنصارى والروافض ومن سار فى ركابهم عن الفرق بين النسخ والبداء رغم وضوحه وسطوعه ، وظهوره لذى عينين ، وأسلموا قيادهم لشياطينهم وأهوائهم ، وغالوا فى رأيهم لهدف خبيث وغرض خسيس ملموس ، هو الطعن فى الإسلام وإثارة الشبهات عليه وخلق الارتياب حوله للنيل منه : فقالت اليهود وتبعهم النصارى — قاتلهم الله : —

إن النسخ مستحيل على الله لأنه هو البداء .

وقال الروافض أخزاهم الله :

إن النسخ جائز على الله ، وهو والبداء شيء واحد .

فخلطوا النسخ بالبداء ، وجوزوا البداء على الله ، ووصفوه بالجهل ، ونعتوه بتجدد العلم وتغيره وحدوثه ، وزعموا أن لا قدر وأن الأمر أنف ... إلى آخر ما قالوه عن الله من هراء وافتراء .

فاليهود والنصارى مع الروافض على طرفى نقيض ، وقالوا منكرا من القول وزورا ، ﴿ سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ﴾[2] .

---

(١) سورة الطلاق ١٢ .   (٢) سورة الإسراء ٤٣ .

المذاهب فى جواز النسخ ووقوعه

اختلف أهل الأديان فى جواز النسخ ووقوعه ، وذهبوا فى هذا مذاهب خمسة :

الأول : مذهب جمهور العلماء ، وغيرهم من المنصفين من أهل الشرائع السابقة ، قالوا : إن النسخ جائز عقلا وواقع شرعا فى الشريعة الواحدة ، وبين الشرائع المختلفة .

وهذا المذهب هو الحق ، ومن الأدلة على جوازه عقلا ووقوعه شرعا :

أ ـــ أن أفعال الله تعالى لا تعلل بالأغراض ، فله أن يأمر بالفعل فى وقت ، ثم ينسخه بالنهى عنه فى وقت آخر ، كأن يوجب الصيام فى يوم عاشوراء ثم يرفع الإيجاب ويأمر بصيام شهر رمضان ، فهو سبحانه أعلم بمصالح عباده ومنافعهم ، وله الحكمة البالغة والمشيئة الكاملة .

ب ـــ أن النسخ ممكن عقلا ، ولا يترتب على فرض وقوعه محال ، وكل ما كان كذلك فهو جائز الوقوع ، فالنسخ جائز الوقوع ، بل واقع فعلا .

جـ ـــ أن النسخ لو لم يكن جائزا عقلا وواقعا شرعا لما ثبتت رسالة سيدنا محمد ﷺ إلى الناس كافة ، لكنها ثبتت ، فيثبت النسخ .

دليل الملازمة :

أن النسخ لو لم يكن جائزا وواقعا لكانت الشرائع السابقة باقية معمولا بها ومقيدا بنصوصها ، ويلزم ذلك عدم ثبوت رسالة النبى محمد

ﷺ إلى الناس قاطبة ، لكنها ثابتة بالأدلة اليقينية القطعية ، وصار ثبوتها متواترا معلوما لا يخفى على أحد ، وأوضح من الشمس فى رابعة النهار ، وما دامت رسالته ﷺ ثابتة فقد ثبت نسخها للشرائع السابقة ، وهذا دليل على جواز النسخ ووقوعه .

د ــ وستأتى عن كثب طائفة من النصوص خلال الرد على اليهود ــ أقماهم الله ــ تثبت وقوع النسخ بشريعة موسى عليه السلام ، ووقوعه فيها وفى غيرها من الشرائع السابقة .

هـ ــ ومن الأدلة على وقوعه فى الشريعة الإسلامية قوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير ، ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾[1]:

فقد جاءت فى معرض الرد على اليهود الطاعنين فى الإسلام بسبب وجود النسخ وبيان قبائحهم وأحقادهم ومفاسدهم وضغائنهم .

وقوله تعالى : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾[2]:

قال حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما :

يبدل الله ما يشاء من القرآن فينسخه ، ويثبت ما يشاء فلا يبدله ، وما يبدل وما يثبت كل ذلك فى كتاب ، أهـ .

وورد نحوه عن عكرمة مولى ابن عباس وعن محمد بن كعب القرظى ومحمد بن سيرين وقتادة بن دعامة السدوسى وابن جريج وغيرهم[3] .

(1) سورة البقرة ١٠٦ ــ ١٠٧ .   (2) سورة الرعد ٣٩ .

(3) انظر جامع البيان عن تأويل آى القرآن للطبرى جـ ١٣ ص ١٦٩ ، ونواسخ القرآن لابن الجوزى ص ١٨ ، وتفسير الحافظ ابن كثير جـ ٢ ص ٥٢٠ .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون ﴾[1].

وكل آية قرآنية تحقق القول فيها بالنسخ تعتبر دليلا على وقوعه فى الشريعة الإسلامية ، والوقوع يستلزم الجواز .

وفى السنة المطهرة أحاديث كثيرة وروايات موفورة تفيد وقوع النسخ فى الشريعة الإسلامية .

وقد أجمع العلماء السابقون واللاحقون من سلف وخلف على أن النسخ وقع بالشريعة الإسلامية ، ووقع فيها ، وصار أمرا معلوما لدى المسلمين لم يخالف فيه إلا أبو مسلم الأصفهانى ومن شايعه .

وخلاف أبى مسلم ومن تبعه — وهم يعدون على الأصابع — لا ينقض الإجماع إذ لا يشترط فى الإجماع أن لا يخالف فيه مخالف ، ولو اشترط فيه هذا الشرط لما وجد إجماع ولا انعقد أصلا .

الثانى : مذهب أبى مسلم الأصفهانى[2].

يرى أبو مسلم — كما نقل عنه : — أن النسخ جائز عقلا غير واقع شرعا ، على معنى أن الأحكام التى انتهت من غير شريعتنا كانت مؤقتة

---

(١) سور النحل ١٠١ .

(٢) هو أبو مسلم محمد بن بحر الأصفهانى ، كان من شيوخ المعتزلة ومن كبار المفسرين واللغويين وله مؤلفات ، ومن أهم كتبه : جامع التأويل لمحكم التنزيل ، وهو كتاب فى التفسير وتوفى سنة ٣٢٢ هـ ، واختلف النقل عنه فى مسألة النسخ : فقيل إنه يمنع وقوع النسخ شرعا على الإطلاق ، وهو قول غريب فمثل أبى مسلم لا يمكن أن يخالف إجماع المسلمين على أن شريعة محمد ﷺ ناسخة لكافة الشرائع السابقة ، وقيل إنه ينكر وقوعه فى شريعة واحدة ، وقيل إنه ينكر وقوعه فى القرآن الكريم خاصة .

ومقيدة بظهور شريعتنا ، وكذلك الأحكام التى انتهت من شريعتنا كانت مؤقتة ومقيدة بظهور أحكام أخرى فى شريعتنا تناقضها وتقابلها ، ولا يسمى هذا نسخا ، لأن النسخ ــ وبخاصة فى القرآن الكريم ــ إبطال ، وأحكام القرآن لا يمكن إبطالها لقوله تعالى : .... ﴿ وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[1] .

وبناء على هذا المذهب والتوجيه يكون النسخ عند أبى مسلم من باب التخصيص بالزمان ، ويكون الخلاف بينه وبين العلماء خلافا لفظيا ، فما يطلق عليه العلماء نسخا يطلق هو عليه تخصيصا بالزمان .

وليس أبو مسلم الأصفهانى وحيدا فى إنكار وقوع النسخ وإيثار غيره من الألفاظ عليه ، فقد تابعه وحطب فى حبله من المسلمين القدامى : أبو على محمد بن أحمد ابن الجنيد المتوفى ٣٨١ هـ ، وألف كتابا سماه : « الفسخ على من أجاز النسخ » . ومن المحدثين الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه : « من قضايا القرآن » وغيرهما .

ويرد على أبى مسلم بأن الآية التى استند إليها خالية من الدلالة على ما قال ، لأن معناها ومرماها : أن القرآن الحكيم عزيز وعالى القدر عند الله تبارك وتعالى ، ولم يسبقه ما يبطله من الكتب ، ولا يأتى بعده ما يبطله ، فهو مصون ومحفوظ كله بحفظ الله ، وهو خاتم الكتب السماوية والمصدق لها والمهيمن عليها .

ونسى أبو مسلم وأضرابه أن الأدلة على وقوع النسخ شرعا كثيرة وصريحة ، وأن لا حرج فى النطق بكلمة « النسخ » ، كما نسوا أنهم شذوا عن جماهير المسلمين والمنصفين ، وغفلوا عن أنهم أساءوا الأدب مع الله تعالى حيث آثروا كلمة : « التخصيص » التى ابتدعوها على كلمة :

(١) سورة فصلت ٤١ ــ ٤٢ .

« النسخ » التى صرح بها القرآن المجيد ، وسهوا عن الفروق التى بين النسخ والتخصيص وهى واضحة وقد مرت آنفا .

الثالث : مذهب الشمعونية ، وهى طائفة من اليهود تنسب إلى شمعون بن يعقوب — وكذلك النصارى على مذهبهم — قالوا : إن النسخ غير جائز عقلا ولا شرعا ، واستندوا فى مذهبهم إلى ثلاث شبهات ، وإليك شبهاتهم ودحضها :

أ — قالوا : لو جاز النسخ لكان لحكمة ظهرت لله لم تكن معلومة له قبله ، أو لغير حكمة أصلا ، والأول مستحيل على الله لأنه يستلزم سبق الجهل ، والثانى مستحيل عليه كذلك لأنه يستلزم العبث ، وبهذا يكون النسخ محالا على الله .

ونرد على هذه الشبهة التى ظنوها دليلا قويا لهم ومتمسكا يتمسكون به بأن جواز النسخ ووقوعه لا يستلزم سبق الجهل ، ولا وصف الله — تعالى — بالعبث ، لأن النسخ غير البداء ، والحكمة من المنسوخ والناسخ معلومة لله تبارك وتعالى ، وما النسخ إلا تحويل المكلفين ونقلهم من حكم أمرهم الله تعالى به لمصلحة معلومة له تعالى إلى حكم آخر فيه مصلحة معلومة له كذلك ، فالله سبحانه يتصرف تصرفا حكيما تقتضيه الحكمة وترتبط به المصلحة لعباده .

فهذه الحال — ﴿ ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ﴾[1] — كحال الطبيب الحاذق مع المريض ، يصف له دواء فى وقت ويعلم مدى قيمته له وصلاحيته لمريضه وأنه سيبدله ، ثم يغيره فى وقت آخر ويأتى بدواء

(١) سورة النحل ٦٠ — ونظير الآية المذكورة قوله تعالى فى سورة الروم ٢٧ : ﴿ وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

غيره يناسب حاله ويساير صحته ويواكب مصلحته ، وهذا لا يجعلنا نعيب الطبيب ونصمه بالجهل أو بالعبث .

ومثل الطبيب مع المريض : المربية مع طفلها .

فالنسخ تبديل فى حقنا ، بيان محض فى حق الله سبحانه ، أو بتعبير آخر هو رفع بالنسبة إلينا ، بيان وإظهار علم بالنسبة إلى الله تبارك وتعالى .

ويلاحظ أن هؤلاء اليهود المكرة الخبثاء تناسوا فى شبهتهم الشق الثانى من التقسيم وهو أن النسخ لحكمة ظاهرة معلومة لله تعالى من قبل » ، وهو ما نقول به .

ب ــ قالوا : لو جاز النسخ لكان مع علم الله باستمرار الحكم ودوامه ، أو مع علمه بتوقيته ، والأول مستحيل على الله لاستلزامه انقلاب العلم جهلا ، والثانى باطل لأن الحكم المؤقت ينتهى فى الوقت المعلوم لله انتهاؤه فيه ، ومادام الأمر كذلك فلا يجوز نسخه ، وإذا نسخ كان تحصيلا للحاصل .

ونرد على هذه الشبهة بأننا نختار الشق الثانى من التقسيم وهو جواز النسخ مع علم الله تعالى بتوقيت الحكم ، ولا عيب فى ذلك فالله شرع الحكم وعلم أنه مؤقت وينتهى فى الوقت الذى حدده وأراده بخطاب شرعى آخر متراخ عنه ، وليس فى ذلك بطلان ولا تحصيل للحاصل كما زعموا وافتروا .

وما النسخ إلا إظهاره تعالى ما علم لعباده لا ظهور ذلك له ، فالتبديل فى المعلوم لا فى العلم ، والتغيير فى المخلوق لا فى الخالق سبحانه : ﴿ وما كان ربك نسيا ﴾[1].

جـ ــ قالوا : إن ماطلب الله من عباده أداءه طلبه لحسنه ومحبته ، ولا يجوز

(1) سورة مريم ٦٤ .

نسخه لأن نسخه يؤدى إلى انقلاب الحسن قبيحا وهذا محال .

وما نهى الله عنه عباده نهى عنه لقبحه وكراهيته ، ولا يجوز نسخه لأن نسخه يؤدى إلى انقلاب القبيح حسنا وهو محال .

فالنسخ فى الحالتين محال .

ونرد على هذه الشبهة بأن الإحالة التى تذكرونها تكون إذا اجتمع الأمر والنهى على فعل واحد لمأمور واحد فى زمن واحد ، والمسألة التى معنا ومحل كلامنا خلاف ذلك .

ثم إن الإحالة تكون إذا توارد الأمر والنهى على حسن لا يقبل حسنه القبح ، أو على قبيح لا يقبل قبحه الحسن مثل : « الإيمان والكفر » و « الجنة والنار » والمسألة ليست كذلك ، لأن النسخ يكون فى الأفعال التى يكون حسنها وقبحها باعتبار ما يترتب عليها فالنسخ يقع بمقتضى حكمته جل وعلا وتصرفه المطلق التام فى ملكه بلا مشارك ولا منازع ، وقد يكون النسخ من حسن إلى أحسن .

الرابع : مذهب العنانية ، وهى طائفة من اليهود تنسب إلى عنان بن داود كما جاء فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى رحمه الله .

قالوا : إن النسخ جائز عقلا ممتنع شرعا أى لم يقع فى الشرائع السماوية .

ونرد عليهم وعلى طائفة الشمعونية السابقة ـــ زيادة على ما مر ـــ بأنهم متناقضون مع أنفسهم لأنهم يعترفون بأن النسخ وقع بشريعة موسى عليه السلام كما وقع فيها : فقد ورد فى التوراة ـــ كما نقل ـــ أن الله ـــ تعالى ـــ قال لنوح ـــ عليه السلام ـــ عند خروجه من الفلك بعد نجاته من الطوفان :

« إنى جعلت كل دابة حية مأكلا لك ولذريتك ، وأطلقت ذلك لكم كنبات العشب ما خلا الدم فلا تأكلوه » .

وهم يعترفون بأن الله حرم كثيرا من الدواب فى بعض الشرائع التى بعد نوح ، ومنها شريعة موسى — عليه السلام — ، وقد حكى الله هذا فى قوله تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم ﴾ الآية[1]، وقوله تعالى : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ﴾ [2].

ويقرون بأن آدم — عليه السلام — كان يزوج بوحى من الله بناته لبنيه مقيما اختلاف البطون مقام اختلاف الآباء والأمهات والأنساب ، ثم حرم الله هذا فيما بعد باتفاق أهل الأديان .

ويعترفون بأن الله أمر إبراهيم الخليل — عليه السلام — بذبح ابنه ، ثم نهاه الله عن ذبحه ، وقد حكى الله هذا فى سورة الصافات .

ويقولون إن الله — تعالى — أمر بنى إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم ، ثم أمر برفع السيف عنهم ، وقد حكى الله هذا فى قوله سبحانه : ﴿ وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾ [3].

ووقع نسخ بعض الأحكام بشريعة عيسى عليه السلام كما حكى الله تبارك وتعالى فى قوله : ﴿ ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ... ﴾ [4].

---

(١) سورة الأنعام ١٤٦ .
(٢) سورة النساء ١٦٠ .
(٣) سورة البقرة ٥٤ .
(٤) سورة آل عمران ٥٠ .

قال الحافظ ابن كثير خلال تفسيره لهذه الآية الكريمة : فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح ا هـ [1].

فهذا كله إلزام لهم وإعلان وإعلام من الله تعالى ثم منهم — كما صرحت النصوص — بوقوع النسخ فى الشرائع السابقة ، ووقوعه بشريعة موسى عليه السلام وفى شريعته .

وكل محاورات اليهود — أقماهم الله — ومحاولاتهم من إنكارهم للنسخ : الطعن فى الشريعة الإسلامية وادعاء أنها لم تنسخ شريعتهم وأن شريعتهم باقية وأنهم على حق وهدى وصراط مستقيم .

وهذا كذب منهم محض ، وافتراء بحت ، وإفك صرف .

ولو كانت شريعتهم باقية — كما زعموا — لما أظهر الله تعالى المعجزات على يد عيسى عليه السلام ، ولا على يد محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

ولما عادوا عيسى عليه السلام حتى وصل بهم الكيد له والحقد عليه وعداوته محاولة قتله وصلبه ، فحماه الله ونجاه ورفعه إليه .

ولما ناصبوا محمدا ﷺ العداء وجمعوا كيدهم للمكر به وخديعته وإيذائه والتربص به ومحاولة قتله أكثر من مرة ، فنجاه الله وحماه وعصمه من الناس وأظهر دينه على الدين كله .

ولما عابهم الله فى القرآن الكريم ، وكشف عوارهم ، وهتك ستارهم ، وأبان مثالبهم ومفاسدهم ومخازيهم ، وفضحهم ودمغهم ، فى آيات تتلى على مر العصور وكر الدهور .

---

(١) تفسير الحافظ ابن كثير جـ ١ ص ٣٦٥ .

الخامس : مذهب العيسوية وهى طائفة ثالثة من طوائف اليهود تنسب إلى أبى عيسى اسحق بن يعقوب الأصفهانى وكان فى أواخر عهد بنى أمية كما جاء فى الملل والنحل للشهرستانى .

وهؤلاء يرون أن النسخ جائز عقلا وواقع شرعا ، ويعترفون بنبوة سيدنا محمد ﷺ غير أنهم يقولون إنه مرسل إلى العرب خاصة ، أما شريعة موسى فهى باقية ، أى أن رسالة محمد ــ ﷺ ــ رسالة محلية وليست عالمية .

ونرد عليها بأنهم مخطئــون فى قولهم الأخير ــ وهـــو قول يدل على كفرهم ــ وبما رددنا به على الطائفتين اليهوديتين السابقتين ، وبأن رسول الله محمدا ﷺ مرسل إلى الناس كافة بل هو مرسل إلى الثقلين الإنس والجن ، وهو أمر معلوم متواتر غير خاف على أحد .

وماداموا قد اعترفوا برسالته ــ كما قالوا عن أنفسهم ــ لزمهم ووجب عليهم الإيمان بعموم دعوته وشمول رسالته ونسخ سائر الشرائع السابقة بشريعته ــ ﷺ .

أنواع النسخ

يتنوع النسخ إلى أنواع مختلفة باختلاف النظر والواقع :

فبالنظر إلى الكتاب والسنة يتنوع إلى أربعة أنواع .
وبالنظر إلى التلاوة والحكم يتنوع إلى ثلاثة أنواع .
وبالنظر إلى البدل وغيره يتنوع إلى نوعين .
وبالنظر إلى الخفة والثقل يتنوع إلى ثلاثة أنواع وإليك الأنواع كلها وما قيل فيها مقرونة بالأمثلة :

أ ــ نسخ القرآن والسنة بالقرآن والسنة

ينقسم النسخ بالنظر إلى الكتاب والسنة إلى أربعة أضرب إجمالا :

الأول : نسخ القرآن بالقرآن [1] :

وهذا الضرب أجازه العلماء القائلون بالنسخ ، ولا خلاف بينهم فيه حيث إن كافة آيات القرآن الكريم متساوية فى نقلها والعلم بها ووجوب العمل بأحكامها ومقتضاها .

الثانى : نسخ القرآن بالسنة :

وقد اختلفت آراء العلماء فيه باختلاف نوع السنة :

(١) لفظ (القرآن) يطلق ويراد به كل القرآن ، كما يطلق ويراد به بعضه ولو كان هذا البعض آية واحدة أو جزء آية ، والقرينة هى التى تحدد المقصود ، أى يطلق هذا اللفظ علم شخص واسم جنس ، والمراد هنا فى النسخ هو البعض
ومثل كلمة (القرآن) كلمة (السنة) .

فالسنة الثابتة بالنقل المتواتر أجاز نسخها للقرآن الإمام مالك ، وأصحاب أبى حنيفة ، والإمام أحمد فى رواية عنه ، وجمهور الأشاعرة ، والمعتزلة .

واستدلوا بأن كلا من القرآن الكريم والسنة المطهرة وحى من الله تعالى إلى رسوله ﷺ وقد قال سبحانه فى شأن رسوله ﷺ : والنجم إذا هوى ، ماضل صاحبكم وماغوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ﴾[1] ، بيد أن القرآن وحى متلو ، له خصائصه ، والسنة وحى غير متلو ، لها خصائصها ، ونسخ الوحى بالوحى جائز إذ هما سواء .

ومنع نسخها للقرآن الكريم بعض العلماء كالإمام الشافعى وأكثر أصحابه ، والإمام أحمد فى رواية عنه ، وسفيان الثورى ، رحمهم الله جميعا ، واستدلوا بأدلة منها :

١ ـــ قوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾[2] :

قالوا : إن السنة ليست خيرا من القرآن ولا مثله فكيف تنسخه ، وذكر نون العظمة فى الأفعال الثلاثة : « ننسخ ، ننسها ، نأت » يدل على أن ناسخ الآية يكون من قبل الله عز وجل لا من قبل رسوله ﷺ ، أى لابد أن يكون الناسخ آية وليس حديثا .

ونرد على هذا الاستدلال بأن المقصود من الخيرية والمثلية فى الآية الكريمة : الخيرية والمثلية فى الحكم وفى نفعه للمخاطبين لا فى اللفظ ، وإلا فالقرآن ليس بعضه خيرا من بعض ، ومعنى الآية أن العمل بالناسخ خير من العمل بالمنسوخ قبل أن ينسخ أو مساو له . وأن الثواب على العمل

(١) سورة النجم ١ ـــ ٤ . (٢) سورة البقرة ١٠٦ .

بالناسخ ليس أقل أجرا من العمل بالمنسوخ قبل أن ينسخ بل يكون العمل بالناسخ أكثرا أجرا إذا كان النسخ إلى حكم ثقيل أو أثقل .

أما ذكر نون العظمة فى الأفعال الثلاثة فلا دلالة فيه على ماقالوا لان السنة مثل القرآن الكريم فى كونهما وحيا من الله تعالى إلى رسوله ﷺ .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون ﴾[١] :

قالوا : إن هذه الآية تفيد أن المبدل هو الله وحده وأن التبديل يكون بآية مكان آية ومن ثم فإن القرآن لا ينسخ بالسنة .

والجواب : أن الآية المذكورة ترد على الكفار الذين يطعنون فى القرآن المجيد وفى الرسول الكريم بسبب وجود النسخ فى الشريعة وينتهزونها فرصة على رسول الله ﷺ وينسبونه إلى الافتراء والكذب على الله ، وتثبت أن الله تعالى هو الذى يبدل آية مكان آية ، وهذا لا يمنع ولا ينفى نسخ القرآن بالسنة لأنهما وحى من الله تعالى ، ولأن الآية خالية من الحصر فلم تقل : ﴿ لا نبدل آية إلا بآية أخرى ﴾ .

ولكون وجه استدلالهم بالآية ضعيفا خالف الإمام الفخر الرازى الإمام الشافعى فيه مع أنه شافعى المذهب[٢].

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ .... وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ﴾ الآية[٣]: قالوا : إن هذه الآية تفيد أن مهمة رسول الله ﷺ هى البيان فقط وليس من مهمته النسخ .

(١) سورة النحل ١٠١ .
(٢) انظر مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى جـ ٢٠ ص ١١٦ .
(٣) سورة النحل ٤٤ .

والجواب : أن النسخ ليس من عند رسول الله ﷺ وإنما هو بوحى من الله تعالى إليه ، وأنه ضرب من ضروب البيان حيث إنه : بيان زوال الحكم الذى نسخ وبيان إثبات الحكم الذى نسخه .

ويضاف إلى هذا أن بيانه تبليغ فهو من مهمته — ﷺ — أيضا ، والتبليغ شامل للقرآن وللسنة لأنهما وحى من الله تعالى إليه ، وذكرت فى الآية الكريمة كلمة (ما) لإفادة العموم والشمول ، ثم إن الآية خالية من الحصر .

٤ — قوله تعالى : ﴿ .... ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ [١] : قالوا : إن الله منع رسوله أن يبين القرآن من قبل أن يقضى إليه وحيه ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف ينسخه رسول الله بالسنة .

والجواب : أن معنى الآية ومرماها لا صلة له بالنسخ ، ثم إن السنة لا تنسخ القرآن إلا بعد أن يقضى إلى رسول الله — ﷺ — الوحى بنسخها له لا قبله .

٥ — قوله تعالى : ﴿ .... قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ﴾ [٢] .

قالوا : الآية المذكورة بينت أن رسول الله ﷺ لا يمكنه تبديل شىء فى القرآن ، وإذا كان الأمر كذلك فنسخ القرآن بالسنة ممنوع لأنه تبديل .

والجواب : أن التبديل الممنوع هو الذى يكون من تلقاء نفسه ﷺ أى بدون وحى إليه كما صرحت الآية ، والسنة ليست من تلقاء نفسه وابتداعه

---

(١) سورة طه ١١٤ .

(٢) سورة يونس عليه السلام ١٥ .

وإنما هى وحى من الله تعالى إليه ، ويكفى ختم الآية الكريمة بقوله تعالى إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم .

٦ ــ قوله تعالى : ﴿ يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾[١].

قالوا : دلت الآية الكريمة على أن المحو والإثبات من الله وحده لا من رسوله ﷺ ، وعلى هذا فالقرآن لا ينسخ بالسنة .

والجواب : أن السنة وحى من الله تبارك وتعالى ولذا جاز نسخ القرآن العظيم بها ، فالناسخ والماحى والمثبت فى الحقيقة والواقع هو الله جل وعلا ، أما الرسول ﷺ فليس عليه إلا البلاغ والبيان .

ثم إن الآية الكريمة معناها أعم وأوسع من قصره على النسخ وتفسيره به ، فما النسخ إلا فرد من الأفراد التى تندرج تحت عمومها وتنضوى تحت شمولها .

وأما السنة الآحادية غير المتواترة فأكثر العلماء يرون منع نسخ القرآن بها لأن القرآن متواتر يفيد اليقين وثبوته قطعى ، أما هى فغير متواترة وثبوتها ظنى ، والظنى لايقوى على نسخ القطعى أى لا يصح رفع المعلوم المتيقن بالمظنون .

وبعض العلماء أجاز نسخها للقرآن الكريم بحجة أن محل النسخ هو الحكم ودلالة القرآن عليه ظنية كدلالة السنة عليه ، فالناسخ والمنسوخ متساويان فى ظنية الدلالة ، وبحجة أن طاعة رسول الله ﷺ واجبة كطاعة الله سبحانه وتعالى ، وصرحت بذلك الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ، فلزم قبول السنة الآحادية الناسخة للقرآن الكريم والعمل بمقتضاها .

---

(١) سورة الرعد ٣٩ .

ومن أمثلة نسخ القرآن بالسنة الآحادية عند المجيزين له من العلماء قوله تعالى : ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين ﴾[1]، قالوا : نسخ حكم هذه الآية بقوله ﷺ : « لا وصية لوارث »[2].

الثالث : نسخ السنة بالقرآن :

وهذا القسم أجازه جمهور العلماء ، وفهم بعض العلماء من كلام الإمام الشافعى أنه يمنعه كالذى قبله .

ونص الإمام الشافعى هو : وحيث وقع النسخ بالسنة فمعها قرآن ، أو بالقرآن فمعه سنة عاضدة تبين توافق الكتاب والسنة أهـ[3].

وقال بعضهم : إن مقصود الإمام الشافعى أن النسخ فى القرآن والسنة لم يقع لكل منهما بالآخر إلا ومعه مثل الناسخ عاضد له ، أى إذا وقع نسخ القرآن بالسنة جاء نص قرآنى عاضد للنسخ ومؤيد له ، وإذا وقع نسخ السنة بالقرآن جاء نص من السنة عاضد للنسخ ومؤيد له ليتبين توافقهما[4].

فمثلا : آية الوصية للوالدين والأقربين وهى قوله تعالى : ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين ﴾ ، إن قلنا إنها منسوخة بحديث : « لا وصية لوارث » فإننا نضيف إلى الحديث آية تعاضده فى النسخ وهى آية المواريث ، ويؤيد هذا قوله ﷺ : « إن الله تبارك وتعالى قد أعطى كل ذى

---

(1) سورة البقرة ١٨٠ .　　(2) سيأتى عن كتب تخريجه .

(3) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ٢ ص ٢١ .

(4) انظر البرهان فى علوم القرآن للزركشى جـ ٢ ص ٣٢ .

حق حقه فلا وصية لوارث (١)

وما رواه أبو داود بسنده إلى ابن عباس رضى الله عنهما قال فى قوله تعالى : إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين » : وكانت الوصية كذلك حتى نسختها آية الميراث أهـ .

وأخرج البخارى نحوه بسنده عنه ، وأخرج الدارمى نحوه بسنده عنه وعن بعض التابعين كعكرمة مولى ابن عباس وقتادة بن دعامة والحسن البصرى [٢].

فالإمام الشافعى رحمه الله — على هذا التفسير لعبارته — يلتقى مع الجمهور فى جواز نسخ السنة بالقرآن والقرآن بالسنة المتواترة مع زيادة شرط له وعنده وهو وجود مايعاضد النسخ ويؤيده ويشهد له سواء كان قرآنا أو سنة .

وأمثلة نسخ السنة بالقرآن كثيرة منها : أن وجوب التوجه إلى بيت المقدس بالشام كان ثابتا بالسنة ، وقد نسخ بوجوب التوجه إلى الكعبة

(١) انظر سنن أبى داود كتاب الوصايا باب ما جاء فى الوصية للوارث جـ ٣ ص ١١٤ ، وسنن الترمذى أبواب الوصايا باب ما جاء لا وصية لوارث جـ ٣ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ ، وسنن ابن ماجه كتاب الوصايا باب لا وصية لوارث ص ٩٠٥ — ٩٠٦ ، وسنن النسائى كتاب الوصايا باب إبطال الوصية للوارث جـ ٦ ص ٢٤٧ ، وراويه عن رسول الله ﷺ هو أبو أمامة الباهلى ، وفى الباب عن أنس ابن مالك وعمرو بن خارجة وأبى قلابة وغيرهم رضى الله تعالى عنهم .

(٢) انظر سنن أبى داود كتاب الوصايا باب ما جاء فى نسخ الوصية للوالدين والأقربين جـ ٣ ص ١١٤ ، وصحيح البخارى كتاب الوصايا باب لا وصية لوارث جـ ٤ ص ٤ ، وسنن الدارمى كتاب الوصايا باب الوصية للوارث جـ ٢ ص ٤١٨ — ٤٢٠ .

المشرفة الثابت بالقرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ... ﴾ الآيات [1].

وأن وجوب صوم يوم عاشوراء كان ثابتا بالسنة ، وقد نسخ بوجوب صوم شهر رمضان الثابت بالقرآن المجيد فى قوله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ... ﴾ الآية [2].

---

(١) أنظر أحاديث تحويل القبلة فى صحيح البخارى كتاب الصلاة باب التوجه نحو القبلة حيث كان جـ ١ ص ١٠٤ ، وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب المساجد باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة جـ ٢ ص ١٦٠ — ١٦١ ، وسنن الدارمى كتاب الصلاة باب فى تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة جـ ١ ص ٢٨١ ، والموطأ للإمام مالك كتاب الصلاة باب ما جاء فى القبلة ص ١٣٨ ، وغير ذلك من الكتب ، وهو مروى عن ابن عمر والبراء بن عازب وغيرهما رضى الله عنهم . وانظر الآيات فى سورة البقرة ١٤٤ — ١٤٩ — ١٥٠ .

(٢) انظر ما ورد فى صوم يوم عاشوراء فى صحيح البخارى كتاب الصوم باب وجوب صوم رمضان جـ ٣ ص ٣١ ، وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب الصوم باب صوم يوم عاشوراء جـ ٣ ص ١٨٣ ومابعدها ، وسنن الدارمى كتاب الصوم باب فى صيام يوم عاشوراء جـ ٢ ص ٢٢ — ٢٣ ، وسنن أبى داود كتاب الصوم باب فى صوم يوم عاشوراء جـ ٢ ص ٣٢٦ — ٣٢٧ ، وسنن ابن ماجه كتاب الصيام باب صيام يوم عاشوراء ص ٥٥٢ — ٥٥٣ ، وسنن الترمذى أبواب الصوم جـ ٢ ص ١٢٦ — ١٢٨ ، وغير ذلك من كتب السنة المطهرة ، وهو مروى عن عبد الله بن عباس وعائشة وسلمة بن الأكوع وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود وعلى بن أبى طالب وجابر بن سمرة ومعاوية بن أبى سفيان وغيرهم رضى الله تعالى عنهم . ويرى بعض الفقهاء أن صوم يوم عاشوراء قبل تشريع صوم شهر رمضان لم يكن واجبا ، ويرى بعضهم غير ذلك ، وفى المسألة خلاف بينهم يرجع إليه فى شروح السنة وكتب الفقه ، والآية المذكورة فى سورة البقرة ١٨٥ .

وأن حرمة الرفث ـــ الجماع ومثله الأكل والشرب ـــ فى ليلة الصيام بعد النوم أو صلاة العشاء كانت ثابتة بالسنة ، وقد نسخت بالإباحة الثابتة بالقرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم .. ﴾ الآية[1] .

الرابع : نسخ السنة بالسنة :

وقد أجاز جمهور العلماء هذا النوع ، ومن أمثلته قوله ﷺ : « إنما الماء من الماء » ، نسخ بقوله ﷺ : إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب الغسل »[2] .

---

(١) انظر المسند للإمام أحمد جـ ٥ ص ٢٤٦ ، وانظر أقوال الصحابة والتابعين فى هذه المسألة كمعاذ بن جبل وعبد الله بن عباس والبراء بن عازب وأبى هريرة وكعب ابن مالك ، وقتادة بن دعامة السدوسى وغيرهم رضى الله عنهم ورحمهم فى جامع البيان للطبرى جـ ٢ ص ١٦٣ ـــ ١٦٧ ، وتفسير الحافظ ابن كثير جـ ١ ص ٢١٣ ـــ ٢٢٤ ، وغيرهما .
والآية المذكورة فى سورة البقرة ١٨٧ .

(٢) انظر صحيح البخارى كتاب الغسل باب إذا التقى الختانان جـ ١ ص ٧٧ ، وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب الحيض باب بيان أن الجماع كان فى أول الإسلام لا يوجب الغسل إلا أن ينزل المنى وبيان نسخه وأن الغسل يجب بالجماع جـ ١ ص ٦٤٧ ومابعدها ، وسنن ابن ماجه كتاب الطهارة باب الماء من الماء وباب ما جاء فى وجوب الغسل إذا التقى الختانان ص ١٩٩ ـــ ٢٠٠ ، وسنن أبى داود كتاب الطهارة باب فى الإكسال جـ ١ ص ٥٥ ـــ ٥٦ ، وسنن الترمذى أبواب الطهارة باب ما جاء : إذا التقى الختانان وجب الغسل وباب ما جاء : أن الماء من الماء جـ ١ ص ٧٢ ـــ ٧٤ ، وسنن الدارمى كتاب الطهارة باب الماء من الماء وباب فى مس الختان الختان جـ ١ ص ١٩٤ . =

ومثل نسخ الوضوء مما مسته النار بأكله ﷺ من الشاة وقيامه للصلاة ولم يتوضأ »(١) .

وقوله ﷺ : كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تزهد فى الدنيا وتذكر الآخرة ولا تقولوا هجرا »(٢) أى سوءا .

وحديث ابن عمر رضى الله عنهما : أن النبى ﷺ قال : لا يأكل أحدكم من أضحيته فوق ثلاثة أيام » ، وقد نسخ هذا بحديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : « كنا مع رسول الله ﷺ نتزود لحوم الأضاحى إلى المدينة ، وقد قال ﷺ فى ذلك : كنت نهيتكم عن لحوم الأضاحى ألا فكلوا منها وتزودوا »(٣) .

= والحديث الأول مروى عن أبى سعيد الخدرى وأبى بن كعب وعثمان بن عفان وأبى أيوب الأنصارى ، والثانى مروى عن أبى هريرة وأبى موسى الأشعرى وغيرهما رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

(١) سبق تخريجه فى « تعريف النسخ » .

(٢) سبق تخريجه فى « طرق معرفة النسخ » :

ومما يدل على جواز نسخ السنة بالسنة — كما هو رأى جمهور العلماء — ما رواه مسلم بسنده عن أبى العلاء بن الشخير — وهو من التابعين واسمه يزيد بن عبد الله بن الشخير — قال : كان رسول الله ﷺ ينسخ حديثه بعضه بعضا كما ينسخ القرآن بعضه بعضا » ، انظر صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الحيض جـ ١ ص ٦٤٧ .

(٣) انظر الروايات فى صحيح البخارى كتاب الأضاحى باب ما يؤكل من لحوم الأضاحى وما يتزود منها جـ ٧ ص ١٣٣ — ١٣٥ ، وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب الأضاحى باب بيان ما كان من النهى عن أكل لحوم الأضاحى بعد ثلاث فى الإسلام وبيان نسخه وإباحته إلى متى شاء جـ ٤ ص ٦٤٥ — ٦٥٠ ، وسنن ابن ماجه كتاب الأضاحى باب ادخار لحوم الأضاحى ص ١٠٥٥ ، وسنن الترمذى أبواب الأضاحى باب فى كراهية أكل الأضحية فوق ثلاثة أيام وباب الرخصة فى أكلها بعد ثلاث جـ ٣ ص ٣٣ — ٣٤ ، وسنن النسائى كتاب الضحايا باب =

والمثالان الأخيران ـــ أى المتحدث عن زيارة القبور والمتحدث عن لحوم الأضاحى ـــ اشتمل كل منهما على المنسوخ والناسخ معا .

ولم يجز أكثر العلماء نسخ السنة المتواترة بالسنة الآحادية ، واستندوا فى ذلك إلى ما استندوا إليه فى منع نسخ القرآن بالسنة .

والجواب : الجواب .

أما نسخ السنة المتواترة بالسنة المتواترة ، والسنة الآحادية بالسنة الآحادية ، والسنة الآحادية بالسنة المتواترة فهو جائز بلا خلاف بين العلماء ، رحمهم الله تعالى .

ب ـــ نسخ التلاوة والحكم

وينقسم النسخ بالنظر إلى التلاوة والحكم إلى ثلاثة أقسام :

نسخ التلاوة دون الحكم .
نسخ الحكم دون التلاوة .
نسخ التلاوة والحكم معا .

وهذا التقسيم والتنويع هو المراد من تقسيم النسخ عند الإطلاق لدى

= النهى عن الأكل من لحوم الأضاحى بعد ثلاث وعن إمساكـه ، والإذن فى ذلك ، والادخار منها جـ ٧ ص ٢٣٢ ـــ ٢٣٦ ، وسنن أبى داود كتاب الأضاحى باب فى حبس لحوم الأضاحى جـ ٣ ص ٩٩ ـــ ١٠٠ ، وسنن الدارمى كتاب الأضاحى باب فى لحوم الأضاحى جـ ٢ ص ٧٨ ـــ ٨٠ ، والموطأ للإمام مالك كتاب الضحايا باب ادخار لحوم الأضاحى ص ٢٩٩ ـــ ٣٠٠ ، وانظر أيضا كتاب : معرفة علوم الحديث للحاكم ص ٨٧ ، والحديث الأول مروى عن على بن أبى طالب وعبد الله بن عمر وعبد الله بن واقد وأنس بن مالك وغيرهم ، والثانى عن جابر بن عبد الله وأبى سعيد الخدرى وسلمة بن الأكوع وبريدة وابن مسعود وغيرهم رضى الله تعالى عنهم .

العلماء حين يقال : « أقسام النسخ فى القرآن » ، أو « أنواع النسخ فى القرآن » ، وهو أهم ما اشتغل به علماء هذا الفن وبذلوا فيه الجهد .

فالقسم الأول : وهو ما نسخت تلاوته ــ أى ألفاظه ــ وبقى حكمه يعمل بحكمه فقط ، ومن أمثلته آية : ﴿ الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة بما قضيا من اللذة ... ﴾ فقد روى أنها كانت آية فى سورة النور ، وقيل فى سورة الأحزاب ، ثم نسخت تلاوتها وبقى حكمها ، ومعلوم أن الرجم للزانى المحصن والزانية المحصنة باق وثابت فى الفقه الإسلامى ، والأمة مطالبة على سبيل الوجوب بتنفيذ هذا الحد ، ولذا كان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يخشى ضياع هذا الحكم ونسيانه بسبب نسخ تلاوة آيته فكان يذكّر به كثيرا ويوصى به [1].

والحكمة فى رفع التلاوة وبقاء الحكم :

أن يظهر مقدار طاعة هذه الأمة فى المسارعة إلى بذل النفوس بطريق الظن من غير استفصال لطلب طريق مقطوع به ، فيسرعون بأيسر شىء كما سارع الخليل إبراهيم إلى ذبح ولده برؤيا منامية ، والرؤيا المنامية أدنى طرق الوحى .

وفى نسخ التلاوة فقط وبقاء الحكم الذى تقرر فى قلوب المسلمين

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الحدود باب حد الزنا جـ ٤ ص ٢٦٧ ــ ٢٦٨ ، وسنن الترمذى أبواب الحدود باب ما جاء فى تحقيق الرجم جـ ٢ ص ٤٤٢ ، وسنن أبى داود كتاب الحدود باب فى الرجم جـ ٤ ص ١٤٥ ، وسنن ابن ماجه كتاب الحدود باب الرجم ص ٨٥٣ ، وسنن الدارمى كتاب الحدود باب فى حد المحصنين بالزناء جـ ٢ ص ١٧٩ ، والموطأ للإمام مالك كتاب الحدود باب ما جاء فى الرجم ص ٥١٥ ، وهو مروى عن ابن عباس وزيد بن ثابت وغيرهما رضى الله تعالى عنهم .

وتمكن فى نفوسهم ورسخ فى أذهانهم رحمة بالأمة وتيسير لها فى حفظ كتاب ربها واستظهاره وصنونه وحمله حيث صارت نصوصه التى لم تنسخ تلاوتها معدودة محدودة .

ثم إن فى نسخ تلاوة هذه الآية : إشارة إلى شناعة الزنا وبشاعته ، وشدة قبحه ومقته ونكارته ، وتنفيرا شديدا منه ، ورفقا بالأمة حتى لايقرع آذانها ولا يسامت أعينها فى الصباح والمساء وكل وقت هذا الحكم إذ هو أثقل الأحكام وأشدها ، وأصعبها وأغلظها ، كما أن فيه إشارة إلى ندب الستر فى هذه الأمور حيث ستر الله حكمها بنسخ تلاوتها[1] .

وقد أنكر بعض العلماء هذا النوع من النسخ بحجة أن الأخبار الواردة فيه أخبار آحاد ، ولا يثبت القرآن بأخبار الآحاد .

وأرى أن الروايات الواردة فى هذا القسم المتضمنة معانى الآيات المنسوخة اللفظ الباقية الحكم روايات آحادية ، لكن الآيات قبل نسخها كانت متواترة وكانت قرآنا ، فلما نسخت ألفاظها خرجت عن كونها قرآنا ، لكن حكمها باق ، والعبرة إذاً بالحكم وبقائه لا بألفاظ آياته .

وفى مسألة الرجم ذكر الإمام الشوكانى فى كتابه (نيل الأوطار) أن الرجم مجمع عليه من العلماء ، وأنه ثبت بالسنة المتواترة المجمع عليها ، كما أنه ثابت بنص القرآن لحديث عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — عند الجماعة أنه قال :

« كان مما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آية الرجم فقرأناها ووعيناها ، ورجم رسول الله ﷺ وآله وسلم ورجمنا بعده » .

---

(١) انظر البرهان للزركشى جـ ٢ ص ٣٧ ، والإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ٢٥ـ ٢٦ .

ونسخ التلاوة لا يستلزم نسخ الحكم ، كما أخرجه أبو داود من حديث ابن عباس ، وقد أخرج أحمد والطبرانى فى الكبير من حديث أبى أمامة بن سهل عن خالته العجماء : « إن فيما أنزل الله من القرآن : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة بما قضيا من اللذة » ، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى بن كعب بلفظ : « كانت سورة الأحزاب توازى سورة البقرة وكان فيها آية الرجم : « الشيخ والشيخة ... » الحديث [1].

القسم الثانى :

مارفع حكمه وبقيت تلاوته ، وهذا القسم هو الكثير الغالب ، وهو الذى ألفت فيه المؤلفات ، وكثر فيه القول كما كثر فيه عدد الآيات الناسخة والمنسوخة .

ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج ... ﴾ الآية [2].

قال الإمام بدر الدين الزركشى :

كانت المرأة إذا مات زوجها لزمت التربص بعد انقضاء العدة حولا كاملا ، ونفقتها فى مال الزوج ولا ميراث لها ، وهذا معنى قوله : ﴿ متاعا إلى الحول غير إخراج ﴾ الآية ، فنسخ الله ذلك بقوله : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربص بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ﴾ أهـ [3].

---

(١) انظر نيل الأوطار كتاب الحدود باب ما جاء فى رجم الزانى المحصن وجلد البكر وتغريبه جـ ٧ ص ١٠٢ .

(٢) سورة البقرة ٢٤٠ .

(٣) انظر البرهان للزركشى جـ ٢ ص ٣٧ ، والآية من سورة البقرة ٢٣٤ ، وهذه الآية والآية الأخرى كل منهما خبرية لفظا انشائية معنى ، وبعض العلماء جمع بينهما =

ولا يضر ان هذا الناسخ مقدم فى النظم والترتيب على المنسوخ فهو وإن تقدم نظما وترتيبا متأخر نزولا وزمنا ، والعبرة فى النسخ بترتيب النزول لا بترتيب المصحف .

والحكمة فى رفع الحكم وبقاء التلاوة :

أن يتعبد الإنسان بتلاوة كلام الله تبارك وتعالى ، ويثاب على القراءة فى الصلاة وخارجها ، وأن يتذكر نعمة الله عليه وفضله ومنته ورحمته ورأفته حيث رفع المشقة عنه وأزال العنت وخفف الحكم برفعه .

ثم إن بقاء التلاوة يثرى اللغة العربية وفنونها ، ويمنح الإنسان عظم البلاغة وبديع الفصاحة وجمال الإعجاز وروعة الألفاظ والمتعة النفسية واللذة الروحية والعقلية .

وقد أنكر بعض العلماء هذا القسم بشبهة :

أ ــ أن التلاوة والحكم المستفاد منها متلازمان فلا يصح نسخ أحدهما دون الآخر .

ب ــ وأن نسخ الحكم دون التلاوة يجعل التلاوة خالية من الفائدة .

جـ ــ وأن نسخ الحكم مع بقاء التلاوة يوهم بقاء الحكم ، وهذا يلبس على المكلف ويصيره عرضة للجهل والخلط فى الشريعة والأحكام .

ونرد على هذه الشبهة :

أ ــ بأن دعوى التلازم بين التلاوة والحكم تتأتى إن لم يوجد معارض وهو الناسخ ، أما إذا وجد المعارض وهو الناسخ فإن التلازم بينهما ينفك ، ويجوز نسخ التلاوة فقط ، ويجوز نسخ الحكم فقط .

= لكن فى جمعه بينهما تكلف والأولى القول بالنسخ .

ب ـــ وأن الآية بعد نسخ حكمها لا تخلو من الفائدة ، ففى بقائها تذكير بنعمه الله وفضله إذا كان الحكم المنسوخ أثقل ، واختبار وابتلاء بالانقياد والتسليم والإذعان إذا كان الحكم المنسوخ أخف ، وفى تلاوتها تعبد جليل وأجر جزيل ، وفى وجودها عطاء لغوى ودعوة إلى عقيدة أو خصلة من خصال الخير والبر والهدى والتقوى ، كما أن فى وجودها بقاء للاعجاز واستمرارا للتحدى .

جـ وأن نسخ الحكم مع بقاء التلاوة لا يلبس على المكلف ولا يعرضه للجهل والخلط فى الأحكام كما يقال ، لأن النسخ لا يكون إلا بدليل معلوم للمكلف ، وإذا علم المكلف الدليل الناسخ زال الجهل عنه وانتفى اللبس عليه وبُعد احتمال الخلط فى الأحكام لديه .

القسم الثالث :

نسخ التلاوة والحكم معا ، وإذا نسخت التلاوة والحكم فلا يجوز قراءة الآية المنسوخة على أنها قرآن ، كذلك لا يجوز العمل بالحكم المنسوخ .

وقد أجاز العلماء نسخ التلاوة والحكم جميعا ، ومن أمثلته قول عائشة رضى الله تعالى عنها :

« كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ، ثم نسخن بخمس معلومات ، فتوفى رسول الله ﷺ وهن مما يقرأ من القرآن » ، قال أبو موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه : « نزلت ثم رفعت »[1].

---

(١) سبق تخريجه فى « طرق معرفة النسخ » ، وانظر الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ٢ ص ٢٢ ، وفى قول عائشة رضى الله تعالى عنها جمع بين المنسوخ والناسخ . ولا تظن ـــ أرشدنى الله وإياك ـــ أن قولها هذا هو نص الآية القرآنية التى =

فالتحريم بعشر رضعات كان قرآنا يتلى ثم نسخ تلاوة وحكما ، والناسخ هو خمس رضعات معلومات ، والخمس المعلومات المحرمات نسخت تلاوة وبقيت حكما ، وقد أخذ الإمام الشافعي بهذه الآية المنسوخة التلاوة الباقية الحكم .

وقول عائشة رضي الله تعالى عنها : « توفي رسول الله ﷺ وهن مما يقرأ من القرآن » ، ليس معناه أن تلاوتها باقية وإنما المراد من كلامها : أن رسول الله ﷺ قارب الوفاة وهن مما يقرأ من القرآن لتأخر نسخهن .

أو أن تلاوتها نسخت ولم يعلم بذلك كل الصحابة إلا بعد وفاة رسول الله ﷺ فتوفي وبعضهم كان يقرؤها لجهله بنسخها ولما علم بنسخها أهملها وترك قراءتها .

وأنكر بعض العلماء هذا القسم بدعوى أن الأخبار فيه أخبار آحاد ، ولا يصح أن نعول على أخبار الآحاد في إثبات نزول قرآن ونسخه .

وأقول : إن الروايات الواردة في هذا القسم تحكي معاني آيات قرآنية ، كانت تلك الآيات قرآنا متواترا ، فلما نسخت تلاوتها وحكمها زالت عنها القرآنية ، وحكت الروايات معناها ومضمونها ، فلا يضيرها آحادية الروايات ، ولا مخالفتها لرسم المصاحف العثمانية أو اللغة العربية لانتفاء القرآنية عنها بعد نسخها .

= نسخت ، لأن قولها المذكور ليست فيه سمات القرآن الكريم ولا فصاحته وبلاغته ونضارته وعذوبته وسلاسته ، وإنما الذي قالته رضي الله عنها حكاية منها لمعنى آية قرآنية نسخت بآية قرآنية أخرى ، ونسخت الأخرى تلاوة ، فتنبه .

جـ ـ النسخ ببدل وبغير بدل

وينقسم النسخ بالنظر إلى البدل وغيره إلى قسمين :

الأول : نسخ ببدل ، وهو الكثير الغالب ، وأمثلته كثيرة ، ومرت له أمثلة .

الثانى : نسخ بدون بدل ، وهو قليل ، وقد أجازه جمهور العلماء .

ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر ... ﴾ الآية .

نسخ الأمر بالتصدق على الفقراء والمساكين أمام مناجاة رسول الله ﷺ بالآية التى تعقبها وهى قوله تعالى : ﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله ﴾[1] .

وهو نسخ للحكم بدون بدل ، وفى هذا تخفيف عن المكلفين ورحمة بهم وتفضل من الله تعالى عليهم وتذكيرهم بنعم الله الجديرة بالشكر .

ولم يجز بعض العلماء كالظاهرية وبعض المعتزلة النسخ بدون بدل

---

(١) سورة المجادلة ١٢ ـــ ١٣ ، وفى تقديم الصدقة إلى الفقراء قبيل مناجاته ﷺ حكم وفوائد منها : / إجلال الرسول ﷺ وإعظام مناجاته فإن الإنسان إذا توصل إلى شيء يريده ويبغيه مع مشقة عظم هذا الشيء فى نظره وإذا توصل إليه بسهولة ويسر لا يكون عظيما فى نظره وربما احتقره ، / ونفع الفقراء والمساكين من الصحابة رضى الله تعالى عنهم بتلك الصدقة المقدمة قبيل المناجاة ، / وابتلاء المؤمنين وتمحيصهم فيظهر قوى الإيمان من ضعيفه ومحب المال الحريص عليه من الكريم السخى الباذل له فإن المال محك الدواعى ، / والتقليل من كثرة المناجاة والأسئلة التى كانوا يوجهونها إليه ﷺ وترهقه وتشق عليه ، فشرع هذا الحكم لتقل مناجاتهم له صلى الله تعالى عليه وآله وسلم تسليما كثيرا .

مستندين إلى قوله تعالى : ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ... ﴾ [1] حيث أفادت هذه الآية الكريمة أن الحكم المنسوخ يأتى مكانه حكم آخر يكون خيرا منه أو مثله .

والجواب : أن الله تبارك وتعالى إذا نسخ حكما ولم ينزل حكما آخر مكانه فإن ذلك يكون راجعا إلى مقتضى حكمته وكامل إرادته ورعاية مصالح عباده وأحوالهم وأطوارهم ، ويكون عدم الحكم خيرا من الحكم الذى نسخه فى نفعه للناس وخيريته لهم ومواكبته لمصالحهم وشئونهم ، إن ربنا لرءوف رحيم ولطيف خبير .

د ــ النسخ بالنظر إلى الخفة والثقل

ويتنوع النسخ بالنظر إلى الخفة والثقل إلى ثلاثة أنواع :

الأول : نسخ الحكم ببدل أخف على المكلف ، وهو الغالب والكثير .

وفيه رأفة من الله تعالى بعباده ورحمة وتفضل عليهم وشفقة بهم ، ﴿ وربك الغنى ذو الرحمة ﴾ [2].

ومن أمثلته قول الله تعالى : ﴿ .... إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ :

خفف الله هذا الحكم الذى تضمنته هذه الآية بحكم جاء فى الآية التى عقبها وهى قوله تعالى : ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ [3].

---

(1) سورة البقرة ١٠٦ . (2) سورة الأنعام ١٣٣ .

(3) سورة الأنفال ٦٥ ــ ٦٦ ، ومر كلام عن هاتين الآيتين فى « ما يقع فيه=

ومثلهما الآيتان فى سورة البقرة فى عدة المتوفى عنها زوجها ، ومر الكلام قريبا عنهما [١].

الثانى : نسخ الحكم بحكم مساوى ، كنسخ وجوب التوجه إلى بيت المقدس بالشام بوجوب التوجه إلى الكعبة بمكة المكرمة فى قوله تعالى : ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ماكنتم فولوا وجوهكم شطره .. ﴾ الآيات [٢].

وفيه ابتلاء للعباد واختبار لمدى إيمانهم واستمساكهم بدينهم وإذعانهم لربهم سبحانه جل وعلا .

الثالث : نسخ الحكم بحكم أثقل على المكلف ، وهو قليل .

ومن أمثلته : نسخ وجوب صوم يوم عاشوراء بوجوب صوم شهر رمضان ، أخرج الشيخان وغيرهما بسندهم إلى عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : « كان عاشوراء صياما فلما أنزل رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر » [٣].

ومنع بعض العلماء هذا النوع بحجة أن الله سبحانه وتعالى يريد بنا اليسر والتخفيف ولا يريد بنا العسر والتشديد كما قال : ﴿ يريد الله بكم

= النسخ » وفى « طرق معرفة النسخ » .

(١) هما رقم ٢٣٤ ــ ٢٤٠ من سورة البقرة ، وسبق كلام عنهما فى « ما رفع حكمه وبقيت تلاوته » .

(٢) انظر سورة البقرة ١٤٤ ــ ١٤٩ ــ ١٥٠ ، ومر كلام عن ذلك فى « نسخ السنة المطهرة بالقرآن الكريم » .

(٣) سبق الكلام عن نسخ وجوب صوم عاشوراء وتخريج الروايات فى « نسخ السنة بالقرآن » .

اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾(1) ، وقال : ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾(2)، وقال : ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ﴾(3)، وقال ﴿ وقال : ﴿ هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾(4).

والجواب : أن نسخ الحكم بحكم ثقيل أو أثقل لا يتنافى مع تيسير الله وتخفيفه ورحمته ورأفته بنا ، وأن العسر واليسر والخفة والثقل أمور إضافية ونسبية ، فكل حكم خفيف يعتبر ثقيلا بالإضافة إلى ماهو أخف منه ، وكل حكم ثقيل يعتبر خفيفا بالإضافة إلى ماهو أثقل منه ، فكل حكم شرعه الله تعالى لنا هو يسير لأن فوقه فى علم الله ما هو عسير علينا وشاق بنا وكان من الممكن أن يكلفنا الله بما هو شاق وعسير ﴿ ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم ﴾(5).

ثم إن نسخ الحكم الأخف بالحكم الأثقل أمر واقع وله أمثلته ولا سبيل إلى إنكاره ، ومنعه .

وفيه ابتلاء واختيار للعباد ليظهر المطيع المبادر بالتنفيذ والإذعان من المتباطىء المتقاعس الكسلان ، وفيه كذلك زيادة الأجر وإجزال الثواب ومضاعفته ، وفيه أيضا الأخذ بأيديهم والتدرج بهم إلى درجة الكمال على مهل وتؤدة ومراعاة لأحوالهم وظروفهم ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾(6).

---

(1) سورة البقرة ١٨٥ .

(2) سورة النساء ٢٨

(3) سورة المائدة ٦ .

(4) سورة الحج ٧٨ .

(5) سورة البقرة ٢٢٠ .

(6) سورة فصلت ٤٦ .

نسخ الطلب قبل امتثاله

قد يأمر الله تعالى عباده بأمر ثم ينسخه قبل أن يمتثل المكلفون هذا الأمر ويطبقوه ويعملوا به ، وقد أجاز هذا اللون من النسخ كثير من العلماء ومنهم الإمام أحمد رحمهم الله ، وضربوا له أمثلة تدل على وقوعه ، ولا شك أن الوقوع يستلزم الجواز .

فمن أمثلته : أن الله سبحانه أمر سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام بذبح ولده عليه السلام ، وقد نسخ الله تعالى هذا الأمر قبل أن يتحقق الذبح ويقع المأمور به بالفعل كما ذكر فى سورة الصافات .

وينبغى أن تعلم — أخى القارىء — أن الذبيح الحق هو إسماعيل عليه السلام وهو الموصوف بالغلام الحليم الصادق الوعد وتضافرت على ذلك الأدلة بل ذكره إنجيل برنابا [1].

أما إسحق عليه السلام فليس هو الذبيح ، وهو الموصوف بالغلام العليم .

---

(١) اعترف هذا الإنجيل بأربع حقائق مهمة وأساسية وجوهرية تطابق ما جاء فى الإسلام الحنيف وهى :

أ — أن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله وليس إلها ولا ابنا للإله سبحانه .

ب — أن عيسى عليه السلام بشر بأحمد ، وأحمد هو محمد ﷺ .

جـ — أن عيسى عليه السلام لم يقتل ولم يصلب وإنما رفع حيا ، والذى قتل هو يهوذا ألقى الله شبه عيسى عليه فقتل يهوذا وصلب .

د — أن الذبيح الحق هو إسماعيل عليه السلام وليس إسحق عليه السلام .

وهذا الإنجيل طبعته مطبعة المنار ومطبعة محمد على صبيح وترجمه من الإنجليزية إلى العربية الدكتور خليل سعادة ، وقدم له وعلق عليه الشيخ محمد رشيد رضا ، وهو متداول بالمكتبات .

ومن أمثلته : أن الله تعالى فرض علينا فى ليلة الإسراء والمعراج خمسين صلاة فى اليوم والليلة ، ونسخ الله هذا العدد وجعله خمسا فقط بدلا من خمسين قبل أن يصلى أحد من المسلمين الخمسين وينفذ هذا الأمر الإلهى .

ومن أمثلته : أن الله تبارك وتعالى أمر المؤمنين فى سورة المجادلة بالتصدق على الفقراء والمساكين قبيل المناجاة مع رسول الله ﷺ ، ونسخ الله هذا الحكم قبل أن ينفذه ويعمل به أحد من المؤمنين .

وما قيل من أن على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه هو الذى عمل به وحده دون غيره من الصحابة ضعيف ، والظاهر أنه من صنع الشيعة واختلاقهم وابتداعهم ، إذ يبعد كل البعد أن يتقاعس أكابر الصحابة ويتكاسلوا عن العمل به — وهم أحرص الناس على فعل الخير ومجالسة رسول الله ﷺ والأنس بجواره وحضور مجلسه وتفقد أخبار الوحى إليه وتلقفه منه وفيهم كتبة وحيه وفيهم أبو بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان الحيى ذو النورين وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من الأكابر والأماجد ذوى التدين الموفور والثراء والغنى — ولا يعمل به إلا على بن أبى طالب وحده .

﴿ إن هذا لشىء عجاب ﴾[1].

قال عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما عن آية النجوى التى فيها أمر بالتصدق قبيل المناجاة مع رسول الله ﷺ قال : هى منسوخة بالآية التى بعدها أهـ .

وقال ابن جزى الكلبى رحمه الله عند تفسيره للآية : وهذه الآية منسوخة باتفاق ، نسختها الآية التى بعدها أهـ .

وقال القرطبى رحمه الله أثناء تفسيره لها : هذا يدل على جواز النسخ

---

(١) سورة ص ٥ .

قبل الفعل ، وما روى عن على رضى الله عنه من أنه لم يعمل بهذا الحكم أحد غيره فضعيف لأن الله تعالى قال : ﴿ فإذ لم تفعلوا ﴾ ، وهذا يدل على أن أحدا لم يتصدق بشىء والله أعلم أهـ .

وقال ابن عطية رحمه الله — كما نقل السيوطى — : قال جماعة : لم يعمل بهذه الآية ، بل نسخ حكمها قبل العمل أهـ .

وقال قتادة بن دعامة السدوسى وهو من كبار التابعين بالكوفة وغيره : بقى هذا الحكم ساعة من نهار أهـ (١).

وأنكر بعض العلماء ومنهم أصحاب أبى حنيفة وجمهور المعتزلة وأبو الحسن التميمى المعروف بابن النجار هذا النوع من النسخ بدعوى : أن نسخ الأمر قبل أن يعمل به أحد يلزمه عبث الآمر لأن الأمر بالشىء معناه أن الآمر يطلب تحصيله من المأمور ، والله لا يأمر عباده بأمر قضى وأراد أن لا ينفذه أحد .

ثم إنه لا فائدة من الأمر الذى لم ينفذ حيث لا أثر له فى الخارج من المأمور .

والجواب : أن النسخ قبل العمل بالحكم مثل النسخ بعد العمل به فى الجواز والوقوع ولا يترتب عليه محال عقلى .

---

(١) انظر الكشاف للزمخشرى جـ ٤ ص ٧٦ ، والبحر المحيط لأبى حيان جـ ٨ ص ٢٣٧ ، وتفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٢٦ ، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى جـ ٤ ص ١٠٥ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى ص ٦٤٧٣ ، والتحبير فى علم التفسير للسيوطى ص ٢٦١ — ٢٦٢ .

وليس المقصود بالساعة التى ذكرها قتادة وغيره : الساعة الزمنية المعروفة لنا ، بل المراد بها مطلق الوقت .

والحكمة فى هذا : ابتلاء الله للمكلف واختباره وإظهار مدى امتثاله لأمر ربه فيزداد ثوابه وتعلو منزلته ، وإظهار فضل الله تعالى عليه ورحمته به فيكثر الشكر له ويستجلب الأجر منه .

وربما توجد حكم أخرى لا نعلمها ، فخفاء الحكمة وجهلنا بها لا ينفى وجود الحكمة ، ولا يمنع وقوع هذا النوع من النسخ ، فلله سبحانه وتعالى أوامر نجهل حكمتها ، ويخفى علينا مراد الله منها كتقبيل الحجر الأسود ، والطواف بالكعبة وفى اتجاه معين ، والسعى بين الصفا والمروة ، والوقوف بعرفات ، ورمى الجمرات ، والمبيت بمنى ،... وغير ذلك من الأحكام التعبدية التى لا نعلم بيقين وقطع حكمة الله تعالى ومراده منها .

وتعالى الله الملك الحق المبين عن العبث وحاشاه من قياس صفاته على صفات خلقه ، وهو درب سار فيه المعتزلة ومن على شاكلتهم وسار فى ركابهم وحطب فى حبلهم .

موقف العلماء من النسخ

تنوع موقف العلماء من النسخ ، وسلكوا فيه ثلاثة مسالك :

أ — فبعضهم منع النسخ وعمل على التخلص منه سالكا مسلك التأويل بالتخصيص ونحوه ، محاولا الجمع بين الآيات المتعارضة ولو كان وجه الجمع متكلفا ومتعسفا ، كأبي مسلم الأصبهاني وأضرابه ، وسبق الكلام عن ذلك .

ب — وبعضهم أفرطوا في النسخ وأكثروا من ضرب الأمثلة له توهما واشتباها ، فعدوا من النسخ :

١ — ما شرعه الله تعالى لسبب ثم زال السبب ، عدوه من النسخ مع أنه ليس منه كآيات العفو والصفح والصبر مع آيات القتال .

٢ — رفع ما كان عليه أهل الجاهلية ، وكذلك رفع شرائع من قبلنا ، حسبوا ذلك من النسخ وما هو منه ، كتحريم نكاح نساء الآباء (١)، وقصر الرجل على أربع نسوة (٢) ومشروعية القصاص والدية (٣)، وحصر الطلاق

(١) ذكره الله في قوله سبحانه : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا ﴾ — سورة النساء ٢٢ —.

(٢) قال تعالى : ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾ ... الآية — سورة النساء ٣ —.

(٣) قال جل وعلا : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون ﴾ — سورة البقرة ١٧٨ — =

فى ثلاث طلقات [1].

٣ ــ ما كان من قبيل تخصيص العام وتقييد المطلق والاستثناء ، اعتبروه من النسخ ، والحال أنه غيره كالآيات التى فيها استثناء والآيات المغياة أحكامها بغاية ، كقوله تعالى : والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا ... الآية [2] ، وقوله تعالى : ﴿ والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر [3] ، وقوله تعالى : ﴿ .... فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره ﴾ [4] .

٤ ــ ماكان من قبيل البيان ، حسبوه نسخا وليس به ، كقوله تعالى : ﴿ ... ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ﴾ [5] ، قالوا إنه ناسخ لقوله تعالى : ﴿ .... إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ﴾ [6] .

والحق أن لانسخ هنا فالآية الأولى بينت مالا يعد ظلما من أكل أموال اليتامى ، والآية الثانية بينت جزاء آكلى أموالهم بظلم وبغى ، ولاتعارض بين الآيتين .

= ١٧٩ ــ وانظر سورة النساء الآية رقم ٩٢ ــ .

(١) قال تعالى : ﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ ... الآيات من سورة البقرة ٢٢٩ ــ ٢٣٢ .
وانظر ما ورد فى هذه المسائل من أحاديث فى الكتب الحديثية ، ومواطنها فيها لا تخفى على فطنة القارىء .

(٢) سورة الشعراء ٢٢٤ ــ ٢٢٧ .　　(٣) سورة العصر .

(٤) سورة البقرة ١٠٩ .　　(٥)ــ(٦) سورة النساء ٦ ــ ١٠ .

٥ ـــ ما ظاهره التعارض ، أطلقوا القول عليه بالنسخ من أول نظرة وبلا بذل جهد ، مع أنه لا تعارض فى الحقيقة والواقع ، والجمع سهل ووجيه بأدنى تأمل ، كالآيات الآمرة بالإنفاق مع آيات الزكاة ، فبعضهم توهم أن آيات الزكاة ناسخة لكل صدقة فى القرآن الكريم .

مع أنها ليست بناسخة للآيات الآمرة بالإنفاق والتصدق ، إذ الجمع بينهما ممكن بأن نقول : إن آيات الزكاة فى الزكاة الواجبة المفروضة ، وآيات الإنفاق فى الصدقات المستحبة والمتطوع بها فهى معروف وتعاطف وتكافل زائد على الغرض .

وكقوله تعالى فى شأن المنافقين فى سورة النساء : ﴿ أولئك الذين يعلم الله مافى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا ﴾[1] ، حيث جمعت الآية بين الأمر بالإعراض عنهم ، والأمر بوعظهم ونصحهم .

والجمع بين الجملتين فى الآية الكريمة الحكيمة سهل لأن المراد بالإعراض عنهم الإعراض عن معاقبتهم ومجازاتهم السيئة بالسيئة ، وليس المراد به القطيعة وانبتات الصلة والتلاقى والوعظ والإرشاد بدليل سياق الآيات .

ومن هذا الفريق الولوع بالإكثار من أمثلة النسخ لمجرد الاشتباه : السدى الكبير إسماعيل بن عبد الرحمن ، وأبو جعفر النحاس ، وأبو عبد الله محمد ابن حزم الأندلسى ، وهبة الله بن سلامة الضرير ، وغيرهم .

وبلغ من إفراط بعضهم كابن خزيمة الفارسى أن قال بأن آية السيف وهى قوله تعالى : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ... ﴾ الآية[2] ، نسخت ١١٣ ثلاث عشرة ومائة آية فى القرآن الكريم .

(١) سورة النساء ٦٣ .

(٢) سورة التوبة ٥

بل حكى الجلال السيوطى عن بعضهم أنها نسخت ١٢٤ أربعا وعشرين ومائة آية فى القرآن المجيد [1].

بل جعلوا من القرآن آيات أولها منسوخ بآخرها ، ومن أمثلة ذلك فى نظرهم قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ...﴾ الآية [2] ،

أى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ناسخ لقوله ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ .

وجعلوا الناسخ منسوخا بناسخ آخر فى بعض الأمثلة من القرآن الكريم وتكلفوا التوجيهات وتعسفوا التأويلات .

وقسموا سور القرآن العظيم من حيث النسخ إلى أربعة أقسام :

١ ـــ سور تضمنت الناسخ والمنسوخ ، وقالوا إنها خمس وعشرون سورة وهى :

سورة البقرة ، وآل عمران،والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة ، وإبراهيم عليه السلام ، والنحل ، ومريم ، والأنبياء عليهم السلام ، والحج ، والنور ، والفرقان ، والشعراء ، والأحزاب ، وسبأ ، وغافر ، والشورى ، والذاريات ، والطور ، والواقعة ، والمجادلة ، والمزمل ، والتكوير ، والعصر .

٢ ـــ وسور اشتملت على المنسوخ دون الناسخ ، وقالوا إنها أربعون سورة هى :

سورة الأنعام ، والأعراف ، ويونس عليه السلام ، وهود عليه السلام ، والرعد ، والحجر ، والإسراء ، والكهف ، وطه ، والمؤمنون ، والنمل ،

---

(١) انظر التحبير فى علم التفسير للسيوطى ص ٢٥٢ .

(٢) سورة المائدة ١٠٥ ، ولا تعارض بين الآية وبين الآيات الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر كما أنه لا تعارض بين أول الآية وآخرها .

والقصص ، والعنكبوت ، والروم ، ولقمان ، والسجدة ، وفاطر ، والصافات ، وص ، والزمر ، وفصلت ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والأحقاف ، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وق ، والنجم ، والقمر ، والممتحنة ، ون ، والمعارج ، والمدثر ، والقيامة ، والإنسان ، والأعمى ، والطارق ، والغاشية ، والتين ، والكافرون .

٣ — وسور اشتملت على الناسخ دون المنسوخ ، وقالوا هى ست سور وهى :

سورة الفتح ، والحشر ، والمنافقون ، والتغابن ، والطلاق ، والأعلى .

٤ — وسور خلت من المنسوخ والناسخ معا ، وقالوا هى ثلاث وأربعون سورة وهى :

سورة الفاتحة ، ويوسف عليه السلام ، ويس ، والحجرات ، والرحمن سبحانه وتعالى ، والحديد ، والصف ، والجمعة ، والتحريم ، والملك ، والحاقة ، ونوح عليه السلام ، والجن ، والمرسلات ، والنبأ ، والنازعات ، والانفطار ، والمطففين ، والانشقاق ، والبروج ، والفجر ، والبلد ، والشمس ، والليل ، والضحى ، والشرح ، والعلق ،والقدر ، والبينة ، والزلزلة ، والعاديات ، والقارعة ، والتكاثر ، والهمزة ، والفيل ، وقريش ، والماعون ، والكوثر ، والنصر ، والمسد ، والإخلاص ، والفلق ، والناس .

وعمدوا إلى الأقسام الثلاثة الأولى واستخرجوا الآيات من السور واختلفوا فى ذلك اختلافا كثيرا بينا .

ولاشك أن هذا المسلك إفراط وغلو ناشىء من إغرامهم وولعهم بالإكثار من أمثلة النسخ لأدنى توهم واشتباه كأن الأصل فى النصوص الشرعية النسخ ، مع أن الأصل فيها هو الإحكام لا النسخ .

وفى مسلكهم هذا تعب ونصب وكد وإضاعة وقت بلا مبررل ولاثمرة ، ولافائدة ولا عائدة ، وفيه إساءة أدب مع الله تبارك وتعالى لأنهم فتحوا الباب على مصراعيه أمام الخالطين ممن جاءوا بعدهم بين النسخ وغيره ، ومعلوم أن نسخ الآية معناه : رفع حكمها ، وإطلاق القول برفع حكم آية لم يرفع جرأة عظيمة على الله سبحانه ، ومعصية كبيرة .

وكان لمسلكهم هذا رد فعل فى نفوس من أنكروا النسخ ، فبالغوا فى الإنكار وصاروا مفرطين — بتشديد الراء — ، وصار هؤلاء مفرطين — بتخفيف الراء مع كسرها — .

وقد عاب العلامة أبو الفرج ابن الجوزى على العلماء السابقين هذا التقسيم للسور ، وسخر من الذين قسموه فى قوله :

واضح بأن التحقيق فى الناسخ والمنسوخ يظهر أن هذا الحصر تخريف من الذين حصروه والله الموافق أهـ[1] .

جـ — وبعضهم توسط وأنصف النسخ فلم يخرج منه ماهو منه ، ولم يدخل فيه ماليس منه ، ولم يكثر من أمثلته كالقاضى أبى بكر ابن العربى المعافرى ، والإمام جلال الدين السيوطى الذى حصر الآيات التى فيها مجال النسخ فى عشرين آية فقط ، واشبع الكلام عليها فى مؤلف مستقل ، ثم تكلم عنها فى كتابه الحافل : — الإتقان فى علوم القرآن — بإيجاز ، ونظمها فى عشرة أبيات وهى :

وقد أكثر الناس فى المنسوخ من عدد	وأدخلوا فيه آيا ليس تنحصر
وهاك تحرير آى لا مزيد لها	عشرين حررها الحذاق والكبر

---

(١) انظر نواسخ القرآن لابن الجوزى رحمه الله ص ١٣ — ٤٠ .

آى التوجه حيث المرء كان[١] وأن	يوصى لأهليه عند الموت محتضر[٢]
وحرمة الأكل بعد النوم مع رفث[٣]	وفدية لمطيق الصوم مشتهر[٤]
وحق تقواه فيما صح فى أثر[٥]	وفى الحرام قتال للأولى كفروا[٦]

---

(١) يعنى قوله تعالى : ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ سورة البقرة ١١٥ .

قيل إنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ : الآية سورة البقرة ١٤٤ .

(٢) يعنى قوله تعالى : ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين ﴾ سورة البقرة ١٨٠ .

قيل إنها منسوخة بالسنة ، وقيل بآية المواريث فى سورة النساء ، وسبق الكلام عن ذلك فى « نسخ القرآن بالسنة » .

(٣) يقصد قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ : الآية سورة البقرة ١٨٣ ، فإن التشبيه فى الآية يستلزم موافقة من قبلنا فيما كانوا عليه من تحريم الوطء والطعام بعد النوم أو صلاة العشاء فى ليلة الصوم .

ونسخ هذا بقوله تعالى فى نفس السورة ١٨٧ : ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن .... ﴾ الآية ، ومر الكلام عن ذلك فى نسخ السنة بالقرآن » .

(٤) يقصد قوله تعالى : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ سورة البقرة ١٨٤ ، فإن مفاد الآية تخيير من يطيق الصوم ويقدر عليه بين الصوم والإفطار مع الفدية .

قيل إنها نسخت بقوله تعالى فى نفس السورة ١٨٥ : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ ، فقد نسخت التخيير وأوجبت الصوم على من تتحقق فيه شروطه .

(٥) يعنى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ـــ سورة آل عمران ١٠٢ . =

والاعتداد بحول مع وصيتها[١] وان يدان حديث النفس والفكر[٢]
والحلف[٣] والحبس للزانى[٤] وترك أولى كفروا[٥] شهادتهم[٦] والصبر[٧] والنفر[٨]

= قيل إنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم .. ﴾ الآية — سورة التغابن ١٦ —

(٦) يقصد قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ﴾ الآية — سورة البقرة ٢١٧ .

قيل إنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾ — سورة البقرة ١٩١ ، وبقوله تعالى : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ سورة التوبة ٣٦ ، فالعموم فى الأشخاص والأمكنة يستلزم — كما قيل — العموم فى الأزمنة .

(١) يريد قوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج ﴾ : الآية ٢٤٠ سورة البقرة .

قيل إنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ﴾ : الآية ٢٣٤ سورة البقرة .

(٢) يريد قوله تعالى : ﴿ ... وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ : سورة البقرة ٢٨٤ .

قيل إنها منسوخة بقوله جل وعلا : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ سورة البقرة ٢٨٦ .

(٣) يعنى قوله تعالى : ﴿ ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ﴾ سورة النساء ٣٣ .

قيل إنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ ... وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾ سورة الأنفال ٧٥ .

(٤) يقصد قوله تعالى : ﴿ واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ، واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما ﴾ سورة =

= النساء ١٥ — ١٦ .
قيل إنهما منسوختان بآية النور : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليسشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ سورة النور ٢ ، وبما ورد فى السنة بشأن المحصن وغيره .

(٥) يريد قوله تعالى : ﴿ .. فإن جاءوك فاحكم بينهم أو اعرض عنهم ﴾ الآية سورة المائدة ٤٢ — .

قيل إنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ سورة المائدة ٤٩ .

(٦) يعنى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم فى الأرض فأصابتكم مصيبة الموت ﴾ سورة المائدة ١٠٦ .

قيل إن قوله : ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ منسوخ بقوله تعالى : ﴿ وأشهدوا ذوى عدل منكم ﴾ سورة الطلاق ٢ .

(٧) يعنى قوله تعالى : ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا ﴾ سورة الأنفال ٦٥ .

قيل إنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ الآن خفف عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ﴾ سورة الأنفال ٦٦ .

(٨) يقصد قوله تعالى : ﴿ انفروا خفافا وثقالا .... ﴾ الآية سورة التوبة ٤١ ، قيل إنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج ﴾ سورة النور ٦١ — وبقوله : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ﴾ ، وبقوله : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ سورة التوبة ٩١ — ١٢٢ .

ومنـع عقـد لزان أو لزانيـة[1] وما على المصطفى فى العقد محتظر[2]
ودفع مهر لمن جاءت[3] وآية نجواه[4] كذلك قيـام الليـل مستطـر[5]

(١) يريد قوله تعالى : ﴿ الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴾ : الآية سورة النور ٣ .

قيل إنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ﴾ : الآية سورة النور ٣٢ .

(٢) يقصد قوله تعالى : ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك ﴾ سورة الأحزاب ٥٢ .

قيل إنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك ﴾ ..... الآية سورة الأحزاب ٥٠ .

(٣) يعنى قوله تعالى : ﴿ وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ... ﴾ الآية سورة الممتحنة ١١ .

قيل إنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ... ﴾ الآية سورة الأنفال ٤١ .

(٤) يقصد قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة .. ﴾ الآية ١٢ سورة المجادلة .

قيل إنها منسوخة بالآية التى بعدها وهى قوله تعالى : ﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله ﴾ .

(٥) يريد قوله تعالى : ﴿ يا أيها المزمل ، قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ﴾ سورة المزمل ١ ـــ ٤ .

قيل إنها منسوخة بقوله تعالى فى آخر آية فى نفس السورة : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ... ﴾ الآية .

وزيد آية الاستئذان(١) من ملكت وآية القسمة(٢) الفضلى لمن حضروا

وقد تعقب بعض العلماء المحققين هذا العدد القليل من الآيات التى ذكرها الإمام السيوطى بالبحث وإمعان النظر ، وإحالة الفكر والبصر ، وآثروا فى بعضها القول بالإحكام على القول بالنسخ ، ومنهم العالم الفاضل الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى ، والدكتور مصطفى زيد ، وغيرهما — أدخلهم الله جنته وأجزل لهم مثوبته — .

فارجع إلى كتاب البرهان للزركشى ، والإتقان للسيوطى ، ومناهل العرفان للزرقانى وغيرها من الكتب والمراجع التى تناولت هذا الموضوع إن شئت ، والله سبحانه وتعالى معك وهو الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

---

(١) يقصد قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ﴾ الآية سورة النور ٥٨ .
قيل إنها منسوخة بقوله تعالى فى الآية بعدها : ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ﴾ .

(٢) يعنى قوله تعالى : ﴿ وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا ﴾ سورة النساء ٨ .
قيل إنها منسوخة بآيات المواريث ١١ — ١٢ — ١٧٦ .
وانظر الأبيات العشرة فى الإتقان للسيوطى جـ ٢ ص ٢٣ .

المبحث الثالث

موهم الاختلاف والتناقض

المبحث الثالث

موهم الاختلاف والتناقض

إن الجمع بين ما ظاهره الاختلاف والتناقض فى القرآن الكريم والسنة المطهرة مبحث من أهم المباحث التى عنى بها العلماء الأجلاء سلفا وخلفا ، وحق لهم أن يعنوا به لأنه يكشف النقاب عن اتساق النصوص الشرعية وائتلاف أحكامها ، وصحة معانيها ، ووفاق مبانيها ومراميها .

والتناقض معناه فى اللغة : إثبات الشىء ورفعه .

وفى الاصطلاح : اختلاف قضيتين بالإيجاب والسلب بحيث يلزمه لذاته صدق إحداهما وكذب الأخرى .

واشترط العلماء لتحقق التناقض ووقوعه :

اتحاد النسبة الحكمية : أى اتحاد المحكوم به ، والمحكوم عليه ، والزمان ، والمكان ، والإضافة ، والقوة ، والفعل ، والشرط ، ......

بمعنى أن يتوارد كلا المتعارضين على شىء واحد متحد فى هذه الأمور السابقة .

ونحن بحمد الله وشكره وفضله ومنه لو تأملنا فى النصوص الشرعية حق التأمل وتدبرناها جد التدبر قرآنا كانت أو سنة لما وجدنا بينها لذاتها تعارضا واقعيا ولا تناقضا حقيقيا ، ولرأيناها يصدق بعضها بعضا ، ويشهد بعضها لبعض ، بل يأخذ بعضها بحجز بعض ، وتتعانق أحكامها وتشريعاتها ،

لأنها متعاضدة على استيفاء الحق وبيانه ، نابعة من منبع واحد ، وخارجة من مشكاة واحدة ، ومشرعها واحد وهو الله عز وجل ، والناطق بها — ﷺ — معصوم ، ومن أوصافه ما قال الله تعالى فيه بأسلوب القسم :

﴿ والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ﴾[1].

وصدق من قال في وصفه :

ما ضل عن وحى الإله وما غوى   حاشا رسول الله ينطق عن هوى

ولو كان بين النصوص الشرعية تعارض حقيقى بل أدنى تعارض لأفضى إلى فساد الشريعة وهدم بعضها بعضا ، ولجهر به أعداء الإسلام وطاروا فرحا وزهوا فى عهد خير الأنام سيدنا رسول الله ﷺ وبعده .

وكانوا — وما يزالون — كثيرين وأحرص الناس على أن يجدوا فيها مغمزا ، وعليها مطعنا ، لكن ذلك لم يكن ، ولو كان لنقل وشاع ، فدل عدمه على خلوها من التناقض الحقيقى والاختلاف المتضاد ، وهذا أمر مجمع عليه بين سائر المسلمين فى كل عصر من العصور ومصر من الأمصار ، ونقل الإجماع غير واحد من الأئمة العلماء والسادة الفضلاء .

قال تعالى : ... كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾[2]، وقال سبحانه : ... وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[3]

وقال عز وجل : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا

---

(١) سورة النجم ١ — ٥ .   (٢) سورة هود عليه السلام .
(٣) سورة فصلت ٤١ — ٤٢ .

فيه اختلافا كثيرا﴾[1] .

وقال جل وعلا : الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيما ... [2].

وقال عز من قائل : ﴿ قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون ﴾ [3].

وروى الإمام أحمد بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : لقد جلست أنا وأخى مجلسا ما أحب أن لى به حمر النعم ، أقبلت أنا وأخى وإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه ، فكرهنا أن نفرق بينهم ، فجلسنا حجرة — أى منفردين — إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم ، فخرج رسول الله ﷺ مغضبا قد احمر وجهه ، يرميهم بالتراب ويقول : مهلا يا قوم ، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتب بعضها ببعض ، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا ، بل يصدق بعضه بعضا ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه ﴾ أهـ [4]

وروى أبو داود — واللفظ له — وابن ماجة والترمذى وأحمد والدارمى بسندهم عن المقدام بن معد يكرب الكندى عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه ، لا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم

---

(1) سورة النساء ٨٢ ، وليس المقصود نفى اختلاف العلماء وتباين آرائهم فى فهم بعض مسائله لأن هذا أمر واقع ، وفيه منفعة ومصلحة ورحمة بالأمة ودلالة على عظمة القرآن وعمق غوره ، وإنما المقصود نفى الاختلاف عن ذات القرآن الكريم ونفسه .

(2) سورة الكهف ١ — ٢ .   (3) سورة الزمر ٢٨ .

(4) المسند للإمام أحمد جـ ٢ ص ١٨١ .

فيه من حرام فحرموه .... »(١) .

وروى أبو داود — واللفظ له — وابن ماجة والترمذى بسندهم عن عبيد الله ابن أبى رافع عن أبيه — أبى رافع مولى النبى ﷺ واسمه أسلم — عن النبى ﷺ أنه قال :

« لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به ، أو نهيت عنه ، فيقول : لا ندرى ، ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه »(٢).

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم فى الحديث : « ومثله معه » يعنى السنة .

ولا ريب أن السنة شارحة للكتاب ومبينة له ولا غنى له عنها ، فهى مَن أجل ذلك محفوظة بحفظ الله محوطة برعايته وعنايته خالية من التناقض والاختلاف كذلك(٣).

بيد أن الناس لما كانوا متفاوتين فى مدى الفهم والوعى ، ودرجة العلم ،

---

(١) انظر الحديث فى سنن أبى داود كتاب السنة باب فى لزوم السنة جـ ٤ ص ٢٠٠ ، وسنن ابن ماجه فى المقدمة باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه ص ٦ ، وسنن الترمذى أبواب العلم باب ما نهى عنه أنه يقال عند حديث رسول الله ﷺ جـ ٤ ص ١٤٥ ، ومسند أحمد جـ ٤ ص ١٣١ ، وسنن الدارمى باب السنة قاضية على كتاب الله جـ ١ ص ١٤٤ .

(٢) انظر سنن أبى داود فى الموضع السابق ، وسنن ابن ماجه فى الموضع السابق ، وسنن الترمذى فى الموضع السابق جـ ٤ ص ١٤٤ .

(٣) ومما قاله العلامة أبو بكر الصيرفى فى شرح رسالة الإمام الشافعى عن التناقض والاختلاف :

ولن يوجد فى الكتاب ولا فى السنة شىء من ذلك أبدا ، وإنما يوجد فيه النسخ فى وقتين بأن يوجب حكما ثم يحله ، وهذا لا تناقض فيه ا هـ انظر البرهان للزركشى جـ ٢ ص ٥٣ .

ومقدار الثقافة ، متنوعين فى النشأة والتربية ، والمشرب الفكرى ، والغذاء العقلى ، وبعضهم ينظر فى النصوص الشرعية نظرة عجلى ، ويلمح لمحة خاطفة فيها شيء من القصور ، وبعضهم فى قلبه ريبة ودخل ، وفى صدره هوى ودغل ، وفى نفسه تشهى ، وميل إلى التجنى : ظن أن بين بعض النصوص وبين بعضها الآخر تعارضا وتناقضا .

لذا اهتم العلماء قديما وحديثا بهذا المبحث اهتماما بالغا ، وأولوه العناية والرعاية فأعملوا عقولهم ، وشرعوا أقلامهم فى الجمع بين النصوص الشرعية التى ظاهرها الاختلاف والتناقض ، والتضاد والتعارض ، دفاعا عن الإسلام وعرينه ، وردا على خصومه ، ودحضا لأقوالهم وإلجاما لأفواههم .

وتنوعت المصنفات تبعا للقرآن الحكيم والسنة المطهرة ، فمنهم من دبج فى الجمع بين الآيات القرآنية وإزالة الإشكالات الظاهرة عنها :

كقطرب أبى على محمد بن المستنير ت ٢٠٦ هـ ألف كتابا وفق ترتيب السور سماه : « الرد على الملحدين فى تشابه القرآن » .

وأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ت ٢٧٦ هـ ألف كتابه : تأويل مشكل القرآن » .

وأبى محمد على بن أحمد بن حزم الظاهرى ت ٤٥٦ هـ ألف كتابا رد فيه على أحد معاصريه من اليهود الذى ادعى وجود التناقض والتعارض فى القرآن الكريم .

والشيخ محمد الأمين الجكنى الشنقيطى وهو من العلماء المعاصرين ، صنف كتابا فى ذلك سماه : دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب » ، ورتبه حسب ترتيب السور .

ومنهم من عنى بالكتابة فى الجمع بين الأحاديث والآثار وإزالة الإشكالات

المتوهمة فيها :

كابن قتيبة السابق ذكره ، ألف كتابه : تأويل مشكل الحديث » ، وطبع باسم : تأويل مختلف الحديث .

وأحمد بن محمد الطحاوى ت ٣٢١ هـ ألف كتابه : مشكل الآثار .

وجمال الدين محمود بن أحمد القونوى المشهور بابن السراج ت ٧٧٠ هـ ألف كتابه : « مشرق الأنوار فى مشكل الآثار » .

وغيرهم كثير .

وكل من يكتب فى علوم القرآن الكريم ، أو فى التفسير ، أو فى السنة المطهرة ، يتعرض لهذا المبحث أو يعرج عليه لأهميته ومسيس الحاجة إليه .

ويفتقر الكاتب فيه والمتكلم عنه إلى جودة القريحة ، وقوة النظر ، وسلامة الفطرة ، ورحب الأفق ، واتساع مجاله فى الفكر والثقافة ، وامتداد باعه فى العلم والمعرفة ، وإحاطته بظروف النصوص وملابساتها ،

وفوق هذا كله : تقوى الله عز وجل ، والإخلاص له تبارك وتعالى ، والتجرد من وساوس النفس ونزغات الشيطان والهوى والتشهى : وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم »[(١)]، « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين » [(٢)].

قال الإمام العلامة الحافظ جلال الدين السيوطى :

من رسخ قدمه فى معرفة مواد العرب واستعمالاتها وفنون اللغة ورزق فهما وبصيرة لم يخف عليه الجمع بين الآيات المشكلة أهـ [(٣)].

(١) سورة الأنعام ١١٩ . (٢) سورة القصص ٥٠ .
(٣) التحبير فى علم التفسير للسيوطى ص ٢٢٣ .

ومن مشاهير الصحابة الكرام الذين عنوا بالجمع بين ما ظاهره الاختلاف والتناقض سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما ترجمان القرآن وفقيه الدين وحبر الأمة .

وبعد هذه المقدمة المهمة المفيدة نذكر أسباب الاختلاف المتوهم بين بعض الآيات القرآنية ، ونذكر أمثلة لها ، إذ المبحث فى علوم القرآن الكريم ، فبالمثال يتضح المقال .

أسباب الاختلاف والتناقض المتوهم
بين بعض الآيات القرآنية وأوجه الجمع بينها

تتبع العلماء الأفاضل الآيات القرآنية التى يوهم ظاهرها التناقض والتضارب ، وحصروا أسباب هذا التناقض المتوهم والظاهرى فيما يأتى :

أ ــ اختلاف أحوال وأطوار المخبر عنه :

ومثال ذلك قوله تعالى فى شأن خلق آدم عليه السلام فى سورة الروم : ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون »(١)، وفى سورة المؤمنون : ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين »(٢)، وفى سورة الصافات : من طين لازب »(٣)، وفى سورة الحجر : إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون »(٤)، وفى سورة الرحمن سبحانه وتعالى : خلق الإنسان من صلصال كالفخار »(٥):

(١) سورة الروم ٢٠ .

(٢) سورة المؤمنون ١٢ ــ والسلالة : ما يسل من الشيء ويستخلص منه ، أى الخلاصة والمراد به هنا : القطعة التى أخذت من الطين وخلق منها آدم عليه السلام ، ويجوز أن يراد بالإنسان فى الآية بنو آدم ، ويجوز أن يراد به : الجنس .

(٣) سورة الصافات ١١ ــ أى طين لين لزق لصق ، وفيه دلالة على ضعف الخلقة كما قال تعالى فى سورة النساء ٢٨ : ﴿ وخلق الإنسان ضعيفا ﴾ .

(٤) سورة الحجر ٢٨ ــ أى من طين أسود متغير يابس يسمع له صوت وصلصلة لشدة يبسه وجفافه ، وهو طين لم يطبخ ولم توقد عليه نار فإذا طبخ وأوقدت عليه نار فهو فخار .

(٥) سورة الرحمن جل وعلا ١٤ .

فإن ظاهر هذه الآيات يوهم أن بينها تعارضا وتناقضا .

والحق أن لا تعارض بينها ولا تنافى بين معانيها ، فكل آية تذكر حالة من حالات أبينا آدم عليه السلام أثناء خلقه ، وتحكى طورا من أطوار خلقه ، فهو خلق فى الأصل من جوهر واحد هو التراب ، ثم خلط بماء وصار طينا ، ثم مر الطين بمراحل وأطوار إلى أن كان من صلصال كالفخار ، فنفخ الله فيه من روحه ، وجعل له السمع والبصر والفؤاد .

فهذا تدرج فى خلق آدم عليه السلام وكل آية تخبر عن حالة من حالات خلقه ، وطور من أطواره ، ولا تناقض بين الآيات .

وكل منا نحن البشر ـــ باستثناء حواء ثم عيسى عليهما السلام ـــ قد مر بأطوار فى بطن أمه ، فكل إمرىء خلق بأمر الله ومشيئته من النطفة الآتية والمكونة من الغذاء الآتى من الطين ، ثم صارت النطفة علقة ، ثم كانت العلقة مضغة ، ثم كانت المضغة عظاما ، ثم كسى الله العظام لحما ، ثم أنشأه خلقا آخر ، وجعل له السمع والبصر والفؤاد وغير ذلك .

فهذه كلها أطوار لخلق الإنسان كما قال تعالى حكاية لكلام نوح عليه السلام لقومه : ما لكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا ﴾[1] .

ومن أمثلة ذلك أيضا عصا موسى عليه السلام ، قال الله تعالى عنها فى سورة الأعراف : فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين »[2]، وقال فى سورة طه : فألقاها فإذا هى حية تسعى »[3] ، وقال فى سورتى النمل والقصص : فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب »[4]:

فإن ظاهر هذه الآيات الواصفة للعصا يوهم أن بينها اختلافا وتناقضا .

---

(١) سورة نوح عليه السلام ١٣ ـــ ١٤ . (٢) سورة الأعراف ١٠٧ .
(٣) سورة طه ٢٠ . (٤) سورة النمل ١٠ وسورة القصص ٣١ .

والحق أن لا اختلاف ولا تناقض ، ولا تضارب ولا تعارض ، فالآيات وصفت العصا أوصافا مختلفة بحسب اختلاف أحوالها ، فهى عصا ألقاها موسى عليه السلام بأمر الله وإذنه ، فصارت ثعبانا كبير الحجم ، ثم تحركت وصارت حية تسعى ، ثم اهتزت وتحركت بشدة وسرعة وخفة فصارت فى اهتزازها وحركتها وخفتها كالجان ـــ الصغير من الحيات ـــ فى حركته وخفته وسرعته .

فالعصا كانت معجزة بهرتهم ، ومرت بأحوال فيها إفحام لهم ، فكل آية تذكر حالة من حالاتها ولا تضاد ولا اختلاف .

ب ـــ اختلاف الزمان أو المكان :

ومن أمثلته قوله تعالى فى سورة القصص : ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون »[1]، وقوله سبحانه فى سورة الرحمن جل وعلا : فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان[2].

مع قوله تعالى فى سورة الحجر : فو ربك لنسألنهم أجمعين ، عما كانوا يعملون[3] وقوله عز من قائل فى سورة الصافات : وقفوهم إنهم مسئولون[4] :

فإن ظاهر هذه الآيات يوهم أن بينها تضاربا وتناقضا :

والحق أن لا تضارب ولا تعارض لأن يوم القيامة يوم طويل وعرصاته متسعة ويختلف عن أيام الدنيا ، فهم فى وقت لا يسألون عن ذنوبهم لوضوح حالهم ومآلهم ، إذ لهم علامات تدل على جرمهم وكفرهم ، كاسوداد وجوههم

(١) سورة القصص ٧٨
(٢) سورة الرحمن عز وجل ٣٩
(٣) سورة الحجر ٩٢ ـــ ٩٣ .
(٤) سورة الصافات ٢٤ .

وغشيانها بالقترة والغبرة ، وزرقة أعينهم ، وخشوعها وشخوصها وذلتها ، وفى وقت آخر يسألون .

أو أن السؤال المنفى هو سؤال المعذرة وبيان الحجة بدليل قوله تعالى فى سورة المرسلات : هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون »[١]، أما السؤال المثبت فهو سؤال التوبيخ والتقريع والتبكيت والتعنيف والسخرية والازدراء بدليل قوله تعالى : فى سورة الصافات عقب الآية السابقة : ما لكم لا تناصرون ، بل هم اليوم مستسلمون »[٢].

أو هم لا يسألون فى موضع ، ويسألون فى موضع آخر[٣].

ومن ذلك أيضا قوله تعالى فى سورة المؤمنون : فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون »[٤].

مع قوله تعالى فى سورة الصافات : وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون[٥]، والآيات التى تحكى ما يقع بين الكفار من نقاش وحوار وجدال وخصام فى سورة الأعراف وسبأ وغافر وغيرها من سور القرآن المجيد .

فإن ظاهر هذه الآيات يوهم أن بينها تعارضا :

لكن من يتأملها وينعم النظر فيها لا يجد بينها تعارضا لأن يوم القيامة يوم طويل والزمان فيه مختلف .

إذا نفخ فى الصور النفخة الأخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ولكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ، وحال يلهيه ، وحينئذ لا أنساب بينهم ولا يتساءلون ، ثم بعد ذلك يقبل الكفار بعضهم على بعض قبل دخولهم جهنم ، وبعد

(١) سورة المرسلات ٣٥ — ٣٦ . (٢) سورة الصافات ٢٥ — ٢٦ .
(٣) انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٦٥ . (٤) سورة المؤمنون ١٠١ .
(٥) سورة الصافات ٢٧ .

دخولهم فيها وصليهم نارها وتلظيها بهم يتساءلون ويتحاورون ويتخاصمون ويلقى بعضهم وخامة التبعة وسوء العاقبة ومغبة المآل على بعض .

فلا تعارض بين الآيات لاختلاف الزمان والمكان والمشهد .

ومن ذلك قوله تعالى فى سورة النساء : يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا »[1] .

مع قوله سبحانه فى سورة الأنعام : ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين[2]، وقوله عز وجل فى سورة غافر : ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون ، من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئا[3] :

فظاهر هذه الآيات يوهم التناقض والاختلاف بينها ، إذ بعضها يفيد أنهم لا يكتمون الكفر والسيئات التى اجترحوها ولا يكذبون ، وبعضها الآخر يفيد أنهم يكتمون كفرهم وسيئاتهم ويكذبون :

والحق أن لا تناقض لأن يوم القيامة — كما عرفنا — يوم طويل ، وأهواله كثيرة ومفزعة ، ومواطنه مختلفة ومروعة :

ففى بعضها يكذبون ويكتمون رجاء أن يغفر الله لهم وأملا فى رحمته حين يرون غفرانه للمسلمين ورحمته بهم ورضاه عنهم .

وفى بعضها الآخر لا يكذبون ولا يكتمون .

أو أن كتمانهم وكذبهم يكون بأقوالهم ، أما صدقهم وعدم كتمانهم شيئا فيكون بجوارحهم التى يستنطقها الله تعالى :

قال عز وجل فى سورة المجادلة : يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما

(١) سورة النساء ٤٢ .
(٢) سورة الأنعام ٢٣ .
(٣) سورة غافر ٧٣ — ٧٤ .

يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون [١].

وقال سبحانه فى سورة يس : اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون [٢].

وقال تعالى فى سورة فصلت : ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ، حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون [٣].

وقال جل وعلا فى سورة النور : يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون [٤].

وروى مسلم — رحمه الله — فى صحيحه حديثا طويلا ينتهى سنده إلى أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جاء فيه :

أن الله تعالى يلقى العبد الثالث فيقول له مثل ذلك — أى يقرره بنعمه عليه — فيقول العبد :

يارب آمنت بك وبكتابك وبرسلك ، وصليت وصمت وتصدقت ، ويثنى بخير ما استطاع ، فيقول — أى الله — ههنا إذاً :

قال : ثم يقال له : الآن نبعث شاهدنا عليك ، ويتفكر فى نفسه : من ذا الذى يشهد علىّ ؟ ، فيختم على فيه ، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه :

---

(١) سورة المجادلة ١٨ .
(٢) سورة يس ٦٥ .
(٣) سورة فصلت ١٩ — ٢٢ .
(٤) سورة النور ٢٤ .

انطقى ، فتنطق فخذه ولحمه بعمله . وذلك ليعذر من نفسه . وذلك المنافق ، وذلك الذى يسخط الله عليه .

وروى مسلم أيضا بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك ، فقال :

هل تدرون مم أضحك ؟ ، قال : قلنا الله ورسوله أعلم ، قال :

من مخاطبة العبد ربه ، يقول : يارب ألم تجرنى من الظلم ، قال : يقول : بلى ، قال : فيقول : فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهدا منى ، قال : فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ، وبالكرام الكاتبين شهودا ، قال : فيختم على فيه ، فيقال لأركانه : انطقى ، قال : فتنطق بأعماله ، قال : ثم يخلى بينه وبين الكلام ، قال : فيقول : بُعْدا لكُنّ وسحقا فعنكن كنت أناضل[1] .

جـ اختلاف الموضوع :

ومن أمثلته قوله سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون [2].

مع قوله تعالى فى سورة التغابن : فاتقوا الله ما استطعتم » الآية [3]:

فإن ظاهر هاتين الآيتين يوهم أن بينهما تعارضا :

فإن الآية الأولى تأمر كل مؤمن أن يتقى الله حق تقواه ، ويقدر الله حق قدره .

---

(١) انظر الحديثين فى صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الزهد باب الزهد جـ ٥ ص ٨٢٤ — ٨٢٥ .

(٢) سورة آل عمران ١٠٢ .   (٣) سورة التغابن ١٦ .

وروى عن عبد الله بن مسعود وعلى بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهما موقوفا ومرفوعا فى تفسيرها :

أن يطاع الله فلا يعصى ، ويذكر ولا ينسى ، ويشكر ولا يكفر .

كما روى أن هذه الآية كانت شاقة على بعض الصحابة رضى الله تعالى عنهم لأنهم عملوا بها وطبقوها وأجهدوا أنفسهم وقاموا للصلاة حتى تورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم[1].

أما الآية الثانية فتأمر كل مؤمن أن يتقى الله ما استطاع وبقدر جهده .

والحق أن لا تعارض بين الآيتين لاختلاف الموضوع المتحدث عنه فيهما :

فموضوع الآية الأولى : التوحيد بدليل ختمها بقوله : « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » وموضوع الآية الثانية : الأعمال الصالحة وأداؤها بدليل سياق الآيات فى سورة التغابن .

فتوحيد الله تعالى وإفراده بالكمال والجلال حق التوحيد أمر مفروض وميسور وفى طاقة كل مؤمن .

أما الأعمال الصالحة فيأتى كل مؤمن منها ما استطاع وبقدر جهده وطاقته ولا يكلف نفسه مالا تطيق ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾[2].

ولذا قال ﷺ فيما أخرجه الشيخان وغيرهما بأسانيدهم عن أبى هريرة رضى الله عنه : إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شىء

---

(١) انظر جامع البيان للطبرى جـ ٢٨ ص ١٢٧ ، وتفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٧٦ ــ ٣٧٧ وغيرهما من كتب التفسير المشهورة .

(٢) سورة البقرة ٢٨٦ .

فاجتنبوه [1].

وقال ﷺ فيما رواه الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، ورواه الإمام البزار فى مسنده بسنده عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما :

إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى [2].

وقال ﷺ فيما رواه البخارى والنسائى وغيرهما بأسانيدهم إلى أبى هريرة رضى الله تعالى عنه :

إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة [3].

وقال ﷺ فيما رواه الإمام أحمد والنسائى وابن ماجة وغيرهم بأسانيدهم عن ابن عباس رضى الله عنهما :

---

(1) انظر صحيح البخارى كتاب الاعتصام باب الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ جـ ٩ ص ١١٧ ، وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب الفضائل باب وجوب اتباعه ﷺ جـ ٥ ص ٢٠٥ ، ومقدمة سنن ابن ماجه باب اتباع سنة رسول الله ﷺ ص ٣ .

(2) صحح الإمام السيوطى رواية الإمام أحمد ، وضعف رواية البزار انظر الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٨٤ .

والمراد بالمنبت : المنقطع عن أصحابه فى السفر ، وسبب انقطاعه أنه يجد فى سيره حتى ينبت أخيرا وينقطع عن الرفقة . والمراد بالظهر : الدابة . وهو مثل قاله ﷺ لرجل اجتهد فى العبادة حتى غارت عيناه ، وهو مثل يضرب لمن يبالغ فى طلب الشىء ويفرط فيه حتى ربما يفوته على نفسه : انظر مجمع الأمثال للميدانى جـ ١ ص ٧ .

(3) انظر صحيح البخارى كتاب الإيمان باب الدين يسر جـ ١ ص ١٧ ، وسنن النسائى كتاب الإيمان وشرائعه باب الدين يسر جـ ٨ ص ١٢١ .

« إياكم والغلو فى الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين » [1].

أو أن كل مؤمن مأمور أن يتقى الله حق تقواه ما استطاع .

ولا تعارض بين الآيتين .

وبعض العلماء ذهب إلى أن الآية الثانية ناسخة للأولى ، أى آية التغابن حكمها ناسخ لحكم آية آل عمران فهى آية منسوخة الحكم باقية التلاوة .

وهذا المذهب لا داعى إليه ولا مبرر له لأن الجمع بينهما سهل ووجيه بلا تكلف كما رأيت فلا ملجىء إلى القول بالنسخ .

ومن ذلك قوله تعالى فى سورة النساء : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم :» [2].

مع قوله سبحانه فى صدر السورة نفسها : ﴿ وإن خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم : ﴾ الآية [3]:

فظاهر الآية الأولى أن العدل بين الزوجتين أو الزوجات [4] غير ممكن ولا

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد جـ ١ ص ٢١٥ — ٣٤٧ ، وسنن النسائى كتاب مناسك الحج باب التقاط الحصى جـ ٥ ص ٢٦٨ ، وسنن ابن ماجه كتاب المناسك باب قدر حصى الرمى ص ١٠٠٨ .

(٢) سورة النساء ١٢٩ .

(٣) سورة النساء ٣ .

(٤) كلمة (زوج) : ضد الفرد ، ومن معانيها أنها تطلق على الرجل (البعل) والمرأة إلا فى الميراث خشية اللبس ، ويقال للمرأة أيضا : زوجة ، فكلمة (زوج) فى جانب المرأة لغة فصحى ، وكلمة (زوجة) فى جانبها لغة فصيحة ، والقرآن الكريم ذكر اللغة الفصحى فلم تأت فيه كلمة (زوجة) أو (زوجات) ، وإنما الذى جاءت فيه كلمة : زوج ، وأزواج ، والآيات فى ذلك كثيرة كقوله تعالى لآدم =

مستطاع ولو حرص عليه الرجل « الزوج » .

وظاهر الآية الثانية أن العدل بين الزوجتين أو الزوجات مطلوب من الرجل وفى مكنته ، فإن شعر بعدم قدرته على العدل وخاف فعليه أن يتزوج بواحدة حرة أو ينكح مما ملكت يمينه من الإماء .

فظاهر الآيتين يوهم التناقض إذ تفيد إحداهما عدم قدرة الرجل على العدل بين زوجاته ، وتفيد الأخرى قدرته على العدل بينهن .

ونقول : إنه لا تعارض بين الآيتين لاختلاف الموضوع فيهما :

إذ الآية الأولى موضوعها : العدل فى الميل القلبى والراحة النفسية والروحية ، وهذا أمر ليس فى قدرة الرجل ولا فى إمكانه لأن الحب والميل القلبى بيد الله تعالى ، بل القلوب ذاتها بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء [1]، ولذا كان رسول الله ﷺ يميل قلبه إلى عائشة رضى الله تعالى عنها أكثر من غيرها من أزواجه رضى الله تعالى عنهن ، بل لما مرض مرض

= وحواء فى سورة البقرة ٣٥ : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ ، وقوله تعالى لنبيه فى أول سورة التحريم : ﴿ يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك ﴾ ، وغيرها من الآيات .

(١) انظر الروايات فى صحيح مسلم بشرح النووى كتاب القدر باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء جـ ٥ ص ٥٠٩ ، ومقدمة سنن ابن ماجه باب فيما أنكرت الجهمية ص ٧٢ ، وسنن الترمذى أبواب القدر باب ما جاء أن القلوب بين أصبعى الرحمن جـ ٣ ص ٣٠٤ ، وأبواب الدعوات باب ٩٥ جـ ٥ ص ١٩٩ ، ومسند الإمام أحمد جـ ٢ ص ١٧٣ ، وجـ ٤ ص ١٨٢ ، وجـ ٦ ص ٢٥١ – ٣٠٢ – ٣١٥ وهو حديث مرفوع ، ومن رواته من الصحابة : عبد الله بن عمرو بن العاص ، والنواس ابن سمعان ، وأم سلمة ، وعائشة ، وأبو ذر الغفارى ، وجابر بن عبد الله رضى الله عنهم أجمعين .

الموت استأذنهن أن يمرض فى حجرة عائشة رضى الله عنها فأذنَّ له ، ومات ﷺ فى حجرتها ورأسه الشريف على صدرها بين سحرها ونحرها ، ثم دفن فى حجرتها فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يدفنون حيث يموتون .

أما الآية الأخرى فموضوعها : العدل فيما يملكه الزوج ويكون فى قدرته كالإنفاق والكسوة والمبيت والمؤانسة والبشاشة وطلاقة الوجه والكلام الطيب ... وغير ذلك من لوازم الزوجية التى تقتضيها الحياة وتستلزمها المعيشة ، فالعدل فى ذلك مطلوب لأنه فى قدرة الرجل . أما الميل القلبى والحب النفسى فليس فى قدرته وملكه ولذا كان ﷺ يقسم ويعدل بين أزواجه فيما يملكه ويقول كما روت عائشة رضى الله عنها :

« اللهم إن هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى — وفى رواية فلا تؤاخذنى — فيما تملك ولا أملك »[1]، يريد : ميل القلب .

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « اللهم قلبى فلا أملكه ، وأما ما سوى ذلك فأرجو أن أعدل »[2].

بل إن هذه الظاهرة توجد أيضا فى أولاد الرجل ، فأحيانا يميل قلبه إلى ولد[3] أكثر من غيره من الأولاد .

---

(١) انظر سنن الترمذى أبواب النكاح باب ما جاء فى التسوية بين الضرائر جـ ٢ ص ٤٠٤ ، وسنن أبى داود كتاب النكاح باب فى القسم بين النساء جـ ٢ ص ٢٤٢ ، وسنن ابن ماجه كتاب النكاح باب القسمة بين النساء ص ٦٣٣ ، وسنن الدارمى كتاب النكاح باب فى القسمة بين النساء جـ ٢ ص ١٤٤ ، وغيرها من كتب السنة .

(٢) البرهان فى علوم القرآن للزركشى جـ ٢ ص ٥٨ .

(٣) كلمة (ولد) تطلق على المفرد والمثنى والجمع ، وعلى الذكر والأنثى ، فكل مولود ولد ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن =

أما فى لوازم الحياة والتربية فالعدل مطلوب منه بين أولاده جميعا بلا تفرقة .
وقصة يعقوب « إسرائيل » مع يوسف عليهما السلام وبقية إخوة يوسف مشهورة معروفة ودليل على ما تقدم .

د ـــ اختلاف جهتى الفعل :

ومن أمثلته قوله تبارك وتعالى فى سورة الأنفال : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم »[1].

نفى الله تعالى عنهم القتل ونسبه إلى نفسه مع أنهم رضى الله عنهم قاتلوا وقتلوا من أعدائهم الكثيرين فى غزوة بدر الكبرى التى وردت فى شأنها هذه الآية الكريمة . فظاهر الآية أن فيها تعارضا واضطرابا :

والحق أن من يتأملها ويمعن النظر فيها لا يجد تعارضا ولا اضطرابا ، فالله عز وجل نفى عنهم القتل باعتبار التأثير أى أن قتلهم لمن قتل من الأعداء لم يكن مؤثرا بنفسه وذاته وإنما المؤثر والقاتل فى الحقيقة هو الله تعالى .

وأثبت القتل لهم باعتبار كسبهم ومباشرتهم له وتحققه على أيديهم .

وهذا شأن كل أفعال العباد ـــ كما يرى جمهور العلماء ـــ فكل أفعالهم مخلوقة لله سبحانه وتعالى لأنه الفاعل فى الحقيقة ، ومكتسبة لهم لأنهم الذين اكتسبوها وزاولوها وتلبسوا بها .

فنفى الفعل باعتبار لا يعارضه إثباته باعتبار آخر .

قال تعالى : « والله خلقكم وما تعملون »[2]، وقال سبحانه : « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل »[3]،

= ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ﴾ (سورة لقمان ٣٣) ، لكن عرف الناس خص الذكر بكلمة « ولد » حتى اشتهر هذا الإطلاق عليه دون الأنثى .

(١) سورة الأنفال ١٧ . (٢) سورة الصافات ٩٦ . (٣) سورة الأنعام ١٠٢ .

وقال عز شأنه : وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة »(١) ، وقال جل ثناؤه : الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل(٢) ، وغيرها من الآيات الحكيمة .

ومن أمثلة ذلك أيضا قوله تعالى فى نفس الآية السابقة من سورة الأنفال : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » :

أى ما رميت خلقا وإيجادا حين رميت كسبا ومباشرة ولكن الله تعالى رمى خلقا وإيجادا وتوصيلا وتأثيرا فهو سبحانه الفاعل فى الحقيقة ، ورسول الله ﷺ مجرد كاسب ومزاول للرمى .

ويدخل فى ذلك قبض التراب ورميه فى وجوه الكفار وحصبهم به فى ليلة الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة وفى غزوة بدر ، والرمى بالسهام والرماح والنبال وغيرها من أدوات الحرب ووسائل القتال إذ اللفظ عام .

قال إمام المفسرين وعمدتهم أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى — رحمه الله تعالى — فى تفسير هذه الآية الكريمة :

فى هذه الآية دليل على أن الله تعالى خالق لأفعال العباد ، فإنه تعالى أضاف الرمى إلى نبيه ثم نفاه عنه ، وذلك فعل واحد ، لأنه من الله تعالى بتسبيبه وتوصيله وتسديده .

ومن رسول الله ﷺ بالحذف والإرسال .

فكذلك سائر أفعال الخلق المكتسبة :

من الله الإنشاء والإيجاد والإنجاز بالتسبيب ، ومن الخلق الاكتساب

---

(١) سورة القصص ٦٨ .　　(٢) سورة الزمر ٦٢ .

بالقوى أه باختصار(١)

وقال الإمام الطبرى نحو ذلك فى تفسير الجملة السابقة : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » .

ومما تقدم تدرك أن لا تنافى ولا اضطراب فى الآية المجيدة الحكيمة .

هـ ــ الاختلاف فى الحقيقة والمجاز :

ومن أمثلته قوله عز من قائل فى سورة الحج : « وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد »(٢):

فظاهر الآية الكريمة أن فيها تناقضا لأنها أثبتت السكر للناس يوم القيامة ونفته عنهم .

والحق أن لا تناقض فيها لاختلاف الحقيقة عن المجاز :

فالآية أثبتت السكر لهم بالإضافة إلى أهوال يوم القيامة وعظائمه ، أى هم كالسكارى من ذهولهم والأهوال التى يرونها ، فسكرهم مجاز وكناية عن الذهول وشدة الحيرة وقوة الكرب .

ونفت الآية السكر عنهم بالإضافة إلى الخمر ، أى ليسوا بسكارى حقيقة . ويؤكد ما تقدم :

بدء السورة بقوله تعالى : يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها »(٣).

---

(١) انظر جامع البيان للطبرى جـ ٩ ص ٢٠٤ .　　(٢) سورة الحج ٢ .

(٣) سورة الحج ١ ــ ٢ .

وختم الآية الكريمة بقوله سبحانه : ﴿ ولكن عذاب الله شديد ﴾ .

ومن أمثلته أيضا قوله تعالى فى سورة إبراهيم عليه السلام فى شأن الكافر وحاله فى جهنم :

« .... ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت » : الآية [1]:

أى أن الكافر يعذب فى جهنم بألوان شتى من العذاب ، وهو عذاب لا يقادر قدره ، ولا يعرف هوله ، ويأتيه هذا العذاب الذى هو سبب الموت من كل مكان وجهة فى جهنم ، ومن كل مكان وجهة فى جسمه ، وما هو بميت فى الحقيقة لأنه مخلد فى جهنم والعذاب مخلد له ومعه فهو ملازمه ، وكلما استغاث أغيث بعذاب أشد وأقسى وأصعب وأنكى ، فيظل فى جهنم لا يموت فيستريح من العذاب ، ولا يحى حياة طيبة هنية يذوق فيها برد الراحة :

قال تعالى : إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحي [2] .

وقال سبحانه : ثم لا يموت فيها ولا يحي [3].

وقال عز وجل : ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون [4] .

وقال جل وعلا : إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا [5].

وقال جل شأنه : فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا [6] .

---

(١) سورة إبراهيم عليه السلام ١٧ .
(٢) سورة طه ٧٤ .
(٣) سورة الأعلى ١٣ .
(٤) سورة الزخرف ٧٧ .
(٥) سورة الكهف ٢٩ .
(٦) سورة النبأ ٣٠ .

وهاتان الآيتان من أقسى الآيات وأصعبها على الكافرين .

و ـــ الاختلاف فى متعلق الكلام :

ومن أمثلته قوله تعالى فى سورة الإسراء : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا[1] .

مع قوله سبحانه فى سورة الأعراف : ﴿ ... قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾[2] :

فظاهر هاتين الآيتين يوهم التناقض وسوء الفهم إن كان متعلق « أمرنا » كلمة لا تليق بجلال الله وكماله .

لكن هذا التناقض المتوهم والفهم السيء يزول حين يكون التقدير : أمرنا مترفيها بالطاعة والاستقامة ففسقوا فيها ....

وورد هذا التقدير عن حبر الأمة وفقيه الدين وترجمان القرآن عبد الله ابن عباس رضى تعالى عنهما وسعيد بن جبير وغيرهما من كبار الصحابة وخيار التابعين رضى الله تعالى عنهم ورحمهم أجمعين .

ويؤكد صحة هذا التقدير المذكور ، أو هذا المتعلق وسلامته : قوله تعالى فى نفس الآية : « ففسقوا فيها » ، فالفسق بمعنى العصيان ، ويقابله : الطاعة المأمورون بها ، وذكر الضد يدل على الضد ، كما أن ذكر النظير يدل على النظير .

وأيضا ختم الآية الثانية بقوله تعالى ردا على الكفار وتوبيخا لهم وإنكارا لقولهم وإدعائهم أن الله أمرهم بالفحشاء : « أتقولون على الله مالا تعلمون » ؟؟؟ .

---

(١) سورة الإسراء ١٦ .

(٢) سورة الأعراف ٢٨ .

أو أن الأمر المثبت الذى فى آية سورة الإسراء أمر كونى وقضائى .

أما الأمر المنفى الذى فى آية سورة الأعراف فهو أمر شرعى . ولا تناف بين الآيتين المجيديتين .

ومن أمثلته كذلك : قوله تعالى فى سورة النساء : لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما ، درجات منه ومغفرة ورحمة ....[1] .

فإن ظاهر هذه الآية الكريمة يوهم التعارض والاضطراب :

لأن بعضها أفاد أن الله فضل المجاهدين على القاعدين درجة .

وبعضها الآخر أفاد أن الله فضل المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة .

لكن التقدير الصحيح أو المتعلق السديد والرجيح فى الآية الكريمة يزيل هذا التعارض الظاهرى ويزيح ذلك الاضطراب المتوهم : فالله تعالى فضل المجاهدين على القاعدين من أولى الضرر وأصحاب الأعذار درجة ، ويؤيد هذا قوله تبارك وتعالى فى الآية عينها : « وكلا وعد الله الحسنى » .

أما ختم الآية ففى القاعدين من الأصحاء : أى فضل الله المجاهدين على القاعدين من الأصحاء أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة .

وبهذا يزول التعارض الظاهرى فى الآية المباركة .

---

(١) سورة النساء ٩٥ — ٩٦ .

ز ـ الاختلاف بوجهين واعتبارين :

ومن أمثلته قوله جل شأنه وعز سلطانه فى سورة السجدة :

﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾[1] ، وقوله سبحانه فى سورة الحج : ... وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون[2].

مع قوله تعالى فى سورة المعارج : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾[3]:

فظاهر هذه الآيات يوهم التعارض .

والحق أن لا تعارض بينها لأن هذا اليوم المتحدث عنه يوم القيامة ، والاختلاف فى مقداره باعتبار حال المؤمنين والكافرين :

فهو قصير على المؤمنين لما يشعرون فيه من سهولة واطمئنان ، وتيسير وامتنان . طويل على الكافرين لما فيه من شدة عليهم وضنك وهوان ، وضيق وخذلان .

ويدل على هذا قوله تبارك وتعالى : فى سورة الفرقان : ... وكان يوما على الكافرين عسيرا[4] ، وقوله جل ثناؤه فى سورة القمر : مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر[5] ، وقوله جل وعلا فى سورة المدثر : فإذا نقر فى الناقور ، فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير[6] .

وروى ابن أبى حاتم وغيره بسندهما أن عبد الله بن عباس رضى الله

---

(١) سورة السجدة ٥ .
(٢) سورة الحج ٤٧ .
(٣) سورة المعارج ٤ .
(٤) سورة الفرقان ٢٦ .
(٥) سورة القمر ٨ .
(٦) سورة المدثر صلى الله عليه وآله وسلم ٨ ــ ١٠

عنهما سئل عن هذه الأيام الموجودة فى هذه الآيات فتوقف وقال :

هما يومان ذكرهما الله تعالى فى كتابه وما أدرى ما هما ، وأكره أن أقول فيه مالا أعلم .

وروى من طريق أخرى عنه أنه أجاب فقال :

حساب يوم القيامة خمسون ألف سنة ، وخلق السماوات والأرض فى ستة أيام كل يوم كألف سنة مما تعدون ، ويوم تدبير الأمر من السماء إلى الأرض كألف سنة من أيامكم [1].

ومن أمثلته أيضا قوله تعالى فى سورة البقرة : هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات .. :الآية [2].

مع قوله تعالى فى سورة فصلت : قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سماوات فى يومين .... [3].

مع قوله سبحانه فى سورة النازعات : ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها ... ﴾ [4] .

فظاهر هذه الآيات الكريمة يوهم التضارب والتعارض .

---

(١) انظر الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ٢ ص ٢٨ .

(٢) سورة البقرة ٢٩

(٣) سورة فصلت ٩ — ١٢

(٤) سورة النازعات ٢٧ — ٣

والحق أن لا تضارب ولا تعارض بينها لأن الله تعالى خلق الأرض في يومين قبل السماء ، وكانت السماء دخانا ، ثم استوى إليها فسواهن سبع سماوات في يومين آخرين بعد خلق الأرض ، ثم دحى الله الأرض في يومين آخرين فجعل فيها نهرا وبحرا وشجرا وجبلا ونحو ذلك ، فصار العدد ستة أيام .

وهذا المعنى ورد عن ترجمان القرآن وحبر الأمة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، فالأرض قبل السماء باعتبار خلقها ، وبعد السماء باعتبار دحوها ، ولا تنافى بين الآيات الكريمات ولاتعارض ، ولا اضطراب ولا تناقض [1] .

وهكذا نرى آيات القرآن الحكيم التى يوهم ظاهرها الاختلاف والتناقض لا تخرج عن أسباب الاختلاف السابقة .

وندرك أن الجمع والتوفيق بينها أمر سهل وميسر بلا عناء ولا تكلف ، ولا مشقة ولا تعسف كما رأيت .

وإذا وجدنا آيتين متعارضتين تعارضا حقيقيا وتعذر الجمع والتوفيق بينهما وعرفنا تاريخ النزول فإننا نقول بالنسخ أى نجعل الآية المتأخرة فى النزول ناسخة للآية المتقدمة فيه كما علمت سابقا .

ونوقن بعظمة الله وجلاله وتنزه كلامه عن الاختلاف والتناقض .

ونؤمن بكماله ، ونقول كما يقول كثير من العلماء الأجلاء ، والسادة الألباء ، والأساتذة الفضلاء النجباء ، مطمئنين واثقين صادقين :

إن خلو القرآن الكريم من التناقض والاختلاف على الرغم من طوله وطول مدة نزوله وتنوع ملابسات النزول وزمانه ومكانه : وجه بارز من وجوه إعجازه الكثيرة المتعددة ، ومن اعتقد أو ادعى — بعد ارشاده وإزالة مافى نفسه من شبهة وما غام على عقله من لبس — أن فى آيات القرآن العلى

(١) انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة رحمه الله ص ٦٧ .

الحكيم تناقضا وتعارضا واضطرابا فقد أعظم على الله الفرية ، وكفر بصريح الآيات ووضوح الدلالات .

وينبغى أن تعلم ـــ أخى القارىء الكريم ـــ أنه لا تعارض بين آية قرآنية وحديث ثابت عن رسول الله ﷺ سواء أكان حديثا قدسيا أم كان حديثا نبويا لأن القرآن الكريم والحديث الشريف من عند الله تعالى :

فالقرآن منزل من عنده سبحانه بلفظه ومعناه ، ومعجز ، ومتعبد بتلاوته ، ومتحدى بأقصر سورة منه ومنقول بالتواتر .

أما الحديث فهو نوعان :

أ ـــ حديث قدسى : وهو نازل من عند الله بلفظه ومعناه كما يرى جمهور العلماء ، فهو كالقرآن الكريم بيد أن الحديث القدسى غير معجز ، ولا متعبد بتلاوته ، ولا متحدى بأقصر نص فيه ولا بأطول نص ولا به كله ، ولا منقول كله بالتواتر .

ب ـــ حديث نبوى : ومعناه من الله تعالى ، أما لفظه فمن سيدنا رسول الله ﷺ الذى أوتى جوامع الكلم وفصل الخطاب وكان أفصح من نطق بلسان العرب .

ولذا كان صلى الله تعالى عليه وسلم يذكر الألفاظ التى تؤدى نفس المعنى الموحى إليه به تمام الأداء وتطابقه تمام المطابقة لفصاحته التى لا تبارى ، وبلاغته التى لا تجارى ، وإحاطته باللغة ، وقد ورد عن الإمام الشافعى رحمه الله تعالى أنه قال : لا يحيط بلغة قومه إلا نبى .

وإذا كان الحديث القدسى النازل بلفظه ومعناه كما يرى الجمهور لا تنطبق عليه صفات القرآن الكريم كما عرفت وهى الإعجاز والتعبد بالتلاوة والتحدى به والنقل المتواتر فالحديث النبوى لا تنطبق عليه صفاته من باب أولى .
فما دام القرآن الكريم والسنة المطهرة من عند الله تعالى فلا يمكن أن يوجد

تعارض بين آية وحديث ، فإن لاح تعارض كان تعارضا ظاهريا متوهما ، أما إن كان تعارضا حقيقيا فإن المجال يكون للنسخ كما عرفت آنفا .

وإليك — أخى القارىء — بعض الأمثلة التى يوهم ظاهرها التعارض بين الآية القرآنية والحديث الشريف ، والجمع والتوفيق بينها لتزداد بينه وبصيرة :

قال الله تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ .....ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ [1] .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه البخارى ومسلم وابن ماجه والدارمى وأحمد وغيرهم بأسانيدهم إلى أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى وجابر ابن عبد الله وعائشة رضى الله تعالى عنهم :

« لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل منه ورحمة »[2] .

---

(1) سورة الأعراف ٤٣ ، ومثل هذه الآية قوله تعالى فى سورة النحل ٣٢ : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ وغيرها من الآيات .

(2) انظر صحيح البخارى كتاب الرقاق باب القصد والمداومة على العمل جـ ٨ ص ١٢٢ ، وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى جـ ٥ ص ٦٨١ وما بعدها ، وسنن ابن ماجة كتاب الزهد باب التوقى على العمل ص ١٤٠٥ ، وسنن الدارمى كتاب الرقاق باب لا ينجى أحدكم عمله جـ ٢ ص ٣٠٥ ، ومسند أحمد فى مواضع كثيرة وهى جـ ٢ / ٢٣٥ / ٢٥٦ / ٢٦٤ / ٣١٩ / ٣٢٦ / ٣٤٤ / ٣٨٦ / ٣٩٠ / ٤٥٢ / ٤٦٦ / ٤٦٩ / ٤٧٣ / ٤٨٢ / ٤٨٨ / ٤٩٥ / ٥٠٣ / ٥٠٩ / ٥١٤ / ٥١٩ / ٥٢٤ / ٥٣٧ — و جـ ٣ / ٥٢ / ٣٣٧ / ٣٦٢ / — و جـ ٦ / ١٢٥ — .

فبين تلك الآية الكريمة وهذا الحديث الشريف تعارض : إذ تفيد الآية أن دخول الجنة بالعمل الصالح فى الدنيا .

ويفيد الحديث أن دخولها بفضل الله تعالى ورحمته .

والجواب : أن هذا تعارض فى الظاهر ، وأن الجمع والتوفيق بينهما واضح بالتأمل وبلا تكلف :

فالحديث يبين أن أصل الدخول فى الجنة هو بفضل الله تعالى وبرحمته .

والآية تبين أن المنازل والدرجات فى الجنة تكون بحسب الأعمال الصالحة .

ولا تعارض بينهما .

ويؤيد هذا الجمع قول الرسول ﷺ فيما رواه الترمذى وابن ماجه وغيرهما بسندهم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه :

« إن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم » (١).

أو نقول :

إن دخول الجنة والمنازل فيها بفضل الله عز وجل وبرحمته .

والعمل الصالح الذى يعمله العبد فى الدنيا هو بفضل الله وبرحمته كذلك ، فالله هو الذى وفقه للعمل وهداه إليه وأعطاه القوة والقدرة على أدائه وتقبله منه وأثابه عليه وفى النهاية أدخله الجنة وأحله دار كرامته ، فأداء العبد للعمل الصالح ودخوله الجنة وخلوده فيها فى منزلته بفضل الله وبرحمته فى الحقيقة والواقع :

---

(١) انظر الحديث وهو حديث طويل — فى سنن الترمذى أبواب صفة الجنة باب ما جاء فى سوق الجنة جـ ٤ ص ٩٠ — ٩١ ، وسنن ابن ماجه كتاب الزهد باب صفة الجنة ص ١٤٥٠ .

فإن يثبنا فبمحض الفضل وإن يعذب فبمحض العدل

بل العمل نفسه مخلوق لله ، والعبد مجرد مكتسب ومباشر : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ [1] ، بل العبد ذاته مخلوق لله ، فإذا أعانه الله على عمل صالح ثم أدخله الجنة فى النهاية فإن ذلك بفضله ورحمته جل وعلا ، إنه هو الرءوف الرحيم ، وربك الغنى الغفور ذو الرحمة .

وبما تقدم يتعرى مذهب المعتزلة ومن حطب فى حبلهم عن الحق فى هذه المسألة ويستبين خطؤهم وبُعْد رأيهم فيها عن الجادة إذ يرون أن دخول الجنة بالعمل الصالح وحده ويردون حديث رسول الله ﷺ :

دعوا كل قول عند قول محمد ٭ فما آمن فى دينه كمخاطر

ماضل عن وحى الإله وما غوى ٭ حاشا رسول الله ينطق عن هوى

وإليك — أخى القارىء — مثالا آخر :

قال الله تعالى فى سورة الواقعة : ﴿ ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين ﴾ [2] .

وقال ﷺ فيما رواه البخارى — واللفظ له — والترمذى وابن ماجه وأحمد وغيرهم بأسانيدهم عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : كنا مع النبى ﷺ فى قبة ، فقال : أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة ؟ قلنا : نعم ، قال : أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة ؟ قلنا : نعم ، قال أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة ؟ قلنا : نعم ، قال : والذى نفس محمد بيده إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة ، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا

---

(١) سورة الصافات ٩٦ — وسبق عن كثب ذكر آيات هى نظائر لهذه الآية فى المعنى .

(٢) سورة الواقعة ١٣ — ١٤ .

نفس مسلمة ، وما أنتم فى أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود ، أو كالشعرة السوداء فى جلد الثور الأحمر » (١)

فبين الآية الكريمة والحديث الصحيح تعارض :

إذ تفيد الآية الشريفة أن عدد أهل الجنة من أمة محمد ﷺ قليل .

ويفيد الحديث الكريم أن نصف أهل الجنة من أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ؟ .

والجواب : أن التعارض ظاهرى ومتوهم ، ولا تعارض فى الحقيقة والواقع ، لأن الآية الكريمة تتحدث عن السابقين المقربين فقط : أى أن السابقين المقربين الموجودين فى الجنة عددهم كثير من الأمم السابقة ، وقليل من أمة محمد ﷺ .

أما أصحاب اليمين الموجودون فى الجنة فهم ثلة من الأولين وثلة من الآخرين كما جاء فى نفس السورة فى جانب أصحاب اليمين (٢) ، فلا يمتنع أن يكون فى أصحاب اليمين من هذه الأمة المحمدية عدد أكثر من أصحاب اليمين من غيرهم من الأمم الأخرى ، فيجتمع من قليل سابقى هذه الأمة المحمدية ومن ثلة أصحاب اليمين منها عدد يكون نصف أهل الجنة .

---

(١) انظر صحيح البخارى كتاب الرقاق باب كيف الحشر جـ ٨ ص ١٣٧ وكتاب الأيمان والنذور باب كيف كانت يمين النبى ﷺ ص ١٦٣ ، وسنن الترمذى أبواب صفة الجنة باب ما جاء فى كم صف أهل الجنة جـ ٤ ص ٨٩ ، وسنن ابن ماجه كتاب الزهد باب صفة أمة محمد ﷺ ص ١٤٣٢ ، ومسند أحمد جـ ٣ ص ٣٣ — وروى نحو هذا الحديث عمران بن حصين وأبو سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنهما .

(٢) سورة الواقعة ٣٩ — ٤٠ .

على أن المقابلة بين الثلثين فى أصحاب اليمين لا تستلزم استواءهما وتعادلهما لأنه يجوز أن تقول : هذه الثلة أكثر من هذه الثلة ، وأن تقول : هذه الجماعة أكثر من هذه الجماعة [1] .

وبهذا التوفيق الرشيد والتوجيه السديد والجمع الحميد ينتفى التعارض بين الآية الحكيمة والحديث الشريف ويستبين أنه تعارض ظاهرى وشكلى متوهم .

وكذلك ينبغى أن تعلم — أخى القارىء — أنه لا يمكن أن يوجد تعارض حقيقى بين آية قرآنية وآية كونية :

لأن القرآن الكريم منزل من عند الله ، والكون من صنعه سبحانه وتعالى ، والائتلاف والانسجام قائم بين الآيات القرآنية والآيات الكونية المبثوثة فى الكون سواء أكانت آيات فى الآفاق أم فى الأنفس ، فالقرآن كون الله المسطور ، والكون قرآن الله المنثور ، ولو تجسم القرآن لكان آيات كونية ، ولو نطق الكون لكان آيات قرآنية .

فإن بدا تعارض بين آية قرآنية وآية كونية فالتعارض فى الظاهر ، أو فى عقل الناظر المتأمل لعدم صدقه فى النظر والتأمل ، أو لهوى ومرض فى نفسه ، أو لقلة ثقافته وتعلمه وضحالة فكره ، أو لخطأ فى النظرية العلمية والتجربة المعملية .

وإليك بعض الأمثلة المؤيدة لما تقدم ذكره :

فمثلا أثبت العلم الحديث أن الأرض معلقة وأنها تدور حول نفسها وحول الشمس وأن هذا آية عظمى من آيات الله ودليل على باهر قدرته .

---

(١) يشبه هذا قوله تعالى فى سورة الحج ١٨ : ﴿ ... وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ﴾ .

وما أثبته العلم فى ذلك يشير إليه قوله تعالى فى سورة فاطر : ﴿ إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴾[1] .

وأثبت العلم الحديث أن الأرض مدحوة أى جامعة بين التكور والانبساط منبعجة عند خط الاستواء فهى تشبه البيضة التى تسمى فى بعض البلاد بالدحية .

وما أثبته العلم يشير إليه قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشا ﴾ : الآية[2] ، وقوله سبحانه فى سورة الزمر : ﴿ .... يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ... ﴾[3]: الآية ، وقوله عز وجل فى سورة النازعات : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾[4] .

وأثبت العلم الحديث أن النباتات والأشجار فيها ذكورة وأنوثة ويقع بينها تلقيح بواسطة الرياح لتثمر .

وهذا ما جاء فى قوله جل وعلا فى سورة الذاريات : ﴿ ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾[5] ، وقوله — جل ثناؤه وتعاظم كبرياؤه — فى سورة الحجر : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ... ﴾ : الآية[6] .

فتلقيح النباتات والأشجار والسحب يتم بينها بواسطة الرياح كما جاء فى سياق الآيات فى سورة الحجر ، وربك على كل شىء قدير .

وأثبت العلم الحديث أن مركز الإحساس عند الإنسان فى الجلد ، ولذلك إذا شيك بشوكة أو بمثلها مما يؤلم فإنه يحس بالألم الشديد بمجرد دخول الشوكة جلده ، أما إذا تجاوزت الشوكة الجلد فإن حدة ألمه تخف بمقدار

---

(١) سورة فاطر ٤١ . (٢) سورة البقرة ٢٢ . (٣) سورة الزمر ٥ .
(٤) سورة النازعات ٣٠ . (٥) سورة الذاريات ٤٩ . (٦) سورة الحجر ٢٢ .

تجاوزها للجلد .

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذا فى سورة النساء فى قوله عن الكفار وحالهم فى جهنم :

﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ : الآية [(١)] .

وهكذا نرى أنه لايمكن أن يوجد تعارض بين آية قرآنية وآية كونية أو نفسية ، وأن عدم التعارض بينهما وجه من وجوه إعجاز القرآن العظيم ويعرف بالإعجاز العلمى [(٢)] .

وأنبهك — أخى القارىء — إلى أنه لا يجوز أن نفسر آية كونية من القرآن الكريم تفسيرا علميا بنظرية علمية إلا إذا ثبتت النظرية ثبوتا قطعيا وبشروط معينة وضحها العلماء الأجلاء ، وهذا موضوع آخر يطول الكلام فيه .

كما أنبهك إلى أنه إذا وجد فى نظرية علمية خلاف ماجاء فى القرآن الحكيم فإننا نرد النظرية ونخطؤها ونصدق القرآن الكريم ونوقن بما جاء فيه ، لأن فى كلام البشر الخطأ والصواب ، أما القرآن الكريم فهو كلام الله تعالى خالق القوى والقدر ، ومبرأ من أدنى عيب ، ومنزه عن أى خلل أو ريب ، والنازل به « جبريل » والناطق به « محمد » معصومان ، وهما الأمينان ، صلى

---

(١) سورة النساء ٥٦ .

(٢) قال القاضى أبو بكر الباقلانى — رحمه الله رحمة واسعة — فى كتابه : « التقريب والإرشاد فى أصول الفقه » :

« لايجوز تعارض آى القرآن والآثار وما توجبه أدلة العقل » ا هـ ، انظر نصه هذا فى : البرهان فى علوم القرآن لبدر الدين الزركشى جـ ٢ ص ٥١ ، والإتقان فى علوم القرآن لجلال الدين السيوطى جـ ٢ ص ٣٠ ، رحم الله تعالى سائر العلماء وأجزل لهم فى الآخرة العطاء .

الله تعالى وسلم عليهما فى كل أوان وزمان .

كما نسأله سبحانه وهو خير مسئول وأعظم مأمول أن يصلى ويسلم على كافة النبيين والمرسلين صلوات وتسليمات دائمات إلى يوم الدين .

المبحث الرابع
المحكم والمتشابه

المبحث الرابع

المحكم والمتشابه

اهتم السادة العلماء الفضلاء القدامى والمحدثون اهتماما كبيرا بالنظر فى هذا الموضوع ــ المحكم والمتشابه ــ ، وأتعب بعضهم أنفسهم بالخوض فى المتشابه ، والتنقيب عنه والتفرقة بينه وبين المحكم ، وتنوع موقفهم منه وكثرت آراؤهم واختلفت مذاهبهم .

ومما دفعهم إلى النظر والبحث فيه والإدلاء برأيهم : اتجاههم لفهم القرآن الكريم وتفسيره ، والعمل بما فيه ، ودفع الشبهات التى يثيرها أعداء الإسلام عليه .

والأصل فى مبحث ــ المحكم والمتشابه ــ ومثار البحث فى هذا الموضوع هو قوله تبارك وتعالى فى سورة آل عمران :

﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ (١) .

فهذه الآية الكريمة صريحة فى أن فى القرآن العظيم آيات محكمات هن أم

---

(١) ــ سورة آل عمران ٧

الكتاب وأصله الجامع ، وفيه آيات متشابهات :

أى بعضه محكم وهو الأصل والغالب ، وبعضه متشابه .

ولايعارض هذا قوله عز وجل فى سورة يونس عليه السلام : ﴿ الر تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ (١) .

وقوله تبارك وتعالى فى سورة هود عليه السلام : ﴿ الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ (٢) .

ونحوهما من الآيات الكريمة .

إذ المقصود بها أن القرآن كله محكم بمعنى أن آياته كلها محكمة متقنة جزلة رصينة فى ألفاظها ومعانيها ، جميلة فى نظمها ومبانيها ، بينها التناسب التام ، وفيها الإعجاز الباهر الفائق ، ويوافق بعضها بعضا ، ولا يوجد فيها أدنى اختلاف أو تناقض ، أو انفصال أو انفصام ، ولا يلحقها دخل أو خلل أو باطل .

وصدق الله العلى العظيم فى قوله فى القرآن الكريم ووصفه :

﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيما .. ﴾ (٣) .

﴿ قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون ﴾ (٤) .

﴿ وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ (٥) .

---

(١) — سورة يونس عليه السلام ١
(٢) — سورة هود عليه السلام ١
(٣) — سورة الكهف ١ — ٢
(٤) — سورة الزمر ٢٨
(٥) — سورة فصلت ٤١ — ٤٢

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[1] .

كما لا يعارض قوله تعالى فى سورة الزمر : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى .... ﴾ الآية[2] :

إذ المقصود بهذه الآية المجيدة أن القرآن كله أفضل الكلام وأسماه ، وأعلى الكتب السماوية المنزلة شأنا ، « ففضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله تعالى على سائر خلقه » — كما ورد فى الحديث —[3] .

فالقرآن أحسن الحديث ويشبه بعضه بعضا فى الحق والصدق والهداية والإعجاز والفصاحة والبلاغة والبيان والخصائص الأسلوبية والبيانية ، ويثنى أى تكرر بعض قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه وأمثاله ، وتردد قراءته كثيرا فلا تمجه الأذن ، ولا يمله القارىء ولا السامع ، ولا يخلق على كثرة الرد ، بل يلمس القارىء والسامع مافيه من نضرة وجدة ، ويحس بما فيه من حلاوة ، وما عليه من طلاوة ، ويكون القارىء له — وكذلك المستمع — دائما حالًا مرتحلا ، وهو أحب العمل إلى الله وأفضله كما ورد فى الحديث الذى رواه الإمام الدارمى بسنده عن زرارة ابن أبى أوفى أن النبى ﷺ سئل : أى العمل أفضل ؟ قال : الحال المرتحل ، قيل : وما الحال المرتحل ؟ ، قال : صاحب القرآن يضرب من أول القرآن إلى آخره ، ومن آخره إلى أوله ، كلما حل ارتحل .

ورواه الإمام الترمذى بسنده عن زرارة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهم قال : قال رجل : يارسول الله أى العمل أحب إلى الله ؟ قال : الحال

---

(١) — سورة الحجر ٩ (٢) — سورة الزمر ٢٣

(٣) — سبق تخريجه فى مقدمة المبحث الأول وهو مبحث التناسب بين الآيات والسور .

المرتحل (١) .

فعمدة هذا المبحث وأصله آية سورة آل عمران السابقة السابعة فى ترتيب آياتها ، والتى فيها تقسيم آيات القرآن الكريم إلى ماهى محكمة وماهى متشابهة .

فالمحكم والمتشابه متقابلان ، ونوعان موجودان فى القرآن .

---

(١) — سنن الدارمى كتاب فضائل القرآن باب فى ختم القرآن جـ ٢ ص ٤٦٩ .

وسنن الترمذى أبواب القراءات باب ٤ جـ ٤ ص ٢٦٧ ، وقال الترمذى عنه : حديث غريب لا نعرفه عن ابن عباس إلا من هذا الوجه .

وبين الترمذى أن هناك رواية أخرى بمعنى الرواية المذكورة وسندها ينتهى إلى زرارة عن النبى ﷺ وليس فى سندها الآخر ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ثم قال : « وهذا عندى أصح » ، أى الرواية التى لم يذكر فى سندها ابن عباس أصح عنده بسندها من الرواية التى ذكر فى سندها .

وزرارة هو : ابن أوفى العامرى الحرشى كان قاضى البصرة ، وكان عابدا ثقة ، سمع من بعض الصحابة كعمران بن حصين وعبد الله بن عباس وأبى هريرة وتميم الدارى وعبد الله بن سلام والمغيرة بن شعبة كما روى عنه بعض التابعين كقتادة بن دعامة ، وتوفى زرارة عام ٩٣هـ انظر تهذيب التهذيب لابن حجر جـ ٣ ص ٢٧٨ — وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال للخزرجى ١٢١ .

معنى المحكم والمتشابه
فى اللغة والاصطلاح

معنى المحكم والمتشابه فى اللغة :

المحكم : لفظ مأخوذ من الإحكام بمعنى : الإتقان والمنع ، ومنه : « حكمت الفرس وأحكمتها » بمعنى : منعتها وجعلت لها حكمة — بفتحات ثلاث — وهى حكمة اللجام المحيطة بحنكها لأنها تمنعها من الاضطراب والجماح وتساعد على الإمساك بها والسيطرة عليها ، و « الحكم » هو : الفصل بين الشيئين ، ومنه : « الحاكم » : لأنه يمنع الظلم ويقضى بين الخصمين ويميز بين الحق والباطل ، ويقال : « حكمت السفيه وأحكمته » : إذا منعته من سفهه وأخذت على يديه ، ومنه « الحكمة » : لأنها تمنع صاحبها عما لا يليق ولا ينبغى ، و « إحكام الشىء » : إصلاحه وإتقانه ، ويقال للبناء الوثيق وللعهد الوثيق الذى لا يمكن نقضه إنه : محكم ، والشىء المحكم : المتقن ، وقد قال عز وجل فى وصف القرآن الكريم :

﴿ كتاب أحكمت آياته ﴾[1] ، وقال جل ثناؤه : ﴿ .... فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته ﴾[2] .

---

(١) — جزء آية فى سورة هود عليه السلام ١

(٢) — جزء آية فى سورة الحج ٥٢

فالكلمة تأتى فى اللغة بمعنى :

الإتقان .

والإثبات .

والمنع .

أما « المتشابه » فهو : مأخوذ من التشابه وهو : أن يشبه أحد الشيئين الآخر ، يقال : « أشبه الشيء الشيء » : إذا ماثله ، ومنه : الشبه ، والشبه والشبيه ، أي المثل ، والمثل ، والمثيل ، ومنه : « الشبهة » و « الاشتباه » ، يقال : اشتبه على فلان الأمر : إذا أشبه غيره فلم يكد يفرق بينهما ، ويقال : « شبهتَ عليّ » : إذا لبستَ الحق بالباطل ، ويقال لكل ماغمض ودق : متشابه .

والتشابه يكون عينا ومعنى ، ومنه قول الله تبارك وتعالى فى وصف ثمار الجنة : ﴿ .... وأتوا به متشابها ﴾[1] : أى متفق المناظر مختلف الطعوم .

وقوله عز وجل فى وصف الكفرة : ﴿ ... تشابهت قلوبهم ﴾[2] : أى أشبه بعضها بعضا فى الكفر والعناد والجحود ، والقسوة والغلظة والجمود .

فالكلمة لايخرج معناها اللغوى عن :

التماثل .

والالتباس .

والخفاء .

والإبهام .[3]

---

(١) — جزء آية فى سورة البقرة ٢٥ (٢) — جزء آية فى سورة البقرة ١١٨

(٣) — انظر الصحاح للجوهرى جـ ٥ / ١٩٠١ — ١٩٠٢ و جـ ٦ / ٢٢٣٦ =

معناهما فى الاصطلاح :

أما فى الاصطلاح فقد اختلف العلماء فى المعنى الاصطلاحى المراد لكل منهما :

١ ــ فبعض العلماء يرى أن المحكم : ما عرف المقصود منه بنص من القرآن الكريم أو السنة المطهرة ، أو عرف المقصود منه بالتأويل والرأى الرشيد .

أما المتشابه فهو : ما استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه ولم يعرف أحد المراد منه ، مثل : خروج الدجال ، ووقت قيام الساعة ، والحروف المقطعة التى فى أوائل السور التسع والعشرين سورة ، وغيرها من الأمور التى لايمكن للعقل أن يهتدى إليها ، فكل مالا يهتدى العقل إليه ويكون معناه المراد غامضا خفيا يكون متشابها .

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبى فى تفسيره لآية سورة آل عمران السابق ذكرها :

« هذا أحسن ماقيل فى المتشابه أهـ(١) .

وقال الإمام جلال الدين السيوطى فى كتابه الإتقان عن أوائل السور : « ومن المتشابه أوائل السور ، والمختار فيها أيضا أنها من الأسرار التى لا يعلمها إلا الله تعالى أهـ(٢) .

ومن أصحاب هذا الرأى ــ أى المفرقين بين المحكم والمتشابه بالاصطلاح

= والمصباح المنير للفيومى صـ ١٤٥ ، ٣٠٣ ــ ٣٠٤ والقاموس المحيط للفيروز أبادى جـ ٤ صـ ٩٨ ــ ٢٨٦ .

(١) ــ الجامع لأحكام القرآن للقرطبى صـ ١٢٥٢ .

(٢) ــ الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ٢ صـ ٨ .

السابق — :

الأحناف وجمهور أهل السنة .

فهم لا يتكلمون فى المتشابه الذى ينطبق عليه التعريف السابق ، ولا يخوضون فى البحث فيه ، وإنما يؤمنون به ويقفون عند لفظه ، ويفوضون المعنى المراد منه والمقصود لله تعالى ، وشعارهم الدائم الذى يرفعونه وينطقون به هو قولهم : « الله أعلم بمراده منه » .

٢ — وبعضهم يرى أن المحكم فى القرآن هو : الفرائض ، والحدود ، والحلال ، والحرام ، والوعد ، والوعيد ، وكل مايجب الإيمان والعمل به لأن فى آياته أحكاما تكليفية .

أما المتشابه فهو : القصص والأمثال والأقسام وكل مايجب الإيمان به ولايعمل به ، أى ليست فى آياته أحكام تكليفية .

ومن أصحاب هذا الرأى وأهله : عكرمة مولى عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما ، وقتادة بن دعامة السدوسى ، ومجاهد بن جبر وغيرهم من التابعين رحمهم الله تعالى فقد روى عنهم ذلك .

فهم أطلقوا المتشابه على المتماثل فى القرآن الكريم ولم يقصروه على خفاء المعنى المراد وغموضه .

٣ — وبعضهم يرى أن المحكم : مالا يحتمل إلا وجها واحدا فى تأويله كقوله جل وعلا فى سورة البقرة : ﴿ وإلهكم إله واحد لاإله إلا هو ﴾ [١] ، وقوله عز شأنه وجل ثناؤه — فى سورة الإخلاص : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ [٢] .

---

(١) — سورة البقرة ١٦٣

(٢) — سورة الإخلاص ١

فيدخل فى المحكم على هذا التعريف : النص ، والظاهر .

أما المتشابه فهو : مااحتمل أوجها فى تفسيره وتأويله ، فيدخل فيه المشترك اللفظى كالقرء واللمس ونحوهما .

وينسب هذا الرأى إلى عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما ، ويعول عليه أكثر الأصوليين ، وقال به الإمام الشافعى وابن الأنبارى وغيرهما [1] .

٤ ــ وبعضهم يرى أن المحكم : ماكان واضح المعنى ظاهر الدلالة بحيث لا يتطرق إليه إشكال .

أما المتشابه فهو : ماكان غامض المعنى خفى الدلالة يحتاج إلى قرينة تحدد معناه وتزيل غموضه ، وإلى نظر دقيق وتفكير عميق يكشف النقاب عن معناه والمراد منه .

وهذا الرأى قريب مما قبله .

٥ ــ وبعضهم يرى أن المحكم : ما كان مستقلا بنفسه ولم يحتج إلى بيان .

أما المتشابه فهو ما لا يستقل بنفسه ، ويكون محتاجا فى فهمه إلى بيان وإلى رده لبعض الأصول .

وحكى هذا القول القاضى أبو يعلى عن الإمام أحمد بن حنبل رحمهما الله تعالى [2] .

٦ ــ وبعضهم يرى أن المحكم هو : ما استقر حكمه ولم يرد عليه نسخ .

أما المتشابه فهو : مانسخ العمل به .

٧ ــ ويرى أبو الحسن الماوردى أن المحكم : ما كان معقول المعنى مفهوم

---

(١) ــ انظر زاد المسير للعلامة ابن الجوزى جـ ١ صـ ٣٥٠ .

(٢) ــ انظر زاد المسير لابن الجوزى رحمه الله جـ ١ صـ ٣٥٠ .

الحكمة كفرض الطهارة ، وفرض الزكاة ، وتحريم الخمر

أما المتشابه فهو : ما كان غير معقول المعنى ولا مفهوم الحكمة كتحديد عدد الصلوات ، وعدد الركعات ، واختصاص شهر رمضان بالصيام المفروض دون غيره من الشهور .

وأرى أن هذا الرأى أوهى الآراء وأوهنها لأن موطن الخلاف ومحله فى المتشابه من الآيات وليس فى الأحكام الشرعية .

٨ ـــ وقال الإمام فخر الدين الرازى :

إن اللفظ الذى جعل موضوعا لمعنى إما أن لا يكون محتملا لغيره ، أو يكون محتملا لغيره :

الأول : النص . والثانى : إما أن يكون احتماله لأحد المعانى راجحا ولغيره مرجوحا وإما أن يكون احتماله لهما بالسوية : واللفظ بالنسبة للمعنى الراجح يسمى ظاهرا ، وبالنسبة للمعنى المرجوح يسمى مؤولا ، وبالنسبة للمعنيين المتساويين أو المعانى المتساوية يسمى مشتركا ، وبالنسبة لأحدهما على التعيين يسمى مجملا ، وقد يسمى اللفظ مشكلا إذا كان معناه الراجح باطلا ومعناه المرجوح حقا :

إذا عرفت هذا فاعلم أن المحكم :

ماكانت دلالته راجحة ، وهو النص والظاهر ، لاشتراكهما فى حصول الترجيح إلا أن النص راجح مانع من الغير ، والظاهر راجح غير مانع .

أما المتشابه فهو : ماكانت دلالته غير راجحة ، وهو المجمل ، والمؤول ، والمشكل ، لاشتراكهما فى أن دلالة كل غير راجحة .

وأما المشترك : فإن أريد منه كل معانيه فهو من قبيل الظاهر ، وإن أريد بعضها على التعيين فهو مجمل أهـ .

وقال نحوه العلامة الحسين الطيبى [1] .

٩ ـ وقال الراغب الأصفهانى فى كتابه : المفردات فى غريب القرآن [2] :

الآيات عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثة أضرب :

أ ـ محكم على الإطلاق .

ب ـ متشابه على الإطلاق .

جـ ـ محكم من وجه ، متشابه من وجه آخر .

فالمتشابه فى الجملة ثلاثة أضرب :

أ ـ متشابه من جهة اللفظ فقط .

ب ـ متشابه من جهة المعنى فقط .

جـ ـ متشابه من جهتهما .

فالمتشابه من جهة اللفظ فقط ضربان :

١ ـ متشابه يرجع إلى الألفاظ المفردة : إما من جهة الغرابة نحو : « الأب » فى قوله تعالى : ﴿ وفاكهة وأبا ﴾ [3] .

---

(١) ـ انظر مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى جـ ٧ صـ ١٦٨ ، والإتقان لجلال الدين السيوطى جـ ٢ صـ ٤ ، والطيبى هو : الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبى وهو إمام مشهور ومن أكابر علماء الحديث والتفسير واللغة ت ٧٤٣هـ انظر الدرر الكامنة لابن حجر جـ ٢ صـ ١٥٦ ، وبغية الوعاة للسيوطى صـ ٢٢٨ ، والبدر الطالع للشوكانى جـ ١ صـ ٢٢٩ .

(٢) ـ انظر المفردات فى غريب القرآن صـ ٢٥٤ ، والراغب الأصفهانى هو : أبو القاسم الحسين بن الفضل من كبار الأدباء والعلماء والمصنفين ت ٥٠٢هـ .

(٣) ـ سورة عبس ٣١ ـ والأب : ماترعاه البهائم بدليل قوله تعالى عقبها : ﴿ متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ .

وأما من جهة الاشتراك في اللفظ كاليد والعين واليمين .

٢ ــ ومتشابه يرجع إلى جملة الكلام المركب ، إما بسبب اختصاره كقوله تعالى : ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾الآية (١).

وإما بسبب بسطه كقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾(٢)، لأنه لو قال : ليس مثله شيء كان أظهر للسامع(٣) .

وإما بسبب نظمه كقوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيما ﴾ (٤)، تقديره : أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا .

والمتشابه من جهة المعنى :

أوصاف الله تعالى ، وأوصاف يوم القيامة ، فإنها لا تتصور لنا .

والمتشابه من جهتهما خمسة أضرب :

(١) ــ سورة النساء ٣

(٢) ــ سورة الشورى ١١

(٣) ــ هذا النص الذى ذكره الراغب رحمه الله وإن كان أظهر للسامع أقل بلاغة وأدنى عمقا من الآية الكريمة الحكيمة ، إذ الآية تنفى الند والشريك والمثيل لله سبحانه بأبلغ أسلوب وأكمل فصاحة وبيان ، والكاف ليست زائدة من حيث المعنى كما قد يتوهم ، فلوجودها مغزى عميق ومعنى دقيق يختل بحذفها ، فهى كاف لا يمكن الاستغناء عنها فى تمام المعنى وكماله ، ويكون معنى الآية : ليس مثل مثله شيء ، فإذا كان مثله ــ على فرض وجوده ــ ليس له مثل فكيف يكون لله تعالى مثل ؟ ومعلوم أن المشبه أقل من المشبه به فى وجه الشبه ، ولهذا قال العلماء الأجلاء : لا يوجد حرف زائد فى القرآن يستغنى عنه من حيث المعنى .

(٤) ــ سورة الكهف ١ ــ ٢

الأول : من جهة الكمية كالعموم والخصوص فى قوله تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين ﴾ (١) .

الثانى : من جهة الكيفية كالوجوب والندب فى الأمر فى قوله تعالى : ﴿ فانكحوا ماطاب لكم من النساء ﴾ . .

الثالث : من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ كقوله تعالى : ﴿ ...اتقوا الله حق تقاته ﴾ (٢) ، ﴿ فاتقوا الله ناستطعتم ﴾ (٣) .

الرابع : من جهة المكان ، والأمور التى نزلت فيها نحو قوله تعالى : ﴿ .... وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ﴾ (٤) .

فإن من لايعرف عادتهم فى الجاهلية وأنهم كانوا إذا أحرموا فى الجاهلية أتوا البيت من ظهره وكأنهم كانوا يتحرجون من الدخول من الباب من أجل سقف الباب أن يحول بينهم وبين السماء ، من لا يعرف عادتهم هذه يتعذر عليه تفسير هذه الآية .

الخامس : من جهة الشروط التى يصح بها الفعل ويفسد كشروط صحة الصلاة والنكاح ....

وهذه الجملة إذا تصورت علم أن كل ماذكره المفسرون فى تفسير المتشابه لايخرج عن هذه التقاسيم اهـ كلام الراغب رحمه الله .

وقيل فى تعريف المحكم والمتشابه غير ذلك ، وفيما ذكرناه غنية عما لم تذكره

---

(١) ـــ سورة التوبة ٥

(٢) (٣) ـــ سورة آل عمران ١٠٢ ، وسورة التغابن ١٦ ، وتقدم فى المبحث الثالث تحت عنوان : « اختلاف الموضوع » أنه لا تعارض بين هاتين الآيتين ولا تناقض وجمعنا بينهما بما يشفى ويكفى فلا نسخ بينهما على القول الصحيح والرأى الرجيح .

(٤) ـــ سورة البقرة ١٨٩ .

لرجوعه إلى المذكور .

وهذه الآراء المذكورة فى تعريف المحكم والمتشابه والتمييز بينهما متشابهة ومتقاربة إذ لا مشاحة فى الاصطلاح[1] ويمكن أن يجمعها قولك :

المحكم : ماكان ظاهر المعنى واضح الدلالة على مراد الله تعالى من كلامه لاخفاء فيه .

والمتشابه : ماكان دقيق المعنى خفيه غير واضح الدلالة على مراد الله الكريم .

---

(١) ـــ قال العلامة بدر الدين الزركشى عقب ذكره تعريفات للمتشابه :
وقيل غير ذلك وكلها متقارب اهـ انظر البرهان فى علوم القرآن للزركشى جـ ٢ صـ ٧٠ .

رأى العلماء فى معرفة المتشابه
والعلم به

لما كان المحكم واضح الدلالة لاخفاء فى معناه والمراد منه اتفق العلماء على رد المتشابه إليه والتعويل عليه ، ولم يشغلهم البحث عنه والتفتيش فيه كما شغلوا بالبحث والتفتيش فى المتشابه .

واختلف موقفهم من المتشابه كالحروف المقطعة فى أوائل السور التسع والعشرين ومتشابه الصفات « صفات الله تعالى » وخروج الدجال وغير ذلك .

ففريق يرى أن المتشابه لا سبيل إلى معرفته لأن الله تعالى استأثر بعلمه ، فلا يجوز أن نبحث فيه ، ونشغل أنفسنا به ، ونضيع الوقت بالخوض فيه ، وإنما يجب علينا أن نصدق ونسلم به ونعترف بعجزنا وقصورنا أمامه ، ونقول آمنا به إنه من عند ربنا ، ولا نتعرض لتأويله .

ومن هذا الفريق جمهور أهل السنة :

فهم يفوضون المعنى المراد من المتشابه إلى الله تبارك وتعالى ، ويكلون علمه إليه سبحانه ، ويمنعون التأويل والخوض فيه .

ويجعلون الوقت لازما وتاما على قوله تعالى : ﴿ ....وما يعلم تأويله إلا الله ﴾[1] ، أى لا يعلم تأويله إلا الله وحده ، ويبتدئون الكلام بقوله

(١) ـــ الآية فى سورة آل عمران رقم ٧ ـــ وسبق ذكرها فى صدر هذا المبحث .

سبحانه : ﴿ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ ، على أنها جملة مستأنفة تتكون من مبتدأ هو : « الراسخون » ، وخبر هو جملة : « يقولون » ، فجملة « يقولون » عمدة وركن فى الجملة ومحلها الرفع والواو التى قبل كلمة « الراسخون » للاستئناف .

وفريق آخر يرى أن للعقل البشرى مجالا فى البحث فى المتشابه ، ويمكن أن يصل إلى فهمه ومعرفته بإمعان النظر وإدمان الفكر العلماء الراسخون المتبحرون .

فهو من الحكمة التى يؤتيها الله من يشاء من عباده من الراسخين فى العلم .

ومن هذا الفريق : عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ـــ وهو رواية عنه ـــ وتلميذه مجاهد بن جبر ، وأبو الحسن الأشعرى ، وابن قتيبة [١] ، والنووى [٢] ، وابن الحاجب ، وأبو إسحق الشيرازى ، والمعتزلة .

---

(١) ـــ قال العلامة ابن قتيبة فى كتابه : « تأويل مشكل القرآن » صـ ٩٨ ـــ ١٠٠ :

ولسنا ممن يزعم أن المتشابه فى القرآن لا يعلمه الراسخون فى العلم ، وهذا غلط من متأوليه على اللغة والمعنى ، ولم ينزل الله شيئا من القرآن إلا لينفع به عباده ويدل به على معنى أراده .... وهل يجوز لأحد أن يقول : إن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف المتشابه ؟ ، وإذا جاز أن يعرفه مع قوله تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته فقد علّم عليا ـــ رضى الله عنه ـــ التفسير ودعا لابن عباس فقال : « اللهم علمه التأويل وفقه فى الدين » .....

ولم نر المفسرين توقفوا عن شيء من القرآن وقالوا : هذا متشابه لا يعلمه إلا الله ، بل أمروه على التفسير حتى فسروا الحروف المقطعة فى أوائل السور أهـ .

(٢) ـــ قال الإمام النووى فى شرحه لصحيح الإمام مسلم رحمهما الله تعالى بواسع رحمته : =

فهؤلاء يجيزون البحث فى المتشابه وتأويله بغية الوصول إلى فهمه ، ويرون أنه يمكن فهمه والعلم به .

وليس الوقف عندهم لازما على قوله جل وعلا : « وما يعلم تأويله إلا الله » ، فيجوز عطف قوله تعالى : ﴿ والراسخون فى العلم ﴾ على لفظ الجلالة ، وتكون الواو التى قبل كلمة « الراسخون » للعطف ، وتكون جملة : « يقولون » منصوبة على أنها حال من المعطوف : أى لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم حال كونهم قائلين آمنا به لا عامة الناس .

وجملة « يقولون » على هذا الرأى تكون فضلة ، ومحلها النصب كما علمت .

فالراسخون يفهمونه ويعلمونه هبة من الله تعالى ومنحة لرسوخ أقدامهم فى الفهم والعلم ، وسعة مداركهم ، وعميق ثقافتهم ، وطول باعهم ، وكمال صلتهم بالله واسع الفضل والعطاء ، سبحانه جل ثناؤه ، وتباركت أسماؤه .

وليس بلازم عندهم أن تكون الواو التى قبل كلمة : « الراسخون » للاستئناف إذ جعلها للاستئناف بدون دليل تحكم ، وترجيح بغير مرجح ، ولا مانع من جعلها للعطف [1] .

= إنه الأصح لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته اهـ ، انظر كتاب العلم باب النهى عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه والنهى عن الاختلاف فى القرآن جـ ٥ صـ ٥٢٣ صحيح مسلم بشرح النووى .

(١) ـــ بعض العلماء يرى أن الوقف لازم على لفظ الجلالة إن كان المراد بالتأويل : حقائق الأشياء الواردة فى القرآن الكريم وكنهها وعواقبها ومآلها ، ومن هذا المعنى قوله تعالى فى سورة الأعراف ٥٣ : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله ﴾ : الآية ، أى حقيقة ما أخبرهم الله تعالى به من أمر المعاد .

فحقائق صفات الجنة والنار وأحوال الآخرة والحقيقة المرادة من الأحرف المقطعة فى أوائل السور وغير ذلك مما استأثر الله تعالى بعلمه أمر لا يعلمه على الجلية والكمال

ولكل من الفريقين أدلته التى يؤيد بها رأيه ووجهة نظره :

فمن أدلة الفريق الأول : وهم الأكثرون من الصحابة والتابعين وأتباعهم ومن بعدهم خاصة أهل السنة ، وهو أصح الروايات عن حبر الأمة عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما — كما قال جلال الدين السيوطى فى كتابيه : « الإتقان فى علوم القرآن » و « التحبير فى علم التفسير »[1] :

من أدلتهم :

١ — ما أخرجه عبد الرزاق فى تفسيره وابن جرير فى تفسيره والحاكم فى مستدركه بسندهم عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه كان يقرأ :

« وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون فى العلم آمنا به كل من عند

إلا الله سبحانه وحده .

وأن الوقف غير لازم على لفظ الجلالة إن كان المراد بالتأويل : التوضيح والتفسير والبيان كقوله تعالى فى سورة يوسف عليه السلام ٣٦ : ﴿ نبئنا بتأويله ﴾ أى بتفسيره ، لأن العلماء الراسخين المتمكنين فى العلم يفهمون مايخاطبهم الله تعالى به بهذا المعنى وإن لم يحيطوا علما بحقائق الأشياء المذكورة فى القرآن الحكيم على ماهى عليه : انظر تفسير الحافظ ابن كثير جـ ١ صـ ٣٤٧ .

وهو تفصيل طيب ووجيه أميل إليه وأقول به لأنه يجمع بين القولين الآخرين ويوفق بينهما ويتلاءم مع النصوص الآمرة بتدبر القرآن الكريم وتعقله ومع دعاء الرسول ﷺ لابن عباس رضى الله عنهما بالتفقه فى الدين وتعلم التأويل .

(١) — انظر الإتيان فى علوم القرآن جـ ٢ صـ ٣ — ٤ — والتحبير فى علم التفسير صـ ٢٢٠ وكلاهما للسيوطى .

ربنا » .

وروى ابن جرير نحوه عن عروة بن الزبير وأبى نهيك الأسدى ومالك بن أنس رحمهم الله تعالى ورضى عنهم [1] .

فهذه القراءة صريحة فى أن الواو ليست للعطف وإنما هى للاستئناف .

وهذه الرواية ـــ وإن جاءت فيها قراءة شاذة وآحادية ـــ خبر عن حبر الأمة وترجمان القرآن وفقيه الدين ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ومبينة أن الواو للاستئناف ، فيقدم كلامه فى ذلك على من دونه .

٢ ـــ وحكى الفراء أن أبى بن كعب رضى الله تعالى عنه قرأ مثل قراءة عبد الله بن عباس ـــ رضى الله تعالى عنهما ـــ السابقة .

وأخرج أبو بكر ابن أبى داود فى كتابه « المصاحف » من طريق الأعمش أن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قرأ :

« وإن تأويله إلا عند الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به » [2] .

فهذه القراءة على الرغم من شذوذها وآحاديتها تبين أن الواو للاستئناف حتما إذ لا يصح عطف كلمة « الراسخون » على لفظ الجلالة « الله » لاختلافهما فى الجر والرفع ، فصار علم المتشابه بهذه القراءة مقصورا على الله تعالى وحده .

---

(١) ـــ انظر الإتقان للسيوطى جـ ٢ صـ ٣ ، وجامع البيان للطبرى جـ ٣ صـ ١٨٢ ـــ ١٨٣ ـــ والمستدرك على الصحيحين للحاكم جـ ٢ صـ ٢٨٩ ـــ وقال : حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وأقره الذهبى .

(٢) ـــ انظر الإتقان للسيوطى جـ ٢ صـ ٣ ، وجامع البيان للطبرى جـ ٣ صـ ١٨٤ ، والمصاحف لابن أبى داود صـ ٥٩ مصحف عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

٣ ــ وأخرج الشيخان والترمذى وأبو داود والدارمى وغيرهم بأسانيدهم عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت :

« تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات .... إلى قوله تعالى : ... وما يذكر إلا أولوا الألباب » ، قالت : قال رسول الله ﷺ :

إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم »[1] .

٤ ــ وأخرج الطبرانى فى معجمه الكبير بسنده عن أبى مالك الأشعرى رضى الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

« لا أخاف على أمتى إلا ثلاث خلال : أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتلوا ، وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغى تأويله : وما يعلم تأويله إلا الله : الآية . وأن يزاد علمهم فيضيعوه ولا يبالون به » الحديث[2] .

٥ ــ وأخرج أحمد وابن مردويه بسندهما عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

---

(١) ــ صحيح البخارى كتاب التفسير تفسير سورة آل عمران جـ ٦ صـ ٤٢ ، وصحيح مسلم بشرح النووى كتب العلم باب النهى عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه والنهى عن الاختلاف فى القرآن جـ ٥ صـ ٥٢٢ ، وسنن الترمذى أبواب التفسير سورة آل عمران جـ ٤ صـ ٢٩٠ ــ ٢٩١ ، وسنن أبى داود كتاب السنة باب مجانبة أهل الأهواء جـ ٤ صـ ١٩٨ ، وسنن الدارمى المقدمة باب من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع جـ ١ صـ ٥٥ .

(٢) ــ الدر المنثور فى التفسير بالمأثور جـ ٢ صـ ٥ ــ والإتقان فى علوم القرآن جـ ٢ صـ ٣ وكلاهما للسيوطى .

« إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به ، وردوه إلى عالمه [1].

٦ ــ وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير بسندهما عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : « كان من رسوخهم فى العلم أن آمنوا بمتشابهه ولا يعلمون تأويله »[2] .

٧ ــ وأخرج الدارمى فى سننه بسنده عن سليمان بن يسار رضى الله تعالى عنه أن رجلا يقال له صبيغ بن عسل قدم المدينة فجعل يسأل الناس عن متشابه القرآن ، فأرسل إليه أمير المؤمنين عمر رضى الله تعالى عنه وقد أعد له عراجين النخل ، فقال له : من أنت ؟ قال : أنا عبد الله صبيغ ، فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين وأخذ يضربه ويقول : وأنا عبد الله عمر ، حتى دمى رأسه ، فقال : يا أمير المؤمنين : حسبك قد ذهب الذى كنت أجد فى رأسى ، ثم نفاه عمر من المدينة وحذر من مجالسته »[3].

٨ ــ وروى ابن جرير الطبرى بسنده عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما مرفوعا وموقوفا :

« أنزل القرآن على أربعة أحرف : حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته . وتفسير يفسره العرب . وتفسير يفسره العلماء . ومتشابه لا يعلمه إلا الله ، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب »[4].

---

(١) ــ المسند للإمام أحمد جـ ٢ صـ ١٨١ ، والإتقان للسيوطى جـ ٢ صـ ٣ ــ وتفسير ابن كثير جـ ١ صـ ٣٤٦ .

(٢) ــ جامع البيان للطبرى جـ ٣ صـ ١٨٢ ، والإتقان للسيوطى جـ ٢ صـ ٣ .

(٣) ــ انظر مقدمة سنن الدارمى صـ ٥٤ ، وانظر الإتقان للسيوطى جـ ٢ صـ ٤ .

(٤) ــ مقدمة جامع البيان لابن جرير الطبرى جـ ١ صـ ٣٤ .

٩ ــ وآية سورة آل عمران السابقة السابعة فى ترتيب آياتها :

تضمنت ذم من فى قلوبهم مرض وزيغ ويتبعون المتشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، كما تضمنت المدح والثناء على الذين يفوضون علم المتشابه إلى الله تبارك وتعالى ، ويسلمون إليه ، ويؤمنون به ، فهم ممدوحون بإيمانهم بالمتشابه كالمؤمنين بالغيب الموقنين به .

وأقول :

إن فى استشهاد هذا الفريق بالآية الكريمة على رأيهم ووجهة نظرهم نظرا : لأن من يتبعون المتشابه ابتغاء فهمه والعلم به والإيمان به والعمل بمقتضاه لا تذمهم الآية الكريمة المجيدة ، وإنما ذمت الذين فى قلوبهم مرض وزيغ عن الحق والصدق كاليهود والنصارى وأهل النحل الفاسدة وأصحاب البدع الكاسدة الذين يتبعون المتشابه ابتغاء تأويله تأويلا فاسدا معوجا مخالفا للحق عاريا عن الصدق بعيدا عن روح الشرع ، وابتغاء تشكيك المسلمين وفتنتهم ، وبث الشبهات والوساوس والدسائس فى عقولهم وقلوبهم ليصرفوهم عن دينهم الحنيف . فيوجد بون بين الموقفين ، وفرق بين الحالين .

ومن أدلة الفريق الثانى : وهم طائفة يسيرة ، وشرذمة قليلة من العلماء كما قال جلال الدين السيوطى فى كتابه : « الإتقان » وابن السمعانى :

من أدلتهم :

١ ــ قوله تعالى فى سورة هود عليه السلام :

« الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »[1] :

قالوا : هذه الآية تفيد أن آيات القرآن الكريم مفصلة مبينة كلها وليس فيه

---

(١) ــ سورة هود عليه السلام ١ .

شيء يستحيل فهمه ، وتمتنع معرفته .

٢ ــ وما رواه ابن المنذر وابن جرير بسندهما عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى : وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ... » :

قال ابن عباس رضي الله عنهما : أنا ممن يعلم تأويله »[١].

٣ ــ وأخرج عبد بن حميد وابن جرير بسندهما عن مجاهد بن جبر رحمه الله تعالى أنه قال عن الراسخين في العلم :

« إنهم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به » .

وروى أبو جعفر ابن جرير نحوه عن الربيع بن محمد[٢].

٤ ــ وأخرج ابن أبي حاتم بسنده عن الضحاك بن مزاحم رحمه الله أنه قال :

« يعلمون تأويله ، لو لم يعلموا تأويله لم يعلموا ناسخه من منسوخه ، ولا حلاله من حرامه ، ولا محكمه من متشابهه »[٣] .

٥ ــ وروى البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجه والنسائي وأحمد والدارمي وغيرهم بأسانيدهم عن النعمان بن بشير ، وعبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال :

« إن الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس »[٤] :

---

(١) ــ(٢) ــ(٣) ــ انظر جامع البيان للطبري جـ ٣ صـ ١٨٣ ، والإتقان للسيوطي جـ ٢ صـ ٣ ، وتفسير ابن كثير جـ ١ صـ ٣٤٧ .

(٤) ــ انظر الحديث بطوله في صحيح البخاري كتاب الإيمان باب فضل من

قالوا : هذا الحديث الصحيح يدل على أن قليلا من الناس يعلم المتشابهات وهم العلماء الراسخون فى العلم .

٦ — وروى الشيخان — البخارى ومسلم — والترمذى وابن ماجة وأحمد بأسانيدهم عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما أن النبى ﷺ دعا له فقال : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » ، وفى رواية : « وعلمه تأويل الكتاب » ، وفى رواية : « وعلمه الحكمة »[1].

قالوا : فلو كان التأويل ممنوعا ولا يعلمه إلا الله تعالى واختص به لما كان

استبرأ لدينه جـ ١ صـ ٢١ ، وكتاب البيوع باب الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات جـ ٣ صـ ٦٩ ، وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب المساقاة والمزارعة باب أخذ الحلال وترك الشبهات جـ ٤ صـ ١١٠ ، وسنن الترمذى أبواب البيوع باب ما جاء فى ترك الشبهات جـ ٢ صـ ٣٤٠ ، وسنن أبى داود كتاب البيوع باب فى اجتناب الشبهات جـ ٣ صـ ٢٤٣ وسنن ابن ماجه كتاب الفتن باب الوقوف عند الشبهات صـ ١٣١٨ ، وسنن النسائى كتاب البيوع باب اجتناب الشبهات فى الكسب جـ ٧ صـ ٢٤١ — وكتاب آداب القضاة باب الحكم باتفاق أهل العلم جـ ٨ صـ ٢٣٠ — وكتاب الأشربة باب الحث على ترك الشبهات جـ ٨ صـ ٣٢٧ ، وسنن الدارمى كتاب البيوع باب فى الحلال بين والحرام بين جـ ٢ صـ ٢٤٥ ، ومسند أحمد جـ ٤ صـ ٢٦٩ — ٢٧٠ — ٢٧١ — ٢٧٥ — .

(١) — صحيح البخارى كتاب الوضوء باب وضع الماء عند الخلاء جـ ١ صـ ٤٧ — وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب فضائل الصحابة رضى الله تعالى عنهم باب من فضائل عبد الله بن عباس جـ ٥ صـ ٣٤٥ ، وسنن الترمذى أبواب المناقب مناقب عبد الله بن العباس جـ ٥ صـ ٣٤٣ ، وسنن ابن ماجه المقدمة فضل ابن عباس صـ ٥٨ ، ومسند أحمد جـ ١ صـ ٢٦٦ — ٣١٤ — ٣٢٨ — ٣٣٥ — .

لدعاء الرسول ﷺ لابن عباس معنى .

٧ ــ وأن آية سورة آل عمران السابقة مدحت العلماء وأثنت عليهم ، فلو كانوا لا يعرفون معنى المتشابه لما خصهم الله بالذكر فى الآية ، ولكانوا مشاركين لعامة الناس .

ولو كان المراد بالآية بيان حظ الراسخين من العلماء مقابلا لبيان حظ الزائفين من الناس لكان المناسب أن يقال : « وأما الراسخون فيقولون ..... » .

٨ ــ لو كان المتشابه مما لا يمكن لأحد من البشر فهمه وعلمه ، واستأثر الله سبحانه بعلمه لما كان المحكم أمًّا للكتاب وأصلا ومرجعا له ، لأنه لا رجوع بالمتشابه إلى المحكم فيما استأثر الله تعالى بعلمه واختص به .

ثم إنه يستبعد أن يخاطب الله جل وعلا عباده بشىء لا سبيل لأحد منهم إلى معرفته وفهمه والوقوف عليه وتأويله والعلم به .

هذه طائفة من أدلة الفريقين على رأيهما ووجهة نظرهما .

وإن الباحث المحقق والعالم المدقق لا يمكنه أن يأخذ برأى الفريق الأول كلية ويقيد نفسه به ويجعله نبراسه فى كل مسألة متشابهة ، فيقف أمام آيات القرآن الكريم وعطائه جامدا مشلول العقل مغلول الفكر موصدا باب التأمل والنظر على عقله ، تاركا أعداء الإسلام يثيرون الشبهات ويحاولون تصويب الطعنات إلى القرآن المجيد خاصة ، وإلى الإسلام الحنيف عامة ، وإنما عليه أن يبحث فى القرآن ويعمل عقله ويفكر ويتأمل مهتديا بروح الشرع وقواعد اللغة ، وفوق ذلك كله بنور الله تعالى ، ثم يقول رأيه فى نهاية المطاف ولا يجزم به ولا يقطع بقوله ، إنما يسلم المعنى المراد ويكله لله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه .

ولا يمكنه كذلك أن يأخذ برأى الفريق الثانى جملة ويلزم نفسه به فى كل مسألة ويجعله مبدأ له ومنهجا ودربا يسير عليه ، لأن هذا يفضى إلى التخبط فى التأويل ، والخطأ فى الفهم ، وفتح أبواب الشبهات ، وتفتيح العقول على أشياء هى فى غنى عنها ، وليست مكلفة بها ، وربما يجزم أحد برأى ولا يكون رأيه الذى توصل إليه مرادا لله تبارك وتعالى فيتردى فى خطأ كبير ، ويهوى فى مكان سحيق ، إذ فى القرآن المجيد أشياء لا يمكن للعقل مهما بلغ رسوخه فى الفهم ورقيه فى العلم أن يصل إليها كموعد الساعة ، ووقت خروج الدجال ، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام وغير ذلك ....

وقد مر القول الصواب فى معنى « التأويل » ، فى هذا المبحث .

وقد أجاد الراغب الأصفهانى رحمه الله فى قوله فى كتابه : « المفردات فى غريب القرآن » : جميع المتشابه على ثلاثة أضرب :

ـ ضرب لا سبيل للوقوف عليه كوقت الساعة ، وخروج دابة الأرض ، وكيفية الدابة ونحو ذلك .

ـ وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته كالألفاظ الغريبة والأحكام الغلقة .

ـ وضرب متردد بين الأمرين : يجوز أن يختص بمعرفة حقيقته بعض الراسخين فى العلم ، ويخفى على من دونهم ، وهو الضرب المشار إليه بقوله عليه السلام لابن عباس رضى الله عنهما : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » .

وإذ عرفت هذه الجملة علم أن الوقف على قوله تعالى : « وما يعلم تأويله إلا الله » ، ووصله بقوله : « والراسخون فى العلم » ، جائز ، وأن لكل واحد منهما وجها حسبما دل عليه التفصيل المتقدم أهـ(١) .

---

(٢) ــ المفردات فى غريب القرآن صـ ٢٥٥ للراغب الأصفهانى رحمه الله وعفا عنه

وهو فى نظرى كلام نفيس ووجيه ، وفيه قصد واعتدال ، يحاول به — وهو محق — التقريب أو التوفيق بين المذهبين السابقين المتقابلين .

وكلامه يدل على عمق الفكر ، وسعة الأفق ، وجودة الفهم ، واتقاد القريحة ، ورحابة الصدر ، وانتفاء التعصب : وهو المطلوب فى العلماء ، فاحرص على ما قال ، وعض عليه بالنواجذ ، أو اشدد عليه بيديك .

وغفر له ولسائر علماء المسلمين

متشابه الصفات

إذا ذكر لفظ « المتشابه » تبادر إلى الذهن ما جاء فى القرآن الكريم والسنة المطهرة من آيات وأحاديث تصف الله تعالى بأوصاف توهم التشبيه ، ويستحيل حملها على ظاهرها لاستلزام حملها عليه مشابهته سبحانه للحوادث ، واتصافه بما يتصف به خلقه : تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ولاهتمام العلماء الفضلاء بها كادوا يخصون المتشابه بمتشابه الصفات . وقد صنف العلامة شمس الدين ابن اللبان [1] كتابا خاصا بمتشابه الصفات سماه : « رد الآيات المتشابهات إلى الآيات المحكمات » .

وألف قبله أبو بكر محى الدين محمد بن على بن عربى الحاتمى الطائى الأندلسى ت ٦٣٨ هـ كتابا آخر فى ذلك سماه : « رد معانى الآيات المتشابهات إلى معانى الآيات المحكمات » وطبعته مطبعة الاستقامة ببيروت .

وتعرض له كل من كتب فى التفسير ، وفى علوم القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، كما تعرض له الفقهاء وعلماء علم الكلام .

أمثلة لمتشابه الصفات فى القرآن والسنة

ورد فى القرآن الكريم آيات فيها أوصاف لله تبارك وتعالى توهم

---

(١) ـــ هو شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد المؤمن الأسعردى الدمشقى الشهير بابن اللبان ، كان من كبار العلماء والمفسرين ت ٧٤٩هـ انظر الأعلام للزركلى جـ ٢ صـ ٨٥٣ .

التشبيه ، وكذلك ورد فى السنة المطهرة أحاديث فى ذلك ، منها :

وجه الله :

قال الله جل شأنه فى سورة القصص : « كل شيء هالك إلا وجهه »[1].

وقال فى سورة الرحمن : « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام »[2].

وقال فى سورة الإنسان : « إنما نطعمكم لوجه الله ... الآية »[3].

وغيرها من الآيات الكريمة .

يد الله ويمينه :

قال الله تبارك وتعالى فى سورة المائدة : « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء »[4].

وقال فى سورة يس : أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون[5].

وقال فى سورة الفتح : ... يد الله فوق أيديهم[6].

وقال فى سورة الزمر : ... والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه[7].

---

(١) — سورة القصص ٨٨ .
(٢) — سورة الرحمن سبحانه وتعالى ٢٦ — ٢٧ .
(٣) — سورة الإنسان أو هل أتى ٩
(٤) — سورة المائدة ٦٤
(٥) — سورة يس ٧١
(٦) — سورة الفتح ١٠ .
(٧) — سورة الزمر ٦٧

وغيرها من الآيات الكريمة .

عين الله :

قال الله عز وجل في سورة طه : ... وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى [1].

وقال فى سورة الطور : واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا

وغير ذلك من الآيات المجيدة الحكيمة .

جنب الله :

قال عز من قائل فى سورة الزمر : « أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله » الآية [3].

ساق الله :

قال الله جل شأنه فى سورة القلم : يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون .

وروى فى حديث الرؤية عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ أن الجبار يكشف عن ساقه : وهو حديث طويل [4].

قدم الله :

قال الرسول ﷺ فيما رواه الشيخان والترمذى وأحمد وغيرهم بأسانيدهم عن أنس بن مالك وأبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله تعالى عنهم :

---

(١) ـ سورة طه ٣٩ (٢) ـ سورة الطور ٤٨ (٣) ـ سورة الزمر ٥٦

(٤) ـ سورة القلم أو ن ٤٢ وانظر صحيح البخارى كتاب التوحيد باب قول الله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة جـ ٩ صـ ١٥٩ وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب الإيمان باب رؤية الله فى الآخرة جـ ١ صـ ٤٣٤ .

« لا تزال جهنم يلقى فيها وهى تقول : هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فتقول : قط ، قط ... الحديث[1].

نفس الله :

قال الله سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران : ... ويحذركم الله نفسه[2].

وقال فى سورة المائدة حكاية لما يقوله عيسى ابن مريم عليه السلام : ... تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك[3].

وغيرهما من الآيات الكريمة .

مجىء الله وإتيانه وذهابه :

قال الله تعالى فى سورة الفجر : وجاء ربك والملك صفا صفا[4].

وقال فى سورة الأنعام : هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك[5].

وقال فى سورة المائدة حكاية لكلام بنى إسرائيل لنبيهم موسى عليه السلام : « ... فاذهب أنت وربك فقاتلا »[6].

---

(١) ـــ انظر الروايات فى صحيح البخارى كتاب التفسير سورة ق جـ ٦ صـ ١٧٣ ـــ وكتاب الأيمان والنذور باب الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته جـ ٨ صـ ١٦٨ ـــ وكتاب التوحيد باب ما جاء فى قوله تعالى ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ جـ ٩ صـ ١٦٤ ، وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب جهنم أعاذنا الله منها جـ ٥ صـ ٧٠٢ ـــ ٧٠٤ ـــ وسنن الترمذى أبواب التفسير تفسير سورة ق جـ ٥ صـ ٦٥ ـــ ومسند أحمد جـ ٢ صـ ٣٦٩ ـــ و صـ ٥٠٧ و جـ ٣ / ١٣ ـــ ومعنى : قط ، قط : حسبى حسبى .

(٢) ـــ سورة آل عمران ٢٨ (٣) ـــ سورة المائدة ١١٦ (٤) ـــ سورة الفجر ٢٢

(٥) ـــ سورة الأنعام ١٥٨ (٦) ـــ سورة المائدة ٢٤

فوقية الله :

قال الله جل ثناؤه فى سورة الأنعام : وهو القاهر فوق عباده »[1] .

وقال فى سورة النحل : يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون »[2] .

وغيرهما من الآيات الكريمة .

قرب الله :

قال الله عز وجل فى سورة البقرة : وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب[3] .

وقال فى سورة ق عن الإنسان : .... ونحن أقرب إليه من حبل الوريد[4] .

وغيرهما من الآيات المجيدة .

معية الله وعنديته :

قال الله تبارك اسمه فى سورة الحديد : ... وهو معكم أينما كنتم[5].

وقال فى سورة فصلت : فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون[6].

وغيرهما من الآيات المباركة .

استواء الله على العرش :

قال الله سبحانه فى سورة الأعراف :..... ثم استوى على العرش[7] .

وقال فى سورة طه : الرحمن على العرش استوى[8] .

(١) ــ سورة الأنعام ١٨ ــ ٦١
(٢) ــ سورة النحل ٥٠
(٣) ــ سورة البقرة ١٨٦
(٤) ــ سورة ق ١٦
(٥) ــ سورة الحديد ٤
(٦) ــ سورة فصلت ٣٨
(٧) ــ سورة الأعراف ٥٤
(٨) ــ سورة طه ٥

وغيرهما من الآيات الكريمة .

حب الله وكرهه :

قال الله تبارك وتعالى فى سورة آل عمران : قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله[1] .

وقال الرسول ﷺ فيما رواه ابن ماجة والنسائى وأحمد وغيرهم بأسانيدهم عن أنس بن مالك وعائشة وأبى هريرة وعباده بن الصامت رضى الله تعالى عنهم :

ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه[2] .

وروى البخارى وأحمد وغيرهما بسندهم عن أبى هريرة وعائشة رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : إن الله قال :

« من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه ، ومايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته »[3] .

---

(١) ـــ سورة آل عمران ٣١

(٢) ـــ انظر الحديث بطوله فى سنن ابن ماجه كتاب الزهد باب ذكر الموت والاستعداد له صـ ١٤٢٥ ـــ وسنن النسائى كتاب الجنائز باب فيمن أحب لقاء الله جـ ٤ صـ ٩ ـــ ومسند الإمام أحمد جـ ٦ صـ ٢١٨ ـــ .

(٣) ـــ صحيح البخارى كتاب الرقاق باب التواضع عن أبى هريرة جـ ٨ صـ ١٣١ ـــ ومسند أحمد عن عائشة جـ ٦ صـ ٢٥٦ . وأخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير عن أبى أمامة ، وابن السنى عن ميمون ، وهو حديث قدسى عظيم مبارك ،

وغير ذلك من الآيات الكريمة ، والأحاديث العظيمة .

لعنة الله وغضبه ورضاه وفرحه :

قال الله تبارك وتعالى فى سورة المائدة : ... **من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت**[1].

وقال فى سورة التوبة وسورة البينة : .... **رضى الله عنهم ورضوا عنه**[2] .

وقال ﷺ فيما رواه البخارى ومسلم ــ واللفظ له ــ والترمذى وابن ماجة والدارمى وأحمد بأسانيدهم عن أنس بن مالك :

لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينا هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح[3] .

وأخطأ من زعم أن البخارى انفرد بروايته ، وأخطأ كذلك من زعم أنه من غرائب البخارى .

(١) ــ سورة المائدة ٦٠ (٢) ــ سورة التوبة ١٠٠ وسورة البينة ٨

(٣) ــ انظر الروايات فى صحيح البخارى كتاب الدعوات باب التوبة جـ ٨ صـ ٨٣ ــ وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب التوبة جـ ٥ صـ ٥٨٨ ــ ٥٩١ ــ وسنن الترمذى أبواب صفة القيامة باب ١٥ جـ ٤ صـ ٦٩ ــ وأبواب الدعوات باب ١٠٤ جـ ٥ صـ ٢٠٧ ــ وسنن ابن ماجه كتاب الزهد باب ذكر التوبة صـ ١٤١٩ ــ وسنن الدارمى كتاب الرقائق باب الله أفرح بتوبة العبد جـ ٢ صـ ٣٠٣ ــ ومسند أحمد جـ ١ / ٣٨٣ وجـ ٣ / ٨٣ / ٢١٣ وجـ ٤ / ٢٧٣ و٢٧٥ / ٢٨٣ ــ ومن رواته غير أنس : عبد الله بن مسعود وأبو هريرة وأبو سعيد الخدرى والنعمان بن بشير والبراء بن عازب رضى الله تعالى عنهم .

وغير ذلك من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التى تصف الله بما سبق .

عجب الله وحلمه وضحكه وحياؤه :

قال الله عز وجل فى سورة الصافات : بل عجبت ويسخرون[1] ، بضم التاء للمتكلم ، وهى قراءة عشرية متواترة قرأ بها حمزة بن حبيب الزيات والكسائى وغيرهما .

وقال الرسول ﷺ فيما رواه ابن ماجة والنسائى وغيرهما بسندهم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه :

« إن الله عز وجل يعجب من رجلين يقتل أحدهما صاحبه ، وقال مرة أخرى : ليضحك من رجلين يقتل أحدهما صاحبه ثم يدخلان الجنة .

وفى رواية أخرى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

« يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة ، يقاتل هذا فى سبيل الله فيقتل ، ثم يتوب الله على القاتل فيقاتل فيستشهد[2] .

وهذا الحديث يعد تفسيرا وبيانا للحديث السابق .

وقال ﷺ فيما رواه ابن ماجة وأحمد وغيرهما بسندهم عن أبى رزين العقيلى واسمه لقيط بن عامر رضى الله عنه :

« ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غيره ، قال : قلت : يا رسول الله أو يضحك الرب ؟ قال : نعم ، قلت : لن نعدم من رب يضحك

---

(١) — سورة الصافات ١٢ .

(٢) — مقدمة سنن ابن ماجه باب فيما أنكرت الجهمية صـ ٦٨ — وسنن النسائى كتاب الجهاد باب اجتماع القاتل والمقتول فى سبيل الله فى الجنة جـ ٦ صـ ٣٨ — ٣٩ —

خيرا ﴾(١) .

وقال الله تعالى فى سورة المائدة : والله غفور حليم(٢).

وقال ﷺ فيما أخرجه الترمذى وابن ماجة وأبو داود وأحمد وغيرهم بأسانيدهم عن سلمان الفارسى :

« إن ربكم حي كريم ، يستحي من عبده أن يرفع إليه يديه فيردهما صفرا — أو قال — خائبتين »(٣).

وغيرهـا من الآيات الكريمة والأحاديث العظيمة التى تصف الله تعالى بما سبق .

مكر الله واستهزاؤه وفراغه :

قال الله تبارك وتعالى فى سورة آل عمران : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين(٤) .

وقال سبحانه فى سورة البقرة : الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون »(٥) .

---

(١) — مقدمة سنن ابن ماجه باب فيما أنكرت الجهمية صـ ٦٤ — ومسند الإمام أحمد جـ ٤ صـ ١١ وتوجد روايات أخرى فى صحيح البخارى فى كتاب التفسير تفسير سورة الحشر ، وفى سنن الترمذى فى أبواب الدعوات ، وفى سنن أبى داود فى كتاب الجهاد ، وغيرها من الكتب تصف الله عز وجل بصفة العجب وبصفة الضحك .

(٢) — سورة المائدة ١٠١ .

(٣) — سنن الترمذى أبواب الدعوات باب ١١٨ جـ ٥ صـ ٢١٧ وقال عنه : حديث حسن غريب — وسنن ابن ماجه كتاب الدعاء باب رفع اليدين فى الدعاء صـ ١٢٧١ — ومسند أحمد جـ ٥ صـ ٤٣٨ — وسنن أبى داود كتاب الصلاة .

(٤) — سورة آل عمران ٥٤ (٥) — سورة البقرة ١٥

وقال تعالى فى سورة الرحمن جل وعلا : سنفرغ لكم أيها الثقلان[1] .

وغيرها من الآيات الكريمة الحكيمة التى تصف الله عز وجل بما تقدم .

هذه باقة من النصوص الموجودة فى القرآن الكريم والسنة المطهرة والتى تصف الله تعالى بصفات يستحيل حملها على ظاهرها واعتقادها بحسب المتبادر منها :

لأنها تقتضى مشابهته تعالى للحوادث واتصافه بأوصاف خلقه .

وتتعارض مع قوله سبحانه فى سورة الشورى : .. ليس كمثله شىء وهو السميع البصير »[2] ، ومع آيات سورة الإخلاص : قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » ، ومع قوله تعالى فى سورة طه : .... ولا يحيطون به علما »[3] وغيرها من الآيات .

لذا اتفق أهل السنة على أن العقائد تستقى وتستفاد من الآيات المحكمات والبراهين العقلية اليقينية .

وعلى أنه إذا وجد فى آيات وأحاديث وصف فى حق الله يخالف ظاهره ما علم من الآيات المحكمات وشهدت بصحته الأدلة العقلية اليقينية وجب رده إلى الآيات المحكمات واعتقاد أن ظاهره غير مراد لله سبحانه وتعالى ولا لرسوله ﷺ .

وعلى أنه إن كان لشىء من المتشابه تأويل واحد ومعنى واحد أخذ به وكان هو المراد لله عز وجل كقوله تعالى فى سورة الحديد : « وهو معكم أينما كنتم »[4] ، وفى سورة المجادلة : ... ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا »[5] :

(١) ـــ سورة الرحمن تبارك وتعالى ٣١ (٢) ـــ سورة الشورى ١١

(٣) ـــ سورة طه ١١٠ (٤) ـــ سورة الحديد ٤ (٥) ـــ سورة المجادلة ٧

فهذه الكينونة أو المعية ليس لها إلا تأويل واحد هو : كينونته تعالى مع خلقه بالعلم والسمع والبصر والقدرة والإرادة .

أما كينونته تعالى معهم بذاته فهى مستحيلة جزما وقطعا .

وقد حكى غير واحد الإجماع على ذلك كما قال الحافظ ابن كثير فى تفسير الآية المذكورة .

وكقوله تعالى فى سورة الزمر : أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين[1] :

فإن التفريط فى جنبه سبحانه ليس له إلا تأويل واحد هو : التفريط فى عبادته والإهمال فى طاعته وحقه وما يجب له تعالى .

أما المعنى الظاهر فهو مستحيل عليه قطعا ويقينا .

واختلفوا فيما إذا كان للمتشابه أكثر من تأويل واحد :

فذهب السلف من أهل السنة إلى الإيمان بالمتشابهات وبنزولها من عند الله تعالى ، والاعتقاد بأن ظاهرها المتبادر منها غير مراد له تعالى ، وبتفويض معرفتها وكلة علم حقائقها إليه سبحانه ، ويمتنع عندهم البحث أو السؤال عن الكيفية والتفاصيل والتأويل .

ووردت نصوص وروايات عن بعض السادة أئمة هذا المذهب كقول الإمام مالك رحمه الله حين سئل عن الاستواء فى الآية الكريمة من سورة طه : « الرحمن على العرش استوى » فقال :

« الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب . والسؤال عنه بدعة »

---

(١) ــ سورة الزمر ٥٦

وفى رواية اخرى عنه قال :

« هو كما وصف نفسه ، ولا يقال كيف ، وكيف عنه مرفوع .

وروى عن أم سلمة رضى الله تعالى عنها أنها قالت فى الآية :

« الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإقرار به من الإيمان والجحود به كفر » .

وروى عن ربيعة بن أبى عبد الرحمن رحمهما الله تعالى أنه سئل عن الآية فقال : « الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ المبين ، وعلينا التصديق .

وقال محمد بن الحسن : اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه .

وقال ابن الصلاح على هذه الطريقة :

مضى صدر الأمة وساداتها ، وإياها اختار أئمة الفقهاء وقاداتها ، وإليها دعا أئمة الحديث وأعلامه ، ولا أحد من المتكلمين من أصحابنا يصدف عنها ويأباها .

وقال الترمذى فى الكلام على حديث الرؤية [1] :

المذهب فى هذا عند أهل العلم من الأئمة مثل : سفيان الثورى ، ومالك ابن أنس ، وابن المبارك ، وسفيان بن عيينة ، ووكيع بن الجراح وغيرهم أنهم قالوا :

نروى هذه الأحاديث كما وردت ، ونؤمن بها ، ولا يقال كيف ، ولا نفسر ولا

---

(١) — سنن الترمذى أبواب صفة الجنة باب ما جاء فى خلود أهل الجنة وأهل النار جـ ٤ صـ ٩٧ .

نتوهم ، وهذا أمر أهل العلم الذى اختاروه وذهبوا إليه .

وكان إمام الحرمين الجوينى [١] يذهب إلى التأويل ثم رجع عنه فقال فى الرسالة النظامية :

الذى نرتضيه دينا وندين الله به عقدا اتباع سلف الأمة فإنهم درجوا على ترك التعرض لمعانيها [٢].

وذهب الخلف من أهل السنة مذهبين :

أ ـــ مذهب يثبت لله تبارك وتعالى ما أثبته لنفسه من صفات تليق به عقلا وشرعا فهى صفات دل عليها السمع لا العقل ، وهى زائدة على صفاته المعلومة .

فأصحاب هذا المذهب يثبتونها لله تعالى ويمرونها كما وردت مع تنزيهه تعالى عن مشابهته للحوادث فلا يمثلون ولا يعطلون ولا يكيفون .

فمثلا يثبتون لله تعالى صفة الاستواء ، والوجه والعين ، واليد ، والنفس ، ونحو ذلك ويقولون تثبت له الصفات التى أثبتها لنفسه وإن لم تعلم حقيقتها مع تنزيهه عن الحوادث .

ب ـــ ومذهب يخرج الكلام عن ظاهره المتبادر ويحمله على أقرب مجاز إذ المجاز يصار إليه إذا تعذرت الحقيقة وهى متعذرة ـــ فى نظرهم ـــ هنا .

وأصحاب هذا المذهب أسرفوا فى التأويلات وأكثروا منها ـــ وباب

---

(١) ـــ هو أبو المعالى عبد الملك بن أبى عبد الله بن يوسف بن محمد الجوينى العراقى ، إمام الحرمين ، كان شافعى المذهب ، وأحد شيوخ الإمام الغزالى حجة الإسلام ، له مؤلفات متنوعة ورسائل كثيرة منها : الورقات فى الأصول ت ٤٧٨هـ : انظر وفيات الأعيان جـ ١ صـ ٢٨٧ .

(٢) ـــ انظر البرهان للزركشى جـ ٢ صـ ٧٨ والإتقان للسيوطى جـ ٢ صـ ٦ .

التأويلات واسع فسيح . والاحتمالات فيه كثيرة . والقرآن حمال ذو وجوه .
ولم يقتصر هذا المذهب على خالف أهل السنة وإنما سار فيه المعتزلة وغيرهم من المؤولة .

لذا كانت لهم تأويلات بعيدة عقلا وشرعا ، وشطحات غريبة فى بعض الآيات كقول بعضهم فى تفسير قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى »[1] :

إن الوقف على — على — تام ، وابتدأ الكلام بقوله : « العرش استوى » ، ويكون المعنى : الرحمن علا : أى ارتفع من العلو أ هـ .

وهذا التفسير مرذول ومذموم :

لأنه جعل « على » فعلا ماضيا مع أنها حرف جر باتفاق وإجماع ، وحرفيتها من بدائه النحو وأولياته فلا يجهل حرفيتها أحد .

ولو كانت فعلا لكانت بالألف نطقا وكتابة مثل قوله تعالى فى سورة المؤمنون : « ... ولعلا بعضهم على بعض » الآية[2]، وقوله سبحانه فى سورة القصص : « إن فرعون علا فى الأرض ... » الآية[3].

ولأن هذا التفسير جعل « العرش » مرفوعا ولم يقرأ بذلك أحد .

فهذا التفسير من بدع التفاسير وغرائبها ومذمومها ، وجدير أن يوسم بالتغيير بدلا من التفسير .

وكقول بعضهم فى نفس الآية الكريمة :

إن الوقف على « العرش » تام ، ثم ابتدأ بقوله : « استوى له ما فى السماوات وما فى الأرض ... » أ هـ .

---

(١) — سورة طه ٥ (٢) — سورة المؤمنون ٩١ (٣) — سورة القصص ٤

وهو تأويل قبيح مردود على صاحبه :

لأنه أدى إلى تغيير ومخالفة نظام الآيات وفواصلها ، وأفضى إلى تفتيت نظم الآية وفرط عقدها وسمطها ، ولم يرفع الإشكال فى قوله تعالى : ثم استوى على العرش .

ولهم تأويلات حسنة مقبولة معقولة تتناسب مع روح الشرع وقواعد اللغة — وإن كانت احتمالية ومقبولة فى الجملة وفى بعضها نظر — كقولهم :

المراد من **الاستواء** الغلبة والاستيلاء ، أو التملك والقهر ، أو الاستقرار ، أو الصعود ، أو الإقبال على خلق العرش كقوله تعالى فى سورة فصلت : « ثم استوى إلى السماء وهى دخان »[1] ، أو القيام بالعدل كقوله جل وعلا فى سورة آل عمران : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط »[2].

والمراد من **وجه الله** : ذاته من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل .

والمراد من **يده** : قدرته ، أو نعمته .

والمراد من **عينه** : حفظه ورعايته وكلاءته .

والمراد من **فوقيته** : علوه المعنوى أى سيطرته وهيمنته وغلبته بالقوة والقدرة .

والمراد من **قربه** : علمه وسمعه وبصره وقدرته .

والمراد من **فراغه للثقلين** : أنه تعالى قصد إليهما للحساب بعد طول الترك والإمهال لأنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن .

أو المراد : انتهاء مدة الدنيا وانقضاء شأنها ولا يبقى إلا شأن

---

(١) — سورة فصلت ١١ (٢) — سورة آل عمران ١٨

الآخرة ، أى دنا من الله فراغ لخلقه بقرب الساعة ومجىء أشراطها .

والمراد من حبه وكرهه وغضبه وضحكه وغيرها من صفات الأعراض النفسية :

لازمها من الإثابة والمعاقبة .

ووضعوا فى ذلك قاعدة مشهورة هى :

(كل ما استحال على الله تعالى باعتبار مبدئه وحقيقته فالمقصود منه أثره وغايته) أى لازمه .

قال الإمام العلامة فخر الدين الرازى :

جميع الأعراض النفسانية أعنى الرحمة ، والفرح ، والسرور ، والغضب ، والحياء ، والمكر ، والاستهزاء ، لها أوائل ، ولها غايات .

فالغضب مثلا أوله : غليان دم القلب ، وغايته : إرادة إيصال الضرر إلى المغضوب عليه .

فلفظ « الغضب » فى حق الله لا يحمل على أوله الذى هو : غليان دم القلب ، بل يحمل على غايته التى هى : إرادة الإضرار .

وكذا « الحياء » أوله : إنكسار يحصل فى النفس ، وغرضه : ترك الفعل . فلفظ « الحياء » فى حق الله يحمل على ترك الفعل لا على إنكسار النفس أهـ .

وقال الحسين بن الفضل رحمه الله تعالى :

« العجب » من الله إنكار الشىء وتعظيمه ، وهو لغة العرب أ هـ[1] .

(١) ـــ انظر البرهان للزركشى جـ ٢ صـ ٨١ ـــ والإتقان للسيوطى جـ ٢ صـ ٨ .

ومما تقدم يتجلى الفرق بين المذاهب الثلاثة فى المتشابه الذى يكون له أكثر من تأويل :

فالسلف : يفوضون تفويضا كاملا ومطلقا ، ويمتنعون عن التأويل ، ويمسكون عن الخوض فيه .

أما الخلف فيفترقون فريقين :

فريق يقابل مذهبهم مذهب السلف فيؤولون تأويلا مطلقا ، ويفرطون فيه بحمل كل لفظ متشابه على أقرب معنى مجازى وإخراجه عن معناه الحقيقى ، ويحاولون تعيين المعنى المراد لرب العباد سبحانه وتعالى .

وفريق آخر لم يفوضوا تفويضا محضا ، ولم يؤولوا تأويلا مفرطا ، وإنما سلكوا مسلكا وسطا ، فأثبتوا لله تبارك وتعالى ما أثبته لذاته من صفات تليق به وأمسكوا عن تفصيلها .

فمذهب هذا الفريق أقرب إلى مذهب السلف .

رضى الله تبارك وتعالى عن سلفنا الصالح ، ورحمهم بواسع رحمته ، وغمرهم بفيض كرمه ، وعمهم بغيث إحسانه ، وأكبر رضوانه .

الحكمة من وجود متشابه الصفات

حاول بعض العلماء الجهابذة التماس الحكمة الإلهية لوجود متشابه الصفات والتعليل لذلك ، ومن أبرزهم فخر الدين الرازى ، وشمس الدين بن اللبان ، وهاك ما قاله هذان العلمان :

قال الفخر الرازى مستشفا الحكمة من وجود متشابه الصفات أثناء تفسيره للآية الكريمة السابعة من سورة آل عمران والتى هى الأصل فى هذا المبحث :

إن القرآن يشتمل على دعوة الخواص والعوام ، وطبائع العوام تنبو فى أكثر الأمور عن إدراك الحقائق ، فمن سمع من العوام فى أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا متحيز ولا مشار إليه ظن أن هذا عدم ونفى محض ، فيقع فى التعطيل .

فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما تخيلوه وما توهموه ، ويكون ذلك مخلوطا بما يدل على الحق الصريح .

فالقسم الأول ــ وهو الذى يخاطبون به فى أول الأمر ــ من باب المتشابه .

والقسم الثانى ــ وهو الذى يكشف عن الحق الصريح ــ هو المحكم أ هـ[1].

---

(١) ــ انظر مفاتيح الغيب للفخر الرازى جـ ٧ صـ ١٧٢ .

وقال شمس الدين ابن اللبان فى مقدمة كتابه : رد الآيات المتشابهات إلى الآيات المحكمات ما خلاصته :

ليس فى الوجود فاعل إلا الله تعالى ، وأفعال العباد منسوبة الوجود إليه بلا شريك ولا معين ، فهى فى الحقيقة فعله ، وله بها عليهم الحجة ، « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » [1].

ومن المعلوم أن أفعال العباد لابد فيها من توسط الجوارح مع أنها منسوبة إليه تبارك وتعالى ، وبذلك يعلم أن لصفاته سبحانه فى تجلياتها مظهرين :

مظهر عبادى منسوب لعباده وهو : الصور والجوارح الجسمانية .

ومظهر حقيقى منسوب إليه تعالى وقد أجرى عليه أسماء المظاهر العبادية المنسوبة لعباده على سبيل التقريب لأفهامهم ، والتأنيس لقلوبهم .

وقد نبه تعالى فى كتابه على القسمين ، وأنه منزه عن الجوارح فى الحالين .

فنبه على الأول بقوله : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم » [2]، فهذا يفيد أن كل ما يظهر على أيدى العباد فهو منسوب إليه سبحانه وتعالى .

ونبه على الثانى بقوله فيما أخبر عنه نبيه ﷺ كما جاء فى صحيح مسلم : « ولايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها » [3].

---

(١) ــ سورة الأنبياء عليهم الصلاة وأزكى السلام ٢٣ .

(٢) ــ سورة التوبة ١٤

(٣) ــ سبق تخريجه قريبا تحت عنوان : حب الله وكرهه ، ولم أجده فى صحيح الإمام مسلم .

وقد حقق الله ذلك لنبيه بقوله : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله »[1]، وبقوله : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »[2].

وبهذا يفهم ما جاء من الجوارح منسوبا إلى الله تعالى ، فلا يفهم من نسبتها إليه تشبيه ولا تجسيم ، ولكن الغرض من ذلك التقريب للأفهام والتأنيس للقلوب .

والواجب سلوكه إنما هو : رد المتشابه إلى المحكم على القواعد اللغوية ، وعلى مواصفات العرب ، وعلى ما كان يفهمه الصحابة والتابعون من الكتاب الكريم والسنة المطهرة أ هـ[3].

وما قاله هذان العالمان الجليلان ، والإمامان الهمامان ، قول وجيه ، وكلام نفيس ، ينبغي للقارىء الكريم فهمه وتعقله واستحضاره والحرص عليه .

---

(١) ــ سورة الفتح ١٠ (٢) ــ سورة الأنفال ١٧

(٣) ــ انظر مناهل العرفان للشيخ الزرقاني رحمه الله جـ ٢ صـ ١٩٣ ــ ١٩٤ .

فائدة وجود المتشابه

تختلف فوائد وجود المتشابه ووروده فى القرآن الكريم والسنة الشريفة تبعا لاختلاف موقف العلماء من المتشابه وتعريفهم له :

فمن يرون أن المتشابه مما استأثر الله تعالى بعلمه واختص به تكون فائدة وجود المتشابه هى :

« ابتلاء العباد واختبارهم » :

فالله تبارك وتعالى يبتليهم بإنزال المتشابه ووجوده كما يبتليهم بأحكام وتشريعات لا يدركون لها سرا ، ولا يعرفون لها حكمة على وجه التحديد والتعيين .

والله جل وعلا يبتليهم بذلك :

أ ـــ ليقص جناح العقل البشرى ، ويزيل عنه الزهو والعجب ، ويكسر سورة جموحه ، ويخفض من اغتراره بنفسه وكبريائه وتعاليه .

فحين يجد العقل البشرى فى النصوص الشرعية أمورا لا يعرف المراد منها على سبيل التحديد ، ولا طريق له إلى معرفتها والعلم بها ، يحس بالعجز والضآلة والاستكانة ، ويقر بالقصور والضعف ، ويئوب إلى رشده ، ويتواضع لخالقه ، ويخضع لباريه ، وينطق لسان حاله : « وفوق كل ذى علم عليم »[1]، « سبحانك لا علم لنا ألا ما علمتنا إنك أنت العليم

(١) ـــ سورة يوسف عليه السلام ٧٦

الحكيم »[1]، « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب »[2].

قال بعض العلماء :

« العقل مبتلى باعتقاد حقية المتشابه كابتلاء البدن بأداء بعض العبادات ... »[3].

ب ــ ولتقوم الحجة عليهم بالقرآن ، ويثبت أنه منزل من عند الله تعالى حيث إنه نزل بلغة العرب ولسانهم ، وفيهم مصاقع الخطباء ، ونوابغ البلغاء ، ونوابه الفصحاء ، وفوارس حلبات الشعر ، وأبناء بجدتها ، ومع ذلك عجزوا عن الوقوف على بعض معانيه والعلم ببعض أسراره .

جـ ــ وليؤمن الإنسان بالغيب ، ويتوكل على الله حق التوكل ، ويفوض الأمر إليه ، والإيمان بالغيب ركن حتمى لابد منه ، ولا يتم إيمان المرء إلا إذا آمن وأيقن بالغيب بكل ما فيه وسائر ما أخبر الله ورسوله ﷺ .

د ــ وليتميز المؤمن الصادق الإيمان الملتزم بشرع الله الواقف عند حدوده من الدعى المنتسب إلى الإسلام المشكك فيه المثير للفتن وفى قلبه زيغ ودخل ، وفى صدره مرض ودغل :

« فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب » .

ومن يرون أن من المتشابه ما يمكن أن يعلمه العلماء الراسخون فى العلم

---

(1) ــ سورة البقرة ٣٢ (2) ــ سورة آل عمران ٨ .

(3) ــ البرهان للزركشى جـ ٢ صـ ٧٢ والإتقان للسيوطى جـ ٢ صـ ٤ .

تكون فائدة وجوده فى نظرهم هى :

أ ـــ دفع العلماء إلى البحث والنظر الموصل إلى العلم والتسابق فى فهم مشكلات القرآن الكريم ، وبذل الجهد وكد الذهن فى الوصول إلى خفاياه ، والغوص فى محيط أسراره لاستخراج درره ولآلئه ، والوقوف على دقائق آياته واستنباط الأحكام والعبر منها .

ب ـــ بيان فضل العلماء ، وإظهار تفاضلهم ، وتمايز قدراتهم ، وتفاوت درجاتهم : إذ لو كان القرآن العظيم كله محكما واضحا لا يحتاج إلى تأويل وإعمال نظر لاستوت منازل الخلق ولم يظهر فضل العالم على غيره ، ولا تفاوت العلماء وتفاضلهم .

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب » [١].

قال العلامة ابن قتيبة رحمه الله رحمة واسعة :

« ولو كان القرآن كله ظاهرا مكشوفا حتى يستوى فى معرفته العالم والجاهل لبطل التفاضل بين الناس ، وسقطت المحنة ، وماتت الخواطر ، ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة ، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة أ هـ[٢] .

جـ إتاحة الفرصة لنيل الأجر والمثوبة ومضاعفتها :

فإن بحث العلماء عن دقائقه واستخراج لآلئه من أعظم القرب والزلفى إلى الله رب العالمين .

وإن زيادة المشقة وتجشم المصاعب وتحمل المتاعب فى الوصول إلى المراد والصواب ، تؤدى إلى مزيد الثواب :

---

(١) ـــ سورة الزمر ٩ .   (٢) ـــ تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة صـ ٨٦ .

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين »[1]، « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين »[2].

د ــ فتح باب الجد والاجتهاد والابتكار فى العلوم والاستزادة من طلب العلم :

فإن وجود المتشابه يحفز العلماء ويشحذ هممهم إلى تحصيل علوم كثيرة نافعة ، والتسلح بها ، والاستفادة منها : كاللغة ، والاشتقاق ، والنحو ، والبلاغة وأصول الفقه وغير ذلك من العلوم ليتمكنوا من النظر والبحث والتأويل ، ويتسنى لهم ترجيح بعض المعانى على بعض عن علم وبصيرة ، وبينة نيرة .

هـ ــ إثارة العقول وتحريكها إلى الفكر والنظر والتعمق والتروى للتخلص من ظلمة الجهل ، وربقة التقليد ، وغل الجمود ، ولدحض أى شبهة من الشبهات التى يثيرها الأعداء الألداء على الإسلام الحنيف .

رزقنا الله تعالى فهم دينه ، والعمل بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، وجنبنا الشطط والزلل ، وهدانا سواء السبيل .

وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وأصحابه ، آمين .

---

(١) ــ سورة آل عمران ١٤٢

(٢) ــ سورة العنكبوت ٦٩

فهرس المراجع

من أهم مراجع هذا الكتاب

١ ــ **القرآن الكريم** .

٢ ــ **الإتقان فى علوم القرآن**

لجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى ت ٩١١ هـ ، وبهامشه : إعجاز القرآن للقاضى أبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى ت ٤٠٤ هـ . مطبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة الطبعة الثالثة ١٣٧٠ هـ ــ ١٩٥١ م .

٣ ــ **البحر المحيط**

لأبى حيان محمد بن يوسف الأندلسى الغرناطى ت ٧٤٥ هـ . وبهامشه : « النهر الماد من البحر » له أيضا ، وهو تلخيص واختصار لكتابه : « البحر المحيط » . وبهامشه كذلك : « الدر اللقيط من البحر المحيط » لتلميذه : تاج الدين أحمد بن عبد القادر الحنفى النحوى ت ٧٤٩ هـ .

دار الفكر للطباعة والنشر الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ ــ ١٩٨٣ م .

٤ ــ **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**

للشوكانى محمد بن على بن محمد ت ١٢٥٠ هـ . وعليه تعليقات للشيخ محمد زبارة اليمنى .

مطبعة السعادة ، الطبعة الأولى ١٣٤٨ هـ .

٥ ــ البرهان فى علوم القرآن

لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى ت ٧٩٤ هـ . بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . مطبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة الطبعة الثانية ١٩٧٢ م .

٦ ــ تأويل مشكل القرآن

لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ت ٢٧٦ هـ بتحقيق السيد أحمد صقر دار التراث ١٣٩٣ هـ ــ ١٩٧٣ م .

٧ ــ التحبير فى علم التفسير

لجلال الدين السيوطى ، بتحقيق الدكتور فتحى عبد القادر فريد دار المنار ١٤٠٦ هـ ــ ١٩٨٦ م .

٨ ــ تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى

لجلال الدين السيوطى ، بتحقيق شيخنا عبد الوهاب عبد اللطيف رحمه الله . مطبعة السعادة الطبعة الثانية ١٣٨٥ هـ . ١٩٦٦ م

٩ ــ التسهيل لعلوم التنزيل

لابن جزى الكلبى محمد بن أحمد الأندلسى الغرناطى ت ٧٩٢ هـ مطبعة دار الفكر .

١٠ ــ تفسير القرآن العظيم

للحافظ ابن كثير عماد الدين أبى الفدا إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى ت ٧٧٤ هـ . مطبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة .

١١ ــ تناسق الدرر فى تناسب السور

لجلال الدين السيوطى ، قام بتحقيقه : عبد القادر أحمد عطا ، وسماه : « أسرار ترتيب القرآن » .

دار النصر للطباعة الإسلامية الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م .

١٢ — تهذيب التهذيب
لابن حجر العسقلانى أحمد بن على ت ٨٥٢ هـ . دار الفكر للطباعة والنشر الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م

١٣ — جامع البيان عن تأويل آى القرآن
لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ت ٣١٠ هـ .
مطبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة الطبعة الثانية ١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م .

١٤ — الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير
لجلال الدين السيوطى ، وبهامشه كتاب كنوز الحقائق فى حديث خير الخلائق للإمام المناوى — المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٦ هـ .

١٥ — الجامع لأحكام القرآن
لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى الأندلسى ت ٦٧١ هـ . بتصحيح الشيخ إبراهيم أطفيش . مطبعة دار الشعب بالقاهرة .

١٦ — خلاصة تذهيب تهذيب الكمال فى أسماء الرجال
للخزرجى صفى الدين أحمد بن عبد الله ت ٩٢٣ هـ مكتب المطبوعات الإسلامية حلب بسوريا — بيروت بلبنان الطبعة الثالثة ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ .

١٧ — الدر المنثور فى التفسير بالمأثور
لجلال الدين السيوطى — وبهامشه تفسير لعبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما جمعه الفيروز ابادى صاحب القاموس .

دار المعرفة للطباعة والنشر ـــ بيروت .

١٨ ـــ **روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى**

للسيد محمود الألوسى البغدادى ت ١٢٧٠ هـ دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ ـــ ١٩٧٨ م .

١٩ ـــ **زاد المسير فى علم التفسير**

لأبى الفرج بن الجوزى ت، ٥٩٧ هـ . المكتب الإسلامى بيروت ـــ الطبعة الثالثة ١٤٠٤ هـ ـــ ١٩٨٤ م .

٢٠ ـــ **سنن أبى داود**

سليمان بن الأشعث السجستانى ت ٢٧٥ هـ بتحقيق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد ـــ دار الفكر .

٢١ ـــ **سنن ابن ماجة**

أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ت ٢٧٥ هـ بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقى مطبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة .

٢٢ ـــ **سنن الترمذى**

أبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة ت ٢٧٩ هـ . بتحقيق الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف والشيخ عبد الرحمن محمد عثمان مطبعة المدنى ومطبعة الفجالة بالقاهرة ١٣٨٤ هـ ـــ ١٩٦٤ م .

٢٣ ـــ **سنن الدارمى**

أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام ت ٢٥٥ هـ ـــ دار الكتب العلمية بيروت .

٢٤ ـــ **سنن النسائى**

أبى عبد الرحمن أحمد بن شعيب ت ٣٠٣ هـ ، وشرحها الجلال

الدين السيوطى ، وحاشية أخرى عليها لأبى الحسن السندى ت ١١٣٨ هـ — دار إحياء التراث العربى — بيروت .

٢٥ — الصحاح

لإسماعيل بن حماد الجوهرى ت ٣٩٣ هـ تقريبا . بتحقيق أحمد عبد الغفور عطار مطابع دار الكتاب العربى الطبعة الأولى ١٣٧٦ هـ — ١٩٥٦ .

٢٦ — صحيح الإمام البخارى

محمد بن إسماعيل ت ٢٥٦ هـ مطبعة دار الشعب بالقاهرة .

٢٧ — صحيح الإمام مسلم

بن الحجاج القشيرى ت ٢٦١ هـ . ومعه شرح الإمام النووى أبى زكريا يحى بن شرف ت ٦٧٦ هـ . بتحقيق عبد الله بن أبى زينة مطبعة دار الشعب بالقاهرة .

٢٨ — غاية النهاية فى طبقات القراء

لشمس الدين أبى الخير محمد بن محمد بن الجزرى ت ٨٣٢ هـ نشرة ج . برجستراسر — دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٢ — ١٩٨٢ م .

٢٩ — فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير

للإمام الشوكانى مطبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٤ م .

٣٠ — القاموس المحيط

للفيروزابادى مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازى ت ٨١٧ هـ مؤسسة الحلبى وشركاه بالقاهرة .

٣١ ــ كتاب المصاحف

لأبى بكر عبد الله بن أبى داود السجستانى ــ صاحب السنن ــ ت ٣١٦ هـ بتصحيح وتحقيق الدكتور آثر جفرى ــ المطبعة الرحمانية بمصر الطبعة الأولى ١٣٥٥ هـ ــ ١٩٣٦ م .

٣٢ ــ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل

لأبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى ت ٥٣٨ هـ . وبذيله : الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لناصر الدين أحمد بن المنير الاسكندرى المالكى ، و « حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقى الشافعى » ، و « مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف » للشيخ محمد عليان أيضا .

ويليه « الكافى الشاف فى تخريج أحاديث الكشاف للحافظ ابن حجر العسقلانى . دار المعرفة ــ بيروت .

٣٣ ــ مجمع الأمثال

للميدانى أبى الفضل أحمد بن محمد النيسابورى ت ٥١٨ هـ - بتحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ــ دار الفكر الطبعة الثالثة ١٣٩٣ هـ ــ ١٩٧٢ م .

٣٤ ــ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد

للحافظ على بن أبى بكر الهيثمى ت ٨٠٧ هـ بتحرير ومراجعة الحافظين الجليلين : العراقى وابن حجر مطبعة ومكتبة القدسى بالقاهرة .

٣٥ ــ المسند

للإمام أحمد بن حنبل الشيبانى ت ٢٤١ هـ . وبهامشه : « منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال للمتقى الهندى ــ المكتب

الإسلامى بيروت الطبعة الخامسة ١٤٠٥ هـ ــ ١٩٨٥ م .

٣٦ ــ المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير
للرافعى القزوينى ت ٦٢٣ هـ .

والمصباح
للفيومى أحمد بن محمد بن على المقرى ت ٧٧٠ هـ . بتحقيق الأستاذ الدكتور عبد العظيم الشناوى . دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٧ م .

٣٧ ــ مفاتيح الغيب ، ويسمى أيضا بالتفسير الكبير
للإمام فخر الدين الرازى أبى عبد الله محمد بن عمر بن الحسين ت ٦٠٦ هـ دار إحياء التراث العربى بيروت الطبعة الثالثة .

٣٨ ــ المفردات فى غريب القرآن
لأبى القاسم الحسين بن محمد المشهور والمعروف بالراغب الأصفهانى ت ٥٠٢ هـ بتحقيق محمد سيد كيلانى مطبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة ١٣٨١ هـ ــ ١٩٦١ م .

٣٩ ــ المقاصد الحسنة فى بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة
للسخاوى أبى الخير محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢ هـ تصحيح وتعليق الشيخ عبد الله محمد الصديق وتقديم شيخنا عبد الوهاب عبد اللطيف ــ دار الأدب العربى للطباعة ١٣٧٥ هـ ١٩٥٦ م .

٤٠ ــ مناهل العرفان فى علوم القرآن
لفضيلة الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى مطبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة .

٤١ ـ الموطأ
للإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة ت ١٧٩ هـ بتصحيح وتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي مطبعة دار الشعب بالقاهرة .

٤٢ ـ الناسخ والمنسوخ
لأبي القاسم هبة الله بن سلامة الضرير ت ٤١٠ هـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م .

٤٣ ـ الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم
لابن حزم الأندلسي أبي عبد الله محمد بن حزم ت ٣٢٠ هـ بتحقيق الدكتور عبد الغفار البنداري دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م .

٤٤ ـ نواسخ القرآن
للحافظ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي البغدادي ت ٥٩٧ هـ دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .

٤٥ ـ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار
للشوكاني محمد بن علي ـ ومنتقى الأخبار لابن تيمية الجد أبي البركات شيخ الحنابلة مجد الدين عبد السلام بن عبد الله الحراني ت ٦٥٢ هـ ـ شرحه الشوكاني في كتابه : نيل الأوطار ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م .

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين
وأصحابه الصادقين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٦٤٧ / ٨٧

الترقيم الدولى ٢ ـ ٥٢ ـ ١٤٢١ ـ ٩٧٧